سيرة

روبير سوليه

السادات



روبير سوليه

السادات

نقله من الفرنسيّة أدونيس سالم



صدرت عام 2015 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **Corbis ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
متابعة النشر: **رنا حايك**
طباعة: **Chemaly & Chemaly**

ر.د.م.ك.: 978-614-438-154-0

Titre original :
Sadate
© Perrin, 2013

Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges SCHEHADE, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires étrangères et du Développement international et du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban.

Ouvrage traduit avec le concours du Centre national du livre.

تمهيد

قليلون هم رجال الدولة في القرن العشرين الذين استطاعوا، بخطاب أو بحركة، تغيير مسار التاريخ. وأنور السادات كان واحدًا من تلك القلّة القليلة جدًّا. فالرحلة التي قام بها إلى القدس في العام 1977، وبدون أيّ مقابل، في حين كانت إسرائيل عدوّة العرب اللدودة، أصابت العالم بالذهول، وأفضت إلى معاهدة سلام. والسادات نفسه هو مَن أحدث، قبل أربعة أعوام من ذلك التاريخ، مفاجأة من نوع آخر، حين شنّ حربًا على الدولة اليهوديّة التي لا تُقهر، كما كانت تُعتبَر. ذلك النزاع المسلّح الذي تسبّب بالصدمة النفطيّة الأولى، مغرقًا الاقتصادات الغربيّة في أزمة لم تنهض منها قطّ.

حياة السادات هي أشبه برواية. فالمراهق المتحدّر من عائلة فلّاحين، والذي حلم بأن يصبح ممثّلًا، انتهى به المطاف إلى أكبر مسارح العالم. وقد كان ضابطًا شابًّا حين خطّط مع جواسيس نازيّين، في خضمّ معارك الحرب العالميّة الأولى، لمحاربة المحتلّ البريطانيّ. فطُرد من الجيش، وقضى في السجن أعوامًا، قبل أن يفرّ منه، ويعيش حياة التخفّي، ويشارك في عمليّات اغتيال، ليعود بعدها إلى السجن، ثمّ إلى

الجيش مجدّدًا... وهو الذي أذاع على أثير راديو القاهرة في 23 تمّوز/يوليو 1952 خبر استيلاء الضبّاط الأحرار على السلطة.

بعد ذلك الانقلاب، بدا السادات وكأنّه تخلّى عن طموحه، إذ عاش في ظلّ جمال عبد الناصر، متقيّدًا بالأوامر، مبرهنًا على وداعة مثاليّة، تكاد تبلغ حدّ التزلّف. كما اعتُبر شخصًا باهتًا وغير مؤثّرًا، لم يتخيّل أحد أنّ باستطاعته أن يخلف الزعيم الذي كان معبود الجماهير العربيّة، ويفرض نفسه شيئًا فشيئًا، ليشرع لاحقًا في عمليّة محو كلّ أثر للناصريّة عن بلده. ففي عهده نقلت مصر البندقيّة من كتف إلى كتف بطريقة لافتة للأنظار، متخلّية عن التعاون الوثيق مع الاتّحاد السوفياتيّ لأجل تحالف مع الولايات المتّحدة، وعن اشتراكيّة الدولة لأجل ليبراليّة لا تعرف حدودًا. وفوق ذلك، ارتبطت بمعاهدة سلام مع إسرائيل أدّت إلى نبذ العالم العربيّ بلدَ الفراعنة، وهو الأكبر بعدد السكّان وبتأثيره في المنطقة.

كان يُفترض بـ«الانفتاح الاقتصاديّ» الذي تغنّى به السادات أن يترافق وتأسيس ليبراليّة سياسيّة. لكنّ هذه العمليّة توقّفت قبل تحقيقها نتيجة تُذكر، ولا يقتصر السبب في ذلك على الصراع المرير الذي تخوضه مصر ضدّ الفقر، والأمّية، والتزايد السكّانيّ المتسارع. فالسادات الذي أيّد في شبابه الدكتاتوريّة، بقي في جوهره حاكمًا استبداديًّا مطلقًا. لقد كان «بطل الحرب والسلام»، يحبّ النقاش في الحلقات الخاصّة، إلّا أنّه لم يتحمّل أيّة معارضة في العلن.

إنّ التناقضات التي حفلت بها شخصية السادات قد عادت عليه بتقييمات هي على طرفَي نقيض، ففي حين أسبغ عليه البعض مديحًا عظيمًا، وجّه إليهِ آخرون النقد اللاذع. أمّا هو فقد زاد الغموض غموضًا، بأن قدّم تباعًا روايات متعدّدة لمسيرته السياسيّة. فبعدما رأيناه يرفع

عبد الناصر في كتبه الأولى إلى حدّ العبادة، راح يهشّمه في كتاباته اللاحقة، وينسب إلى نفسه صفة مؤسّس تنظيم الضبّاط الأحرار.

عمل السادات، الذي أصبح نجمًا كبيرًا تتخاطفه وسائل الإعلام، على أن يحافظ في بلده على صورته كرجل الشعب، بل كفلّاح متمسّك بالتقاليد. لكنّ ذلك لم يحُل دون قيام جيهان، زوجته اللامعة، التي أوجدت في مصر وظيفة السيّدة الأولى، برفع راية الحداثة والترويج لحقوق المرأة. لم يكتفِ «الرئيس المؤمن»، كما أراد أن يكون لقبه، بإظهار علامات التقوى الجليّة: بل أدخل في الدستور المصريّ مبادئ الشريعة الإسلاميّة، وأفسح المجال للإسلاميّين لمحاربة مناضلي اليسار والناصريّين. لكنّ ذلك كان خطأ كلّفه حياته، وساهم في منح الدين حيّزًا مفرطًا في الحياة السياسيّة والاجتماعيّة.

لم يكن عهد أنور السادات مرحلة عرضيّة في التاريخ المصريّ. فالسنوات الإحدى عشرة تلك كانت أهمّ بكثير من السنوات التسع والعشرين التي قضاها خَلَفه حسني مبارك في الحكم، والتي كانت إدارة إرث السادات طابعها الأساسيّ. وفي المحصّلة، يمكن القول إنّ تكريس عناية بالغة للإلمام بعهد السادات هو أمرِ لا غنىً عنه من أجل فهم مصر الحاليّة، وربّما حتّى العالم العربيّ.

1

أبطال طفولته

وُلد أنور السادات في الجنّة في 25 كانون الأوّل، ديسمبر 1918. ذلك ما ظلّ يردّده بحماسة وشغف طوال حياته، من غير أن يبخل بالوصف: «كانت حياتي في القرية اكتشافات رائعة تعقبها اكتشافات، كناعورة تحمل إليّ، ملء القِلال، ماء سحريًّا من بئر سرّية[1]». وتلك الجنّة، الواقعة في قلب دلتا النيل المصريّة، كان اسمها «ميت أبو الكوم». تخيّلوا قرية لم تصلها مياه الشرب ولا الكهرباء، يتشاطر معظم سكّانها وحيواناتهم مساكن مبنيّة بالطين. هناك، كان الطفل أنور يجلس أرضًا مع رفاقه في المدرسة القرآنيّة المتواضعة البناء، حافي القدمين، مرتديًا جلّابيّة، وعلى ركبتيه كلّ ما يحتاج إليه من أدوات مدرسيّة: لُويح صغير، وقطعة من القصب مبريّة يستخدمها كريشة للكتابة. وبين الدرس والدرس، يأكل جبنًا جافًّا وقطعًا من الخبز دسّها في جيب لباسه. كان الشيخ عبد الحميد يعلّم الصبيان القراءة والكتابة، متسلّحًا بقضيب، ويحفّظهم غيبًا سُور القرآن المئة والأربع عشرة.

1 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، Fayard، 1978، ص. 13.

كان أنور ابن «الأفندي». والأفندي هو لقب محمّد الساداتي، أوّل قرويّ في ميت أبو الكوم ينال الشهادة الابتدائيّة العامّة التي أنشأها المحتلّ الإنكليزيّ، ما سمح له بتولّي وظيفة إداريّة في وحدة طبّية للجيش في السودان. كانت شهرة الأفندي «الساداتي»، لا «السادات»، وظلّت كذلك حتّى العام 1952 حين حذف رئيس الجمهوريّة المقبل الحرف الأخير من شهرته، لتبسيطها أو لجعلها أكثر حداثة.

كانت مصر التي نشأ فيها أنور بلدًا ريفيًّا بشكل أساسيّ، يتركّز سكّانه البالغ عددهم ثلاثة عشر مليونًا في دلتا النيل ووادي النيل. واعتمدت مصر على ثروتين أساسيّتين هما القطن الطويل التيلة وقناة السويس. لكنّ «الذهب الأبيض» لم يكن يصنّع محلّيًا، كما أنّ الشركة العالميّة التي تدير الممرّ المائيّ الدوليّ كانت ملكًا للفرنسيّين والبريطانيّين. هؤلاء الأخيرون، الذين يحتلّون مصر منذ العام 1882، استغلّوا لاحقًا انحياز تركيّا إلى جانب ألمانيا في الحرب العالميّة الأولى، لتحويل مصر إلى محميّة، واستبدال الخديويّ بسلطان للتشديد على أنّ بلد الفراعنة لم يعد جزءًا من الأمبراطوريّة العثمانيّة. رسميًّا، كان ذلك الاحتلال مؤقّتًا، ولا يهدف إلّا إلى حماية مصالح الأجانب وإعادة النظام إلى البلد. لكنّ المؤقّت دام طويلًا... وفي العام 1919 قام وفد من أعيان البلاد بزيارة المندوب السامي البريطانيّ في القاهرة للمطالبة بالاستقلال، الذي لم يتحقّق إلّا بعد سبعة عشر عامًا. لكنّ مصر تحوّلت منذ العام 1922 إلى مملكة خاضعة للوصاية البريطانيّة، على أثر سيل من المظاهرات والإضرابات، التي شارك فيها الأغنياء كما الفقراء، والمسلمون كما الأقباط. من جهتها، فرضت فرنسا لغتها في الصالونات، وأوساط الأعمال، والمحاكم المختلطة[2]، بفضل شبكة استثنائيّة من المدارس

[2] مؤسّسة قضائيّة دوليّة، تأسّست في 1875 للبتّ في النزاعات بين أشخاص أو مؤسّسات من جنسيّات مختلفة.

الكاثوليكيّة والثانويّات التي أعدّت أجيالًا من حكّام مصر، واشتُهرت كلٌّ من الإسكندريّة والقاهرة بأنّها «باريس» مصغّرة. لكنّ ميت أبو الكوم التي لا يفصلها عن العاصمة سوى ستّين كيلومترًا، بدت بعيدة سنوات ضوئيّة عن أوبرا القاهرة، التي تستقبل أشهر فنّاني أوروبّا، أو عن «معهد الجغرافيا»، حيث تتدافع الحشود لتصغي إلى كبار المحاضرين يتحدّثون بلغة موليير.

بدت بشرة الصغير، الداكنة اللون حتّى تكاد تكون سوداء، وكأنّها على نقيض من اسم «أنور»... لكنّه لم يرثها عن أبيه، ذي الشعر المشرق اللون والعينين الزرقاوين، بل عن أمّه، نصف المصريّة ونصف السودانيّة، والتي حملت، على كلّ حال، لقب «ستّ البرّين». كان الوالدان يسكنان بصورة مؤقّتة في السودان، فبقي الطفل وأشقّاؤه في القرية، في منزل جدّته لأبيه، أمّ محمّد، التي يبجّلها. فتلك المرأة الأمّية، ذات الشخصيّة القويّة، كانت تدير قطعة الأرض التي تملكها العائلة، وتعالج الأمراض كافّة بواسطة خلاصات أعشاب طبّية، تعود إلى الزمن القديم، وتمتلك أسرارها.

زهران وأتاتورك

دأب أنور على النوم فوق تنّور الخبز، وسَوْق الماشية إلى الترعة لتشرب، والمشاركة في أعمال الريّ وقطاف القطن. وكانت إحدى ملذّاته المفضّلة أن يرافق جدّته سيرًا على درب ترابيّة، لشراء جرّة من الدبس. فما من شيء في العالم بدا له أشهى من ذلك الشراب السميك الذي يُخلط بالحليب المروّب!

في تلك الجنّة المفترضة، «ينبوع السعادة الذي لا ينضب»، عاش أنور سنواته الأولى. وهو لم يتنازل طوال حياته كلّها عن لقب فلّاح الذي

يفتخر به. كما واظب، طوال حياته، على زيارة ميت أبو الكوم، في رحلة عودة إلى الجذور، أو طمعًا بقسط من الراحة، أو للظهور أمام الجماهير.

كان للطالب الصغير في المدرسة القرآنيّة بطل، وهو زهران، الذي روت له جدّته حكايته. إنّه الفلّاح الذي أُعدم في العام 1906 بعدما أدين بقتل ضابط إنكليزيّ في قرية دنشواي، غير البعيدة عن ميت أبو الكوم. كذلك عوقب عدد من رفاقه بالإعدام شنقًا، أو بالجلد في الساحات. افتُتن أنور بتلك الشخصيّة، وقال لاحقًا: «كم رأيتُ زهران وعشتُ بطولته في الصحو والمنام، وكم تمنّيتُ لو كنتُ زهران[3]». وهكذا وُلدت اندفاعاته الأولى المناهضة للاستعمار: «من قبل أن أرى الإنكليز، تعلّمت أن أكره المعتدين الذين جلدوا وقتلوا أهلنا[4]».

أرسلت أمّ محمّد حفيدها، بعد المدرسة القرآنيّة، إلى مدرسة قبطيّة، تبعد كيلومترًا واحدًا عن القرية. كان المدرّس المسيحيّ، والذي يدعى السيّد مينا، محلّ احترام وخشية، ويتولّى تدريس كلّ الموادّ. لكنّ مكوث أنور في تلك المدرسة لم يدُم طويلًا، لأنّ والده الذي عاد من السودان، استأجر شقّة في حيّ كوبري القبّة في القاهرة، فكان على أبنائه الذين بقوا في مصر أن يوافوه للسكن فيها. كان ذلك في العام 1925. شعر أنور بأنّه اقتُلع من جذوره، ووجد نفسه فجأة في عالم مختلف تمامًا.

لم تكن ستّ البرّين، والدة أنور، الزوجة الأولى لمحمّد الساداتيّ، المِزواج المِطلاق، بل... السابعة[5]. كما أنّها لم تكن الأخيرة. فالأفندي تزوّج من بعدها أمينة، التي أنجبت له تسعة أبناء. تقاسمت الزوجتان منزل القاهرة، لكنّ مكانتيهما تباينتا كثيرًا. لم تكن بشرة ستّ البرّين السوداء غريبة عن حال العبوديّة التي عاشتها. فزوجها لم يكن يتردّد

---

3 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 14.

4 المرجع نفسه، ص. 15.

5 كاميليا السادات، *My Father and I*، نيويورك، Macmillan، 1985، ص. 4.

في ضربها أمام أولادها، مثلما يضرب البعض خادمًا[6]. هذا على الأقلّ ما يؤكّده أحد أشهر الصحفيّين العرب، محمّد حسنين هيكل، المؤتمن القديم على أسرار عبد الناصر، والذي أصبح من معاوني السادات، قبل أن يتحوّل إلى أحد أقذع منتقديه. وبحسب هيكل، فإنّ أنور «كان غاضبًا من أمّه. لم يكن في أعماقه قادرًا على احترام عذاب هذه السيّدة التعيسة الحظّ، وقد زادت مقاومته للّون الذي ورثه منها[7]».

كان محمّد الساداتيّ شديد الإعجاب بأتاتورك، وقد علّق له صورة عند مدخل شقّته. مؤسّس تركيّا الحديثة سيصبح بطلًا لأنور أيضًا، بفضل كتاب يروي سيرة حياته، لم يفارق يومًا سرير الابن، الذي أكّد في مذكّراته: «بقي إعجابي بكمال أتاتورك، بعدما زال كلّ شيء آخر[8]».

بدأ الطفل يتلقّى علومه في القاهرة في مدرسة خاصّة، هي مدرسة الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة. الواقع أنّه كان تلميذًا نجيبًا، لكنّ ذلك لم يمنعه من أن يمرح أحيانًا: ففي الربيع، كان ورفاقه يسرقون ثمار المشمش من بستان قصر القبّة[9]، من غير أن يتخيّل أنّ هذا القصر سيصبح يومًا أحد الأمكنة التي يعمل فيها... بعد ثلاثة أعوام، دخل وشقيقه البكر طلعت ثانويّة الملك فؤاد الأوّل. كانت كلفة الدراسة في تلك الثانويّة باهظة بالنسبة إلى الوالد، وهو ربّ لعائلة فيها ثلاثة عشر طفلًا، فسدّدها أقساطًا. وفيها، اكتشف أنور فوارق الطبقات الاجتماعيّة، فأحد رفاقه لم يكن سوى ابن وزير الحرب، الذي يأتي كلّ صباح إلى المدرسة في سيّارة يقودها سائق خاصّ.

---

6 محمد حسنين هيكل، *L'Automne de la colère*، Ramsay، 1983، ص. 25.

7 المرجع نفسه، ص. 26.

8 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 25.

9 المرجع نفسه، ص. 16.

بعد ذلك بدأ تطواف غريب بين المدارس. فكلّما كانت العلامات غير الكافية تحول دون ترفّع المراهق إلى صفّ أعلى، يقرّر الانتقال إلى مدرسة جديدة. وهكذا تنقّل بين مدرسة الملك فؤاد الأوّل، ومدرسة الأهرام الخاصّة، حيث نال شهادة الكفاءة، ليعود إلى المدرسة الأولى، ثمّ من جديد إلى الثانية، قبل أن ينتهي به الأمر في مدرسة ثالثة، معهد التعليم المتقدّم في شوبرا، حيث نال الشهادة الثانويّة العامّة[10].

على طريقة غاندي

في هذا الوقت، أضيف إلى زهران وأتاتورك بطل آخر، هو غاندي. ففي العام 1932، مرّ المهاتما بمصر في طريقه إلى أوروبا. ويروي السادات: «أُخذتُ به واستولت صورته على وجداني فما كان منّي إلّا أن قلّدتُه. خلعتُ ملابسي وغطّيت نصفي الأسفل بإزار واعتكفت فوق سطح بيتنا بالقاهرة عدّة أيّام إلى أن تمكّن والدي من إقناعي بالعدول عمّا أنا فيه[11]».

كان غاندي يناضل ضدّ الإنكليز، الذين يمقتهم أنور. وفي حيّ كوبري القبّة، جسّدهم رجل شرطة، يجوب الشوارع ليل نهار على درّاجته الناريّة «كالمجنون...، بوجهه الذي في لون الطماطم فظّ... بليد... وعينيه الجاحظتين وفمه المفتوح دائمًا كفم الأبله... ورأسه المنتفخة يغطّيها طربوش طويل قرمزيّ يصل إلى أذنيه... كان الجميع يخشونه...[12]»

كانت سعادة الطالب لا توصف حين يعود كلّ عام لقضاء الإجازة الصيفيّة في مسقط رأسه. وفي خلال أحد فصول الصيف، اقترح أنور على رفاقه تنظيم مسيرة إلى القاهرة، مستلهمًا نجاحات هتلر في ألمانيا.

---

10 المرجع نفسه، ص. 22.

11 المرجع نفسه، ص. 24.

12 المرجع نفسه، ص. 20.

لكنّ مشروعه باء بالفشل الذريع: «كان عمري في ذلك الوقت اثنتي عشرة سنة فضحكوا منّي وانصرفوا عنّي[13]».

شارك أنور بمسيرات في العاصمة، هُتف فيها بالشعارات، وحُطّمت واجهات المحالّ، وأُحرقت أحيانًا حافلات الترامواي للمطالبة برحيل الإنكليز، أو إقالة رئيس مجلس الوزراء إسماعيل صدقي، المتّهم بعدم احترام الدستور. إلّا أنّ النضال السياسيّ لم يمنع الفتى المراهق من الرغبة في أن يصبح ممثّلًا. وقد اعترف في عامه السابع والثلاثين، قائلًا: «جذبني المسرح طوال حياتي[14]». لكن كيف السبيل إلى نيل دور مسرحيّ؟ آنذاك، نشرت المنتجة السينمائيّة أمينة محمّد إعلانًا لتوظيف ممثّلين. وسرعان ما كاتبها يقول لها: «أنا شابّ، ممشوق القوام، متين البنية، جميل الملامح. لست أبيض، لكنّني لست أسود كذلك. بل أنّ سواد بشرتي هو أقرب إلى الحُمرة. (التوقيع) أنور الساداتي». لم يُختَر من بين المرشّحين العشرين سوى اثنين فقط، وكم كانت خيبة أنور كبيرة، حين لم يكن أحدهما.

إذذاك آثر أنور التمثيل منفردًا... وشوهد بعد فترة قصيرة يطلق لحيته، وينتحل لقب المسلمين الذين تتسنّى لهم حظوة الحجّ إلى مكّة المكرّمة. «دعوت نفسي الحاجّ محمّد، لألهو. لكنّني سرعان ما مللت ذلك، بعدما لم يكترث بي أحد[15]».

تسنّت لأنور الساداتي فرص أخرى للتمثيل، وفرص أخرى كثيرة للتنكّر، حين أصبح ممثّلًا على خشبة التاريخ.

---

13 المرجع نفسه، ص. 24.

14 مقال نُشر في جريدة **الجمهوريّة**، 28 تشرين الثاني/نوفمبر 1955.

15 المرجع نفسه.

2

ضابط متآمر

حتّى ذلك الحين، كانت الكليّة الحربيّة حكرًا على أبناء الأرستقراطيّين أو كبار البورجوازيّين. لكنّ الاتّفاق الذي وُقّع في العام 1936 مع المحتلّ البريطانيّ سمح للجيش المصريّ بتوسيع نطاق التجنيد. أتى ذلك في وقت مناسب تمامًا، فعامذاك نال أنور الساداتي الشهادة الثانويّة العامّة، وكان يحلم بارتداء البزّة العسكريّة. لكنّه كان بحاجة إلى «واسطة» شخصيّة مرموقة، فقصد والده طبيبًا بريطانيًّا، هو المايجور فيتزباتريك، سبق له أن خدم بإمرته في السودان، فكتب الأخير الشهادة المطلوبة عن طيب خاطر. وقال السادات لاحقًا: «يشاء القدر أنّ الذي أدخلني الكليّة الحربيّة واحد إنكليزيّ[1]».

لكنّ ذلك لم يتحقّق بسرعة، لأنّ مفاجأة سيّئة كانت في انتظاره. فقد شُطبت عن اللائحة أسماء عدّة مرشّحين مقبولين، ومن بينها اسمه، للاحتفاظ بستّة أماكن لأنسباء وزير الدفاع. دفع الحنق والخيبة بأنور إلى أن يتسجّل، تباعًا، في كليّة الآداب، وكليّة الحقوق، وكليّة التجارة، قبل أن يبلغه في صباح أحد الأيّام أنّ عليه أن يتقدّم حالًا إلى الكليّة

1 مقابلات مع أنيس منصور، من أوراق السادات، القاهرة، دار المعارف، ص. 380.

الحربيّة، فالمايجور فيتزباتريك تدخّل من جديد لمصلحته ونجح، بدعم من مدير الـدروس، في جعل الكليّة تقبل انتسابه. التحق بالتلامذة الضبّاط الآخرين في تشرين الأوّل/أكتوبر 1936، بتأخير ستّة وعشرين يومًا. كانت مدّة الدراسة في الكليّة تدوم مبدئيًّا ثلاث سنوات، لكنّها اختُزلت إلى ستّة عشر شهرًا لتلبية حاجات الجيش المصريّ.

ازداد اقتناع التلميذ الضابط بأنّه لا يمكن طرد البريطانيّين من مصر إلّا بالقوّة؛ وكذلك بأنّ النضال من أجل الاستقلال لن يتحقّق إلّا بعد الإطاحة بـ«الحكومة الفاسدة» التي تحظى برعاية البريطانيّين. تقرّب السادات من تنظيمٍ اجتذب إليه المناصرين، هو «مصر الفتاة»، الذي يتزعمّه محامٍ يُلهب النفوس، يُدعى أحمد حسين، ويُلبس رجاله قمصانًا خضراء، ويدرِّبهم على المشية العسكريّة فوق شرفة تطلّ على سوق الخضار في حيّ العتبة[2]. لم يكن أنور يعتنق أفكار «مصر الفتاة» كلّها، إلّا أنّ سعيه العشوائي إلى القيام بعملٍ وطنيٍّ ما جعله ينتسب إلى ذلك التنظيم، كما جعله يطوف على الأحزاب السياسيّة بعد تخرّجه من الكليّة الحربيّة في العام 1938 بحثًا عن التزام يناسبه، من دون أن يجده.

ولشدّة ما كان مأخوذًا عامذاك بالجيش الألمانيّ، قصّ شعره قصّة الجنود البروسيّين، واشترى نظّارة أحاديّة العدسة، وراح يتبختر لبعض الوقت متأبّطًا عصا. لكنّ الواقع أبعد ما يكون عن عالم التمثيل والمسرح: وسرعان ما شُكِّلَ الملازم أنور السادات إلى كتيبة المشاة الخامسة، في منقباد، وهي مدينة صغيرة في مصر الوسطى قريبة من أسيوط. هناك، سيبدأ مع عدد من رفاقه بمناقشة مستقبل بلدهم.

2 المرجع نفسه، ص. 17.

قَسَم منقباد

ما كان أحد أولئك الضبّاط سوى جمال عبد الناصر، البالغ من العمر عشرين عامًا – ويكبر السادات بأحد عشر شهرًا. وكرفيقه، كان عبد الناصر من عائلة ذات أصل ريفيّ، أصبح والده موظّفًا حكوميًّا صغيرًا في المدينة. وكالسادات أيضًا، برهن على وطنيّة مبكرة، وسار في مظاهرات «القمصان» الخضراء قبل أن يُقبل طلب انتسابه إلى الكليّة الحربيّة في دورة «الفقراء» الأولى تلك. كتب عبد الناصر من منقباد إلى صديق له، يقول: «الجوّ شاعريّ ومثير للمخيّلة. فالمنظر الطبيعيّ يتألّف من صحراء، وزراعات، ومستنقعات، وترع. وإلى الشمال، حقول نُشرت فيها البذور، وإلى الجنوب سلسلة جبال تمتدّ من الشرق إلى الغرب، تطوّقها الصحراء وكأنّها يدان قويّتان».

في المساء، كان الرفاق المتحلّقون حول نار المخيّم يعيدون تشكيل العالم. روى السادات حكاية تلك النقاشات لاحقًا، متحدّثًا عن «قَسَم منقباد»، الذي وُلدت معه، بحسب قوله، جمعيّة سرّية، كانت جنينًا لمجلس الثورة المستقبليّ. لكنّ السادات قدّم روايتين متتاليتين لتلك الفترة. في الأولى، التي تعود إلى زمن عبد الناصر، نسب إلى هذا الأخير دور القائد. أمّا في الثانية، والتي كُتبت في خلال رئاسته هو، فقد نسب السادات إلى نفسه دور تأسيس «الضبّاط الأحرار» وقيادتهم.

قال في الرواية الأولى: «اعتاد عبد الناصر أن يكلّمنا ويعلّمنا. وكنّا جميعنا نكنّ له الإعجاب العظيم[3]». إنّه الملهِم، والمحرّك، والقائد. «كان واثقًا بنفسه وبالمستقبل، ونقل إلينا حماسته وإيمانه بقدر مصر. كان الينبوع الفيّاض الذي ترتوي منه شجاعاتنا الفتيّة والمتحمّسة. وسرعان ما أصبح قطب اجتذاب تحلّقت حوله ثلّة من المؤيّدين المتّقدين حميّة

---

3 أنور السادات، **صفحات مجهولة**، القاهرة، دار التحرير للطباعة والنشر، ص. 26.

الذين لم يكونوا يتوقعون آنذاك أن يصبح قائدهم باعثًا لحقبة جديدة. إنّه رجل طبعه القدر[4]». بالنسبة لمحمّد حسنين هيكل، المؤتمن على أسرار عبد الناصر، وخصم السادات فيما بعد، هذه مسألة لا لبس فيها: في منقباد، وخلال النقاشات السياسيّة، كان عبد الناصر هو القائد باعتراف الجميع. أمّا السادات، فقال عنه هيكل: «كلّ ما يذكره معظمهم عنه في ذلك الوقت كان براعته في الغناء وفي التمثيل وفي تقليد بعض الرؤساء من الضبّاط، وكانت هذه المواهب هي التي تضفي عليه بعض الشعبيّة بين أقرانه[5]».

لكنّ الرواية الثانية التي قدّمها السادات في السبعينيّات جاءت مختلفة كلّ الاختلاف عن الأولى، فقد قال فيها إنّ الضبّاط الشباب كانوا يجتمعون كلّ مساء في شقّته الصغيرة، التي لقّبوها بـ«بيت الأمّة»، وإنّه هو مَن فتح لهم أعينهم على وضع البلد. «كان الزملاء ينصتون إليّ في صمت، ثمّ يستفسرون ويسألون...» وقال أيضًا إنّه دأب على طلب الكتب من القاهرة، ليقرأها في مقهى بالقرب من محطّة أسيوط، مدخّنًا النارجيلة، بعد ظهر أيّام الخميس، فيما ينصرف رفاقه إلى السينما بعد مغادرتهم الحافلة، أو يتفرّقون نحو تسليات أخرى. أمّا جمال عبد الناصر، فقال عنه إنّه «شابّ جادّ، يقيم بينه وبين غيره من الناس حاجزًا من الصعب اجتيازه، لا يتكلّم إلّا في القليل النادر[6]».

الواقع أنّ أيًّا من الرجلين لم يكن قائدًا آنذاك، حسبما يلاحظ توفيق أقليمندوس، أحد أفضل المتخصّصين في تاريخ تلك الحقبة[7]. فما كان

---

4 أنور السادات، *Révolte sur le Nil*، Pierre Amiot، 1957، ص. 37.

5 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 29.

6 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 32، 34.

7 مقابلة مع توفيق أقليمندوس، آذار/مارس 2013. أنظر أيضًا مقال توفيق أقليمندوس «Regard rétrospectif sur la révolution égyptienne»، *Egypte/Monde Arabe*، السلسلة الثانية، رقم 4-5، 2003.

يجري لم يعدُ كونه لقاءات بين ضبّاط قوميّين شبّان. لعلّ السادات كان يقرأ، لكنّ عبد الناصر كان أغزر قراءة، وإذا كان له أثر على رفاقه، فلأنّه يستطيع أن يحدّثهم عن قراءاته[8].

حين افترق السادات وعبد الناصر في العام 1939، كان عمر الأوّل واحدًا وعشرين عامًا، والثاني اثنين وعشرين عامًا. ذهب السادات لمتابعة دورة إعداديّة في مدرسة الإشارة في المعادي، القريبة من القاهرة – وقد نجح لاحقًا في التطوّع في سلاح الإشارة –، فيما أرسِل عبد الناصر إلى السودان، بناء على طلبه. في العام التالي، نشأ تنظيم سرّي للضبّاط، أكّد السادات في روايته الثانية أنّه كان قائدًا له. الواقع أنّ مجموعتَي ضبّاط سرّيتين نشأتا في خلال الحرب العالميّة الثانية – وكان السادات من بين قلّة من الضبّاط انتسبت إلى كلتيهما – هما حركة الطيّارين، بقيادة عبد اللطيف البغدادي، ومجموعة أخرى غير محدّدة المعالم تدور في فلك الفريق عزيز المصري، وهو صاحب شخصيّة أسطوريّة، شارك في الثورة التركيّة إلى جانب كمال أتاتورك. ووفقًا لتقدير توفيق أقليمندوس: «لعلّ السادات كان قائد المجموعة الثانية، هذا إذا كان لها قائد حقًّا».

عند المرشد الأعلى

كان أنور يسكن في منزل أبيه، في القاهرة، لكنّه لم يعد عازبًا. فقد عُثر له على زوجة تكبره بعام واحد، اسمها إقبال ماضي، وهي ابنة العمدة القديم في مسقط رأسه. تمّ القران في تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1940 في ميت أبو الكوم، وسط احتفالات دامت ثلاثة أيّام، حسبما تقضي التقاليد. وقدّم المدعوّون للعروسين الحليّ، والمال، وطيور

---

8 المرجع نفسه.

الحمام والبطّ. لكنّها لم تكن قصة حبّ، فالضابط الذي وقف ببزّته العسكريّة وطربوشه المثّبت فوق رأسه لتُلتقَط له الصورة الفوتوغرافيّة، بدا ينظر إلى مكان آخر.

أنجبت له إقبال ثلاث فتيات، هنّ رقيّة وراوية وكاميليا. تعايش الزوجان الشابّان وسائر أفراد الأسرة بصعوبة. وشهد المنزل نزاعات محتدمة وعلا فيه الصراخ[9]، لكنّ الملازم السادات كانت لديه اهتمامات من نوع آخر.

فقد التقى في المعادي شخصيّة خارجة عن المألوف: الشيخ حسن البنّا، مؤسّس تنظيم الإخوان المسلمين، ومرشدهم الأعلى، الذي سُمح له بالقيام بجولة تفقّدية على الجنود. إنبهر السادات بهذا الداعية الملتحي، المتدثّر بعباءة حمراء، وأقرّ قائلًا: «أُعجبتُ به كلّ الإعجاب». فقد رأى فيه لا قائدًا دينيًّا وحسب، بل «مصريًّا صميمًا، بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من دماثة خلق وسماحة وبساطة في معاملة الناس[10]». دعاه البنّا إلى الحضور للاستماع إلى عظاته التي يلقيها مساء كلّ خميس في مركز قيادة الإخوان الكائن في قصر قديم تحيط به الأشجار وسط ضاحية بعيدة عن القاهرة. ذهب السادات إلى هناك مرّات عدّة. بعد ذلك، استدرجه المرشد الأعلى إلى مكتبه حيث دارت بينهما أحاديث طويلة. شعر الضابط بأنّه يخضع لاستجواب في منتهى الحذاقة. وفي النهاية قال لمحاوره (بحسب الرواية الثانية): «إسمع يا شيخ حسن، واضح أنّك حريص أكثر من اللازم في الحديث معي وأنا لا أرى داعيًا لهذا. بصراحة أنا أسعى إلى عمل تنظيم عسكريّ هدفه قلب الأوضاع في البلد[11]»، فاقترح عليه الشيخ تنسيق جهودهما، إلّا أنّ السادات رفض، بحسب

9 كاميليا السادات، المرجع السابق، ص. 4

10 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 34.

11 المرجع نفسه، ص. 40.

زعمه، متذرّعًا بأنّ تنظيمه يعمل «من أجل مصر بكاملها»، ولا يمكنه الارتباط بمجموعة معيّنة. فاتّفق الرجلان على «التعاون». غير أنّ ذلك لم يمنع الشيخ البنّا من أن يجنّد عبد المنعم عبد الرؤوف، «الرجل الثاني بعدي في تنظيم الضبّاط الأحرار وكان قد بدأ العمل من أجل الإخوان المسلمين»، بحسب قول السادات[12].

لكنّ الأحداث كانت مختلفة بعض الشيء في الرواية الأولى، التي نُشرت في خلال حياة عبد الناصر، والتي يعترف السادات فيها، بتواضع أكبر، بأنّه «قام بمهمّة مسؤول ارتباط» بين مجموعة العسكريّين القوميّين والمرشد[13]. إلّا أنّ شيئًا واحدًا يبقى مؤكّدًا، هو أنّه وخلافًا لضبّاط آخرين، لم ينتسب إلى تنظيم الإخوان قطّ. (انتمى عبد الناصر من العام 1945 وحتّى 1949 إلى خليّة للإخوان في الجيش، برغم أنّه لم يكن إسلاميًّا[14].)

رتّب حسن البنّا للسادات لقاء بالفريق عزيز المصري، الذي يكنّ له الضابط الشابّ إعجابًا كبيرًا. وقد شغل المصري منصب رئيس أركان الجيش، قبل أن يُقال منه في العام 1940 بسبب ميله إلى الألمان. وكذلك كان في لندن معلّمًا للأمير فاروق، وهو بعد وليّ العهد. أدرك الفريق بأسف أنّ العاهل الشابّ أسير لألاعيب القصر، ولا طاقة له على مقاومة الإنكليز، الذين نجحوا في إزاحته من منصبه في شباط، فبراير من العام 1940. وأصغى إلى السادات، وشجّعه على المضيّ قُدمًا في مخطّطه، لكنّه حذّره من تغلغل الجواسيس. فهو نفسه كان خاضعًا لمراقبة أجهزة الاستخبارات المصريّة والبريطانيّة. إلتقى الرجلان مرّات أخرى، في القاهرة، في « جروبي»، أو نزل «فيينا». لم تفُت حركة الضابط

---

12 المرجع نفسه، ص. 41.

13 أنور السادات، *Révolte sur le Nil*، المرجع السابق، ص. 69.

14 مقابلة مع توفيق أقليمندوس، المرجع السابق، ص. 21.

الشابّ رؤساءه العسكريّين، فطلبوا إليه الكفّ عن مقابلة الفريق المصري. ويؤكّد السادات قائلًا: «بديهيّ أنّني لم أعر تحذيرهم أيّ اهتمام»، لكنّنا نجد صعوبة في أن نصدّق ذلك.

في خلال العامين التاليين، تورّط الثائر الطريّ العود في عدّة عمليّات تقارب الخيال، رواها لاحقًا على طريقته[15].

رسالة إلى رومل

في العام 1941، أرسِل السادات إلى مرسى مطروح على ساحل البحر الأبيض المتوسّط، ليخدم هناك بصفته ضابط إشارة في لواء مدفعيّة. ومرسى مطروح بلدة صغيرة نائية، تبعد عن الإسكندريّة 250 كيلومترًا، ولها خليج رائع في بحر فيروزيّ. إلّا أنّها لم تبقَ طويلًا على هذه الحال. فقد قرّر البرلمان المصريّ عدم المشاركة في الحرب، وصدر الأمر بترك البريطانيّين يدافعون وحدهم عن المنطقة ضدّ قوّات المحور. فعزم السادات على... الزحف إلى العاصمة لـ«الاستيلاء على السلطة»، مع وحدات أخرى أجليت عن مرسى مطروح. وضرب موعدًا لزملائه للّقاء في فندق «مينا هاوس»، على مدخل القاهرة. وروى يقول: «ولكنّ شيئًا من هذا لم يحدث. فعند مينا هاوس لم تكن هناك أيّة تجمّعات. فغسلنا العربات وجلست أنا وجنودي في انتظار الوحدات. ولكن عبثًا انتظرنا. لا بدّ أنّهم سبقونا إلى القاهرة... قلت في نفسي». كانت تلك نهاية محاولة الانقلاب العسكريّ المزعومة. بعد عدّة ساعات من الانتظار، لم يكن في وسعه سوى أن يصدر الأمر إلى وحدته بالعودة إلى معسكر المعادي.

إلّا أنّ ذلك لم يُثبط عزيمة السادات، الذي وسّع قاعدة اتّصالاته في أوساط الجيش. وفي أيّار/مايو من العام 1941، طلب عزيز المصري إليه

---

15 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 41-54.

مساعدته على الذهاب إلى العراق، حيث ينوي أن يشارك، بالاتّفاق مع الألمان، في انتفاضة ضدّ المحتلّ البريطانيّ. وجرى تنظيم عمليّة شبيهة بمغامرات «تان تان»، لم يستطع السادات المشاركة فيها شخصيًّا، لأنّه أرسِل من جديد إلى مركز عسكريّ بالقرب من مرسى مطروح. فتولّى «مساعده» عبد المنعم عبد الرؤوف نقل الفريق إلى طائرة عسكريّة استولى عليها للقيام بهذه المهمّة. لكنّ الطائرة اضطرّت إلى القيام بهبوط اضطراريّ في حقل قريب من بنها، على مسافة خمسين كيلومترًا إلى الشمال من القاهرة. وتوارى الفارّون منها في الطبيعة، بمساعدة عدد من الشركاء. ثمّ اعتُقل المصري في 6 حزيران/يونيو (وأطلق سراحه في العام التالي). وتابع المحقّقون خيوط التحقيق حتّى وصلوا إلى السادات، الذي خضع للاستجواب ثمّ أخلي سبيله، بفضل براعته في الإجابة عن بعض الأسئلة، وحجّة الغياب المتينة التي قدّمها.

في خلال صيف العام 1942، وبعد احتلال طبرق واجتياز الحدود المصريّة، سارت قوّات الجنرال رومل إلى الإسكندريّة على ساحل البحر الأبيض المتوسّط. ما كان من حاجة أبدًا إلى الإعجاب بألمانيا، كما كان يفعل السادات، للتفكير في أنّ «أعداء أعدائنا هم أصدقاؤنا». كما أنّ الدعاية الألمانيّة تحاول منذ أشهر إقناع المصريّين بأنّ برلين ستحرّرهم من الاحتلال البريطانيّ. تأثّر عدد من القوميّين المصريّين بهذا الوعد، حتّى أنّ الملك فاروق نفسه اتّصل بهتلر، قبل أن يُرغمه السفير الإنكليزيّ على تعيين رئيس للحكومة مؤيّد للحلفاء[16].

ألا يجب الانحياز إلى جانب قوّات المحور وتقديم المساعدة العسكريّة لهم، مقابل الاستقلال؟ يؤكّد السادات أنّه جمع رفاقه الضبّاط للتناقش في الأمر، ثمّ كتب بنفسه «مشروع اتّفاقيّة» بهذا الخصوص،

---

16 آن كلير دو غايفييه بونفيل، *L'échec de la monarchie égyptienne 1942-1952*، القاهرة، Ifao 2012، ص. 34-35.

وأرسله إلى رومل بالطائرة، مرفقًا ببعض الصور لمواقع عسكريّة بريطانيّة. لكنّ الألمان أسقطوا الطائرة خطأً، وقُتل قائدها. لاحقًا، سيزعم الرجل الذي أراد أن يصبح حليفًا لرومل أنّه ذهب في تلك الأثناء لشراء «عشرة آلاف زجاجة» لصنع قنابل مولوتوف[17]...

راقصة وجهاز إرسال معطّل

إذا كانت الواقعة التالية كوميديّة أكثر منها مأساويّة، إلّا أنّها كانت ذات نتائج شديدة الوقع على السادات. فقد علم أنّ عميلين ألمانيّين، هما هانس إيبلر وهاينريش ساسنيتد، دخلا مصر متنكّرين بزيّ ضابطين بريطانيّين، ويريدان الاجتماع به. ضُرب الموعد في مقرّ إقامتهما وهو قارب على النيل (ويُدعى بالمصريّة دهبيّة)، استأجراه من راقصة ملهى، تدعى حكمت فهمي، وتعمل في نادي كيت كات، الملهى الذي يرتاده ضبّاط الحلفاء. أمضى الجاسوسان الوقت في معاقرة الخمر برفقة فتيات الليل، لكنّهما كانا بحاجة إلى اختصاصيّ في الإشارة لتصليح جهاز إرسال معطّل. فالتقاهما اليوزباشي (النقيب) السادات، وتفحّص الجهاز وعاد به إلى منزله في كوبري القبّة، وهو يضمر النيّة في استعماله بنفسه للاتّصال برومل. لكنّ ذينك الألمانيّين وقعا وللأسف في قبضة جهاز الاستخبارات البريطانيّ ليل 24-25 تمّوز/يوليو 1942. وسرعان ما رأى السادات جيشًا من رجال الشرطة يصل إلى منزله لتفتيشه. لم يُعثر على جهاز الإرسال الذي أخفاه في إحدى الغرف، لكنّه اقتيد للاستجواب. ويذكر محضر تحقيق في أرشيف المملكة المتّحدة الوطنيّ أنّه، خلال

[17] أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 53.

تلك المداهمة، عُثر في منزله على نسخة مترجمة بالإنكليزيّة من كتاب «كفاحي»[18].

حين ووجه السادات بالألمانيّين اللذين تعرّفا عليه، لجأ إلى التمثيل، وزعم أنّه حسبهما بريطانيّين، وأنّه لم يطأ قاربهما قطّ، ولا يعرف شيئًا عن أي جهاز إرسال. لكنّ إيبلر، أحد الجاسوسين، الذي تلقّى وعدًا بإطلاق سراحه لقاء إدلائه بالمعلومات، كذّب السادات سائلًا إيّاه: «هل نسيت عندما نبح الكلب وأنت خارج من الدهبيّة ومعك الجهاز؟». آنذاك أخرج السادات كلّ ما في جعبته من حيلة. «من غيظي ضغطتُ على قدمه بكلّ قوّة. وقف على التوّ من الألم وقال: لماذا تدوس على قدمي الآن؟ قلت مندهشًا: أنا دستُ على قدمك؟ لماذا تدّعي عليّ بما لم يحدث؟ الدهبيّة، والجهاز، ونباح الكلب، والآن قدمك؟ ما قصدك من كلّ هذا[19]؟».

لكنّ تلك التمثيليّة لم تنطلِ على المحقّقين، فطُرد السادات من الجيش، وسُجن. وهو يصوّر في مذكّراته هذه الكارثة على أنّها انتصار كبير: «بلغنا السجن، وإذ كنت أصعد السلّم في طريقي إلى حجرتي، كان يغامرني فرح غريب بما في داخلي من قوّة لا يدرك مداها سواي. لقد انتصرتُ رغم تجريدي من رتبتي واعتقالي، كما انتصر زهران من قبل (الفلّاح الذي حُكم عليه بالموت في العام 1906)، رغم موته[20]».

لكنّ هذه الصلة بزهران لا تبدو واضحة، وكذلك يبدو أقلّ وضوحًا معنى هذا الانتصار المزعوم. لا شكّ بأنّ السادات كان آنذاك أقلّ سعادة ممّا يقول. والحديث عن الهدوء الذي تبنّى به والده حججه حين أتى

---

[18] محضر استجواب بتاريخ 13 آب/أغسطس 1942، أرشيف المملكة المتّحدة الوطنيّ (KV2/1967). إقتباس كريستيان ديتريمو، *Le Moyen-Orient pendant la Seconde Guerre mondiale*، Perrin، 2011، ص. 274.

[19] أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 60-61.

[20] المرجع نفسه، ص. 63.

لزيارته في السجن، («كان يأخذ كلامي أمرًا مسلّمًا به[21]») لا يقنع أحدًا البتّة. فإحدى حفيدات ذلك الموظّف الذي يحترم مؤسّسات الدولة تروي عنه أنّه صاح: «ثائر أو مجرم؟ ما الفرق؟[22]».

---

21 المرجع نفسه، ص. 62.

22 كاميليا السادات، المرجع السابق، ص. 17.

3

خارج عن القانون

أمضى أنور السادات ما يقارب العام في السجن المسمّى «سجن الأجانب» في القاهرة، حيث يُعتقل مَن لهم صلة بالحرب. كان النظام المتّبَع في ذلك المكان متساهلًا، فتسنّى للضابط الذي سُمح بوصول الجرائد والكتب إليه أن يقرأ كثيرًا، ويستفيد من قراءاته لتحسين لغته الإنكليزيّة. كان، بين الحين والآخر، يسمع غناءً أو صراخًا من زنزانة قريبة تشغلها حكمت فهمي، الراقصة التي أجّرت الألمانيّين قاربها... وأيضًا كان حسن عزّت، صلة الوصل بينه وبين الجاسوسين، معتقلًا في السجن عينه، بعدما طُرد من الجيش هو الآخر. ساورت الشكوك الرجلين حول مستقبلهما. يقول السادات: «أمّا أنا فكان مشروعي الوحيد أن أعود إلى الأرض وهناك أبدأ من جديد[1]». لم يعد واردًا الاتّصال بالألمان، فرومل خسر معركة العلمين، وسيطر البريطانيّون من جديد على مصر بكاملها».

لكنّ ذلك لم يمنع السادات من تعلّم اللغة الألمانيّة، بعدما نُقل في كانون الأوّل/ديسمبر 1942 إلى سجن ماقوسة، بالقرب من المنيا. وكان

1 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 70.

مدرّسه الأخ غير الشقيق لإيبلر، الرجل الذي سحق أصابع قدمه. وقد زعم أنّه تمكّن بعد عشرة أشهر من أن يجيد لغة غوته، «بلكنة ممتازة».

في الواقع، لم يكن سجن ماقوسة سوى قصر أحاطت به الأسلاك الشائكة، ووُضعت على نوافذه القضبان الحديديّة. لكنّ الكيلومترات المئتين والخمسين التي تفصل بينه وبين القاهرة، لم تشجّع الزيارات العائليّة قطّ. ومع ذلك، فقد تأثّر السادات حين علم أنّ رفاقه الضبّاط قرّروا أن يخصّصوا لزوجته كلّ شهر عشر جنيهات مصريّة، لإعانتها ماديًا.

في تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1943، نُقل السادات مرّة أخرى إلى سجن الزيتون بالقرب من القاهرة. لم يبدُ نظام ذلك السجن الداخليّ صارمًا جدًّا. فقد قام السادات وحسن عزّت بتربية الأرانب فيه، وزرعا النَفَل. كما استطاعا تنظيم عصيان لم يؤدّ إلى أيّة نتيجة، والفرار بعد ذلك برفقة ستّة معتقلين آخرين، بسهولة مدهشة. أمّا بقيّة القصّة، كما رواها السادات، فيصعب تصديقها بشكل كامل.

قادهم أحد المعتقلين إلى منزل سيّدة فرنسيّة في القاهرة، قدّمت لهما المأوى لقضاء الليل. وفي الصباح استقلّوا سيّارة أجرة للذهاب... إلى قصر عابدين. وهناك، طلبوا توقيع سجلّ التشريفات، المفتوح دائمًا لمن يرغبون في شكر الملك. فدوّن الرجال فيه أسماءهم، مشيرين بوضوح إلى أنّهم معتقلون في سجن الزيتون، في ظروف غير مقبولة، كما رجوا من فاروق عدم الخضوع للسلطات البريطانيّة. ثمّ غادروا المكان أمام مسؤول التشريفات المتسمّر ذهولًا، وطلبوا سيّارة أجرة قادتهم إلى السجن من جديد. لكن لم ينجم عن تلك الفضيحة سوى نقل مدير السجن من منصبه، وتحسين ظروف اعتقال السجناء تحسينًا ملموسًا.

تحمل هذه المغامرة المذهلة على الظنّ أنّ السادات كان يستفيد من بعض الصداقات المتواطئة معه في محيط الملك. ويقول محمّد

حسنين هيكل من دون مواربة، إنّ الرجل الذي أصبح لاحقًا رئيسًا للجمهوريّة، كان وبكلّ بساطة من أزلام القصر آنذاك[2].

في تشرين الأوّل/أكتوبر 1944، وفيما الحرب تشرف على نهايتها، أطلِق سراح عدد من المعتقلين السياسيّين. واستُثني من ذلك العفو مَن سُجنوا بقرار من السلطات البريطانيّة، مثل السادات، الذي قرّر الإضراب عن الطعام، ما استدعى نقله إلى مستشفى قصر العيني. وهناك نجح، بمساعدة شريكه حسن عزّت في مغافلة الرجل االمكلّف بحراسته، والتواري وسط الحشود والفرار. كان له من العمر آنذاك ستّة وعشرون عامًا، وقد انقضى على اعتقاله سبعة وعشرون شهرًا.

عاش السادات في الخفاء لنحو عام، خارجًا عن القانون. أرخى لحيته ودعا نفسه باسم محمّد النور الدين، وراح يتدبّر رزقه كيفما استطاع. عمل أوّلًا في تسليم الخضر والفواكه لحساب تاجر لم يكن مثالًا في الاستقامة، ثمّ في نقل الحجارة لتعبيد أحد الطرق، وأخيرًا سائق شاحنة في مقلع للرخام، حيث شاءت سخرية القدر أن يقوم بنقل موادّ البناء لتشييد مقرّ لإقامة الملك فاروق بالقرب من أهرامات الجيزة. فعرّفته تلك الشهور التي قضاها في العمل الشاقّ إلى بلده على نحو أفضل بكثير ممّا تفعله الكتب، إذ لم يقترب أيّ حاكم مصريّ آخر من مصير عمّال المدن بهذا القدر قطّ.

مذنب ينال البراءة

في أيلول/سبتمبر 1944، وضعت الحرب أوزارها، ورُفعت الأحكام العرفيّة، فبات باستطاعة السادات التخلّي عن تنكّره، والعودة إلى منزله وإلى حياته الطبيعيّة، برغم أنّه أصبح عاطلًا عن العمل. لكنّه ما إن

---

[2] محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 33-34.

ترك حياة الخفاء حتّى عاد للاتّصال برفاقه القدامى، ووجد نفسه وسط مجموعة صغيرة من المتآمرين، تعدّ للقيام بعمليّة اغتيال هدفها نحّاس باشا، رئيس حزب الوفد، الذي فرضه السفير البريطانيّ على الملك ليعيّنه رئيسًا للورزاء في شباط/فبراير من العام 1942. إذا كان السادات قد أعجب في سنوات مراهقته بهذا الزعيم الوطنيّ لدرجة أنّه كان يقف كلّ مساء على الطريق الذي تسلكه سيّارته، فقد بات يعتبره خائنًا يستحقّ التصفية. تولّى الضابط السابق تعليم رفاقه – وهم من طلّاب الجامعات والثانويّات – استخدام القنابل اليدويّة، ثمّ ألقى شابّ يدعى حسين توفيق قنبلة على موكب نحّاس باشا، إلّا أنّها أخطأت هدفها بفارق بسيط. تلاقى المتآمرون في مقهى في القاهرة، حيث قرّروا تصفية وزير قديم للماليّة يُدعى أمين عثمان، كان ذنبه الوحيد قوله إنّ بين مصر وبريطانيا العظمى زواجًا كاثوليكيًّا لا يُحَلّ. وتولّى حسين توفيق نفسه تصفية عميل الإمبرياليّة ذاك، بعدّة طلقات من مسدّسه، في ردهة مبنى في شارع عدلي. سارت الخطّة مثلما كان مقرّرًا لها تقريبًا، فهرع السادات الذي كان موجودًا في ذلك المكان إلى مكاتب مجلّة روز اليوسف، في شارع قصر العيني، لزيارة صحفيّ قد يشهد بوجوده معه ساعة تنفيذ عمليّة الاغتيال.

لم يطل الأمر بالقاتل أن اعتُقل واعترف. وعند الثانية من فجر 12 كانون الثاني/يناير 1946، داهمت الشرطة منزل السادات الذي سيق، كما في العام 1942، إلى سجن الأجانب. خضع للاستجواب مرّات عدّة، واستعان بكلّ ما يملك من موهبة في التمثيل لتشويه صورة رجال الشرطة والقضاة، متّهمًا البعض بتعذيبه جسديًّا، والبعض الآخر بممارسة الضغط الشديد عليه. وتقدّم لنا المذكّرات التي كتبها في السجن، والتي نُشرت منها مقتطفات في أسبوعيّة «المصوّر» في العام 1948، لمحة عن جوّ السجن:

«الأحد 20 كانون الثاني/يناير. لا شيء مميّزًا. كتبتُ خطابًا شديد اللهجة إلى النائب العامّ في شأن هذا الإهمال».

«الاثنين 21 كانون الثاني/يناير. يظهر أنّ خطابي للنائب العامّ أحدث أثرًا، فقد أحضر لي مأمور السجن ملابسي، وكذا أحضر الصابون، وقد طلبتُ حمّامًا ساخنًا فأذن لي المأمور بذلك واستمتعتُ باستلقاءة بديعة داخل البيجاما والبطاطين».

وفي مواجهة بينه وبين حسين توفيق، واصل السادات الكذب بلا وجل، مؤكّدًا أن لا صلة تربطه، من قريب أو من بعيد، بتلك المجموعة الإرهابيّة. وذلك كان ما كتبه في العام *1954*[3]، إنّما لكي يقول العكس، بعد واحد وعشرين عامًا، مؤكّدًا تورّطه في تلك القضيّة[4]...

نُقل في النهاية إلى سجن «قره ميدان»، حيث أودِعَ زنزانة رطبة وقذرةٍ، لا كهرباء فيها، ولا طاولة أوِ كرسيًّا، وسريره الوحيد حصير من سعف النخيل. وتولّى تنظيم الإخوان المسلمين دفع عشرة جنيهات في الشهر لعائلته، كما فعل من قبل رفاقه الضبّاط.

بعد أشهر قليلة خُفّفت شروط اعتقاله، فبات بوسعه لقاء السجناء الآخرين، والتخطيط للقيام بعمل مشترك.

«3 تمّوز/يوليو. تقابلنا اليوم وناقشنا الحال وانتهينا إلى القرارات الآتية: 1. يصير توزيع جميع الأطايب (الحلويات) وما شابهها التي تأتي لأحد المتّهمين على الجميع. [...] 3. التفاهم مع إدارة السجن للسماح لنا بشطرنج وكوتشينة وكذلك بالتدخين. 4. على كلّ مَن يرى امرأة جميلة في شبّاك سجن النساء أن يخطر الباقين لمشاهدتها [...]».

كان السجين يقرأ كثيرًا. وممّا قرأه، مقال لشخص اسمه هاري إيمرسون فوسديك (1878-1969)، منشور في مجلّة «المختار»، النسخة

---

3 أنور السادات، *Révolte sur le Nil*، المرجع السابق، ص. 136.

4 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 190-191.

العربيّة لـ«ريدرز دايجست»، كان له وقع التجلّي عليه[5]. فالله، كما يؤكّد ذلك القسّيس المعمدانيّ، «هو الذي يعرّض بني البشر للمحن بشتّى أنواعها ليعّلمهم القدرة على التحمّل وعلى التصدّي للعواقب. وليس ذلك من قبيل الشرّ من الله، بل من قبيل المودّة ليعلّم خلقه». قال السادات لاحقًا: «لم يسمح لي التحليل الذي قدّمه هذا العالم النفسيّ بالتغلّب على اضطرابي العصبيّ وحسب، بل كشف لي أيضًا عن قدرة حبّ لا متناهية في علاقتي مع الخلق[6]». وتقول مذكّراته إنّ رجلًا جديدًا وُلد في تلك اللحظة، في الزنزانة 54 في سجن قره ميدان: «لمّا تخفّفت الروح من أثقالها تحرّرت الذات وانطلقت كما ينطلق الطير من قفصه إلى الفضاء الواسع... أصبح الحبّ هو الدافع الحقيقيّ لكلّ ما أفعل وما أشعر به.... المثاليّة ليست إلّا سعيًا دائمًا نحو الجمال... من أجل هذا كانت الستّة شهور الأخيرة لي في الزنزانة 54 وما زالت أسعد أيّام حياتي[7]». ومع ذلك، فمن المسموح أن نشكّ في الأمر...

تسنّت لموهبته في التمثيل التي لم ترَ النور، فرصة لتتحقّق. ففي شباط/فبراير من العام 1948، قدّم في السجن مسرحيّة من تأليفه، لعب فيها دور الخليفة هارون الرشيد. لكنّ الجمهور اعترض على تلك «السخافات»، فاضطرّ إلى إيقاف المسرحيّة، كما اعترف في مذكّرات السجن. كذلك، قدّم لرفاقه في الحظّ البائس ما يوازي برنامجًا إذاعيًّا، فيه جزء مخصّص للأطفال يروي فيه «بابا أنور» حكايات، ويغنّي، ويقلّد أصوات الحيوانات.

---

5 نُشر المقال بثمان وعشرين لغة. وفي العام 1974 قدّمت إدارة مجلّة ريدرز دايجست الأعداد الثمانية والعشرين إلى الرئيس السادات.

6 أنور السادات، *Those I Have Known*، نيويورك، Continuum، 1984، ص. 74.

7 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 115-133.

دامت محاكمة المسؤولين المفترضين عن اغتيال أمين عثمان، والتي غطّتها الصحافة تغطية واسعة، نحو ثمانية أشهر، من كانون الثاني/ يناير، وحتّى آب/أغسطس من العام 1948. في تلك الأثناء، تراجعت شدّة ظروف الاعتقال، فبات بوسع السادات أن يستقلّ سيّارة أجرة، بصورة منتظمة، لزيارة طبيب أسنان في المستشفى العسكريّ في كوبري القبّة، يتظاهر بمعالجته. كان السجين يستغلّ ذلك لشرب الشاي مع والده، الذي يعمل محاسبًا في ذلك المستشفى. وفي خلال المحاكمة، استخدم مجدّدًا موهبته في التمثيل، ما عرّف جمهورًا واسعًا إليه. قال عن ذلك: «توصّلتُ إلى إثارة بلبلة هائلة في الادّعاء في أثناء الاستجوابات التي خضعت لها؛ وكان ألمع محامي مصر يتولّون قضيّتنا[8]». فقد استدعى عمالقة المحاكم أولئك شخصيّات بارزة للمثول أمام المحكمة، من بينها رئيس مجلس الشيوخ، وعدّة وزراء قدماء. هل يجب أن يُعزى ذلك إلى الجوّ الوطنيّ العامّ؟ أم أن يُرى فيه تدخّلًا من القصر؟

ومع ذلك، فبعد أربع وعشرين جلسة محاكمة قليلة الجدّيّة، صدر على مطلق الرصاص، حسين توفيق، الذي نجح في الفرار، حكم غيابيّ بالحبس عشر سنوات. وبُرّئ السادات، ومعه عشرة متّهمين آخرين. لاحقًا، لن ينسى السادات هذين الشخصين، رئيس المحكمة والنائب العام، إذ سينال الأوّل من يديه أعلى وسام مصري، وهو «وشاح النيل»، ويعُيّن الثاني في منصب «المدّعي الاشتراكيّ» الرفيع.

---

8 المرجع نفسه، ص. 139.

4

جيهان

في عامه الثلاثين، عاد أنور السادات رجلًا حرًّا، مزمعًا على أن تكون حرّيته تامّة. كان غير وارد بالنسبة إليه أن يعود إلى زوجته، إقبال، وقد طلب منها قبل أشهر عدّة التوقّف عن زيارته في السجن. ويقول في مذكّراته شارحًا: «حين دخلتُ الكلّية الحربيّة، اتّضحت لي التناقضات التي تلازم هذا الزواج، واكتشفت أنّ ما من شيء يجمعني بزوجتي. لقد كان مجرّد زواج ريفيّ مدبّر، لا يمتّ بصلة إلى ما كنت أتعلّمه، وفي الواقع لا يمتّ حتّى إلى وجودي بصلة. كان هذا الوضع يعذّبني، لكنّني لم أستطع حياله شيئًا. لم يمكنّي أن أترك امرأتي، والحقيقة أنّني لم أفكّر في ذلك حتّى، من شدّة خضوعي لبعض القيم التي لم أستطع كما لم أشأ مخالفتها[1]». إلّا أنّ هذا الرباط بدا له على مرّ السنوات أمرًا لا يُطاق. «فكّرت في أنّني سأصبح موظّفًا مصريًّا نمطيًّا إذا واصلتُ وجودي مع هذه المرأة... بدون أيّ حلم... بدأتُ أدرك أنّها تعترض طريقي، وأنّ عليّ التصرّف قبل فوات الأوان لأجنّب نفسي إحباطًا عظيمًا».

---

[1] أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 111-113.

وبدلًا من العودة إلى منزل أبيه حيث تعيش زوجته وبناته الثلاث رقيّة وراوية[2] وكاميليا، أقام في نزل رخيص الكلفة في حلوان، وهي مدينة هادئة للعلاج الطبيعيّ تقع على مدخل القاهرة. لم يلبث صديقه حسن عزّت أن وافاه، واقترح عليه اصطحابه إلى منزله في السويس، بعدما جعله يشتري قمصانًا ويكلّف خيّاطًا بخياطة بزّتين على قياسه. في الواقع، كانت ملابس السجين السابق تقتصر على السترة والسروال الرثّين اللذين ارتداهما في خلال محاكمته. «في بيت حسن في السويس، التقيتُ لأوّل مرّة بجيهان – زوجتي – حيث كانت في زيارة لابنة عمّتها، زوجة حسن عزّت، فقضيتُ معهم بعض الأيّام[3]»، كما قال السادات، من دون أن يضيف تفاصيل أخرى.

كانت تدعى جيهان رؤوف، ولم تكد تتجاوز عامها الخامس عشر. لم تصدّق أذنيها حين قيل لها إنّ أنور السادات وصل إلى هناك، إلى منزل نسيبتها. فقد قرأت الكثير من المقالات التي تتحدّث عنه. «إنّ هذا الرجل قد جسّد كلّ ما أعجب به، وأرغب في أن أكونه. لقد كان بطلًا (...) بينما كان أقراني من الفتيات يبهرن بنجوم السينما والمغنّين العاطفيّين، كان أنور السادات بطل كلّ أحلامي».

الواقع أنّ تلك المراهقة شُغفت بالسياسة. فقد أكبّت على قراءة الجرائد بنهم، وهو ما شكّل مفاجأة كبيرة لوالدها، صفوت رؤوف، الموظّف في وزارة الصحّة، والذي نادرًا ما التفت إلى الجرائد. ثارت جيهان على الخفّة التي اندفعت بها مصر في أيّار/مايو 1948 إلى حرب فلسطين، من دون أن تقدّم لجيشها الوسائل لمحاربة الصهاينة. كما لم

---

2 التي حملت اسم شقيقة لها كانت تكبرها سنًّا لكنّها ماتت على أثر مرض ألمّ بها. وبعدما أصبح السادات رئيسًا، قال إنّ تلك الطفلة ماتت لأنّه لم يملك المال الكافي ليشتري لها ما احتاجت إليه من أدوية.

3 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 142.

تقبل لا بالنظام الفاسد للملك فاروق، ولا بالاحتلال البريطانيّ. والمفارقة أنّ والدتها الإنكليزيّة غلاديس كوتريل، وهي من بين كبار المعجبين بونستون تشرشل وبالمقاومة ضدّ ألمانيا النازيّة، هي مَن طبعت فيها تلك الروح الوطنيّة.

كان لجيهان – والتي يناديها أفراد العائلة «جين» – شغف آخر، هو الدين. فقد اكتشفت «هويّتها كمسلمة ومؤمنة»، وكَنَّتْ إعجابًا كبيرًا بتنظيم الإخوان المسلمين، فدأبت على الذهاب مرّة في الأسبوع، من دون علم أحد، لتقدّم جزءًا من مدّخراتها لحسن الهضيبي، الذراع اليمنى للمرشد الأعلى للتنظيم[4].

أمّا هيكل، الذي لا يفوّت فرصة لذمّ خليفة عبد الناصر، فيجزم قائلًا: «الحقيقة أنّ جيهان لم تعجب أنور السادات لأنّها فتاة جميلة فقط، وإنّما كان أشدّ ما أعجبه فيها أنّها ناصعة البياض. من سوء الحظّ – وبدون داع حقيقيّ – أنّ اللون كان لا يزال عقدة تتملّكه[5]». لكن، كيف للسادات ألّا يُفتتن بتلك البورجوازيّة الشابّة والجميلة والذكيّة والمتّقدة حياة وشغفًا؟ كانت هي نفسها تجده «وسيمًا جدًّا، ببشرته القاتمة اللون أكثر بكثير من بشرتها، والأنيق جدًّا في سترته وملابسه المتجعّدة». وحين غنّى لها بصوته الجميل أغنية حبّ لفريد الأطرش، الذي أكسبته عدّة أفلام سينمائيّة شهرة واسعة في كلّ العالم العربيّ آنذاك، أغمي عليها...

---

4 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، Presses de la Renaissance، 1987، ص. 69.

5 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 39-40.

تشرشل؟ لصّ؟

إستأذنت جيهان والديها لتمدّد إقامتها في السويس، فكان لها ما أرادت. وفي خلال نزهة على شاطئ الإسماعيليّة، روى لها أنور أخبار سنوات سجنه، ومحاولات هروبه، وقراءاته. في الزنزانة رقم 54، قرأ بنهم كلّ مؤلّفات جاك لندن، مؤثِرًا من بينها «نداء البراري»، حيث تماهى مع الذئب الذي يرفض أن يُروَّض... قرّرت جيهان قضاء حياتها مع ذاك الذئب. فبالمقارنة مع السادات، بدا لها الرجال الثلاثة الذين تقدّموا لطلب يدها – وهم أحد الجيران، وشقيق لحسن عزّت، وضابط من الشرطة العسكريّة – شخصيّات باهتة جدًّا!

إلتقيا مجدّدًا في الإسكندريّة، حيث أتى حسن وزوجته للاحتفال بعيد الفطر. فقضيا الوقت ما بين لقاءات الغداء في فندق بوريفاج، والعشاء في كازينو سان ستيفانو، والنزهات على الكورنيش، والنقاشات... ومع ذلك لم يغب عن بال جيهان الاستقبال الذي قد يلقاه أنور من والديها، وأحكامهما عليه: فقد يعتبرانه متقدّمًا في السنّ، أو فقيرًا جدًّا، أو ذا صبغة سياسيّة زائدة.

لم تكن الصداقة البحتة ما دفع حسن عزّت للمجيء إلى السادات. فهو كان يزاول التجارة مع السعوديين عبر قناة السويس، وأحبّ الإفادة من شهرة «بطل» قضيّة أمين عثمان في مفاوضاته مع شركائه التجاريين. عمل أنور معه لبعض الوقت، لكنّه لم ينل كلّ ما وُعد به من مال. وتلاشت مدخّراته بسرعة. إلّا أنّه نجح بفضل صديقه الكاتب والصحفيّ إحسان عبد القدّوس في جعل دار الهلال تنشر مذكّراته في السجن، وتوظّفه في فريق تحريرها.

«في تلك الأثناء، تقدّمتُ لخطبة جيهان من أبيها وتمّت الخطبة»، يقول السادات بشكل مقتضب في مذكّراته. لكنّ جيهان والتي كانت أكثر سخاءً في التفاصيل، تروي لنا أنّ هذا الزواج لم يتمّ بدون صعوبات.

فبناء على اقتراح من حسن عزّت، وأمام إلحاح جيهان، وافق أنور على الزعم بأنّه رجل ثريّ يمتلك أراضي وبساتين. كما أنّ عزّت هو مَن ذهب ليطلب باسمه يد الفتاة. تقول جيهان: «كان اجتماع حسن الأوّل مع والديّ بمجرّد عودتنا إلى القاهرة عاصفًا، كما توقّعنا، بالرغم ممّا اخترعه عن دخل أنور المستقلّ. قالت أمّي إنّني لا أزال صغيرة على الزواج، وإنّ أنور ينتمي إلى أسرة أقلّ مستوى من أسرتي، ولم يتزوّج أحد من أسرتي من شخص مطلّق. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ لون أنور كان داكنًا وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها، إذ كانت تعرفها من الصور التي نُشرت له كثيرًا في الجرائد[6]».

ومع ذلك نجحت الفتاة في انتزاع الموافقة من أبيها، بعدما اعترفت له بأنّ أنور ليس واسع الثراء. كما أقنعت والدتها باستقبال الرجل الذي أغرمتْ به. وهي تروي هذا اللقاء بالكلمات التالية:

«قالت أمّي بنبرة جافّة:

– نقرأ عنك كثيرًا في الصحف يا سيّد سادات. هل ما زلت ضدّ العمل البريطانيّ؟

وتوقّف قلبي.

– نعم، أنا ضد العمل البريطانيّ. فأنا كمصريّ، لا أريد دولة أخرى أن تفرض علينا، تمامًا كما أنّك لن تريدي مثل ذلك لبريطانيا.

---

6 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 95.

قلتُ لنفسي: حسنًا! فلسوف تتفهّم هذا.

– هل تريد أن ترى كلّ أفراد الشعب البريطانيّ قد غادروا مصر؟

وتوقّف قلبي مرّة أخرى. ولكنّ أنور كان رائعًا، وهو يقول:

– بالطبع لا. إنّي لا آخذ شيئًا على الشعب البريطانيّ. نحن جميعًا بشر، نملك الأحلام والآمال نفسها. أنا ضدّ الحكومة البريطانيّة التي تحتلّ أرضي.

آنذاك دوّى السؤال القاتل، عندما طرحت غلاديس كوتريل زوجة رؤوف على أنـور هذا السؤال: وما رأيك في ونستون تشرشل؟ أجاب السادات: ونستون تشرشل حرامي... إنّه قائد عظيم في بريطانيا، ولكنّه بالنسبة إلينا العدوّ المكروه. مع احترامي لك يا سيّدتي، فأنا لا أشعر نحو ونستون تشرشل سوى بالازدراء».

توقّف الحديث عند تلك النقطة، وغادر أنور المنزل. شلّ الخوف جيهان، لكنّ أمّها قالت لها: «أحترمه لصدقه ولصراحته في الكلام معي. لم يتملّقني، وهذا يدعو للإعجاب».

قفزت الشابّة فرحًا. وبعد ذلك عملت على ترتيب لقاء آخر، دار هذه المرّة حول ديكنز، وباللغة الإنكليزيّة. لم تكن لكنة السادات ممتازة، لكنّ إلمامه بمفردات اللغة كان واسعًا ودقيقًا، وعرف كيف يتحدّث بحماسة عن «أوليفر تويست» و«التوقّعات الكبرى»... وبعد انصرافه، قالت غلاديس رؤوف لابنتها: «إنّه ذكيّ، وله شخصيّة. سيرعاك رعاية طيّبة... ولن تشعري أبدًا معه بالملل».

طلاق وزواج

لا شكّ بأنّ هذه القصّة التي كُتبت للخلود، تجمّل الوقائع. ومع ذلك فقد نجح أنور السادات في امتحان الدخول. وعلى صعيد موازٍ أعلن لزوجته

الأولى نيّته الطلاق، وهو ما أعقبه بكاء واحتجاج. وإذا أردنا أن نصدّق ابنتهما كاميليا، فإنّ إقبال ماضي وجدت هذا الطلاق ظالمًا خصوصًا وأنّها اضطرّت إلى بيع ما ورثته من أراضٍ لتعيل أسرتها في خلال فترة اعتقال زوجها. ولعلّها كانت لترضى، بعدما أسقِط في يدها، بفكرة اقترانه بامرأة ثانية، إلّا أنّ الزوجين رؤوف ما كانا ليرضيا قطّ باقتران ابنتهما برجل لا يزال متزوّجًا[7].

إحتُفِل بالخطوبة في أيلول/سبتمبر من العام 1948. ويومذاك، اكتشفت جيهان العادات الريفيّة لعائلة خطيبها الكثيرة العدد، لكنّ الجوّ كان دافئًا. أحدهم صاح قائلًا: «كيف عثر شقيقنا المحظوظ على فتاة بيضاء مثلك[8]!». برغم طرده من الجيش أصرّ أنور على ارتداء بزّته العسكريّة، ما جعل «ابن الجيران»، وهو رجل سبق له أن تقدّم بطلب يد جيهان، يسارع إلى الوشاية به لدى الشرطة. ولكنّ هؤلاء كانوا ولحسن الحظّ منهمكين بمشاغل أخرى...

أخذ والد جيهان أنور جانبًا وقال له: «لا أستطيع أن أوافق على زواجك بابنتي إلّا إذا وعدتني بألّا تزجّ نفسك في السياسة». فوعده بذلك، «على مضض»، كما توضح جيهان، وهي تروي كيف اكتفى خطيبها بأن تابع بواسطة الجرائد أخبار الكارثة العسكريّة التي حلّت بالعرب: فدولة إسرائيل الناشئة خاضت معارك ضدّ جيوش كلٍّ من مصر والأردن وسوريا والعراقِ ولبنان، لتنجح على أثرها بضمّ ثلاثة أرباع فلسطين التي كانت تحت الانتداب البريطانيّ، إضافة إلى القدس الغربيّة؛ نزاع أدّى إلى تهجير مئات آلاف الفلسطينيّين.

لم يكن أنور يملك مالًا كافيًا لدفع نفقات زفافه، برغم عودته للعمل مع حسن عزّت. فتولّى حموه تغطية نفقات جهاز العروس والأثاث،

---

7 كاميليا السادات، المرجع السابق، ص. 20.

8 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 102.

وحُدّد موعد العرس في 29 أيّار/مايو 1949. كان لأنور من العمر ثلاثين عامًا، فيما لم تبلغ جيهان عامها السادس عشر بعد.

استأجر العروسان شقّة في جزيرة الروضة، غير بعيدة من شقّة والدَي جيهان. وكان للشقّة الواقعة في الطابق التاسع (من دون مصعد) إطلالة جميلة على النيل. أمضى الزوجان شهر عسلهما في الزقازيق، وهي من كبرى بلدات الدلتا، حيث ذهب أنور بتكليف من حسن عزّت للإشراف على مدّ أنابيب لمياه الشفة إلى القرى. دامت رحلة شهر العسل هذه أسابيع عدّة في أحد الفنادق المتواضعة في المدينة. وكان العريس يستيقظ باكرًا جدًّا، ويقضي ساعات طويلة في العمل، ليعود فيقضي السهرة مع زوجته التي لا عمل لديها سوى القراءة، ومراقبة الجيران والمارّة من شرفتها. لكنّ خلافًا ماليًّا سرعان ما نشب مع حسن عزّت، فقطع أنور كلّ علاقة به.

من جديد وجد نفسه عاطلًا عن العمل. وفي الروضة عرف الزوجان اللذان ساءت بهما الأحوال سبعة أشهر عجافًا. تؤكّد جيهان قائلة: «لم يتبقَّ لنا أيّة نقود لشراء الفاكهة. وشعرتُ بالجوع لأوّل مرّة في حياتي[9]». أمّا هو فوضع نصب عينيه هدفًا واحدًا: العودة إلى الجيش.

[9] المرجع نفسه، ص. 119.

5

عميل مزدوج

لم يكن هناك من مانع يحول دون عودة أنور السادات إلى صفوف الضبّاط بعد تبرئته. ومع ذلك، فقد احتاج إلى دعم. في العام 1941، وفيما كان مركز خدمته بالقرب من مرسى مطروح على ساحل البحر الأبيض المتوسّط، جمعته صداقة بيوسف رشاد، أحد جرّاحي سلاح البحريّة. وذات مرّة، اشتدّ قلق هذا الأخير على طفله الصغير بعدما ألمّ به التهاب رئويّ، فما كان من أنور، المسؤول عن الإشارة إلّا أن وضع في تصرّفه هاتفًا، ليل نهار. تؤكّد جيهان قائلة: «لم يكلّف هذا الأمر شيئًا، لكنّ رشاد لم ينسَ هذا العمل الإنسانيّ أبدًا![1]».

لاحقًا، أصبح رشاد أحد أطبّاء الملك فاروق، ولم يجد السادات صعوبة في طلب موعد منه، وفي كسب تعاطفه مع حالته. ووفقًا لخصومه فهو لم ينتظر شهر كانون الثاني/يناير من العام 1950 ليتّصل بهذا الصديق، أو لكي يتّصل هذا الصديق به. ويذهب هيكل بعيدًا جدًّا في هذا الصدد، فيؤكّد أنّ الدكتور رشاد، الذي كان يدير مجموعة من الضبّاط الشباب في خدمة الملك (الحرس الحديديّ)، استخدم السادات في خلال فترة

---

[1] جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 121.

اعتقاله وكان يمدّه بالمال. ويعتقد هيكل أنّ قرار اغتيال أمين عثمان اتُّخذ في القصر. وفي نيسان أبريل من العام 1948، وفي خلال محاولة لاغتيال النحّاس باشا – كانت كذلك من تدبير الحرس الحديدي لمعاقبة رئيس الوزراء السابق ذاك على وقوفه في وجه الملك – «نفوذ القصر هو الذي رتّب له الخروج من السجن سرًّا للاشتراك في المحاولة ضدّ النحّاس باشا[2]».

مهما يكن من أمر، ففي شهر كانون الثاني/يناير من العام 1950، وبوساطة من طبيب الملك، استطاع السادات مقابلة محمّد حيدر باشا، القائد الأعلى للقوّات المسلّحة، الذي خصّص له استقبالًا يخلو من كلّ ترحيب. «أنت مجرم... وتاريخك أسود...» ومن دون أن يتيح للمعتقل السابق التفوّه بكلمة واحدة، نادى مدير مكتبه وأمره: «هذا الرجل يعود إلى الجيش اليوم[3]».

في مؤلّفه اللاذع، يسرد هيكل وقائع تلك المقابلة، قائلًا إنّها أعقبت نصيحة وجّهها رشاد إلى السادات بأن يقف على الطريق الذي يسلكه فاروق في خلال أدائه صلاة الجمعة في مسجد الحسيني. وهذا ما فعله السادات. «قبّل يد الملك وطلب منه الصفح عن أيّ خطأ يكون قد ارتكبه. وأجاب فاروق بهزّة من رأسه. وفي اليوم التالي اتّصل به يوسف رشاد وطلب منه أن يذهب لمقابلة الفريق محمّد حيدر باشا[4]». تقبيل السادات يد فاروق... طبعًا لم يرد هذا الأمر في أيّ من سيرتَي الرجل الذاتيّتين، لا الأولى ولا الثانية.

---

2 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 34-36.

3 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 146-148.

4 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 40.

الترقية بالغشّ

في كلّ حال، ها هو أنور السادات من جديد بالبزّة العسكريّة، براتب يبلغ أربعة وثلاثين جنيهًا مصريًّا، وقد استعاد رتبته نقيبًا في الجيش، الذي وضع في تصرّفه سيّارة وسائقًا، وخادمًا حتّى. من بين أوائل من جاؤوا لتهنئته كان جمال عبد الناصر، الذي عُيِّن بعد عودته من السودان في العام 1941 مدرّسًا في الكليّة الحربيّة، قبل أن يتميّز في حرب 1948 ضدّ إسرائيل ويصاب بجروح على الجبهة. وبإمرته، أصبحت الرابطة الصغيرة من الضبّاط القوميّين تنظيمًا نصف سرّيّ يطبع المناشير، وتراوده أفكار القيام بانقلاب. ومنح هذا التنظيم نفسه مهلة خمسة أعوام للإطاحة بالحكم.

خسر الملك فاروق كلّ مصداقيّة. وتحوّل الشابّ الوسيم الذي خلف أباه في العام 1936 إلى فاسق بدين، أخرق في الألعاب السياسيّة العقيمة. كان له من العمر واحد وثلاثون عامًا لكنّه يبدو أكبر من عمره بعشرين سنة. وباتت أخبار طيشه الليليّ ورحلاته في الخفاء إلى كازينوهات أوروبا على كلّ شفة ولسان. في النهاية، ما كان يبرع في تدبّر أمره سوى في لعبة البوكر، وبشيء لا يخلو من الظُرف. ومن طرفاته التي تندّرت بها القاهرة كلّها أنّه أعلن ذات ليلة أنّ في يده أربعة ملوك لكنّه لم يُلق على الطاولة سوى ثلاثة. وحين سُئل بأدب أين الملك الرابع أجاب مقهقهًا: «الرابع هو أنا». لكن حتّامَ سيدوم ذلك؟ كانت مصر تعيش أجواء نهاية عهدٍ ملكيّ.

ألحّ عبد الناصر وصديقه المخلص عبد الكريم عامر على السادات لتقديم امتحانات بهدف تعويض الوقت الضائع والترقّي في الجيش مثلهما. فردّ المعتقل السابق بأنّ فرصه في النجاح معدومة، لأنّ تقنيّات الاتّصالات العسكريّة تطوّرت كثيرًا منذ العام 1942. لكنّ الضبّاط الأحرار

لديهم ما يكفي من النفوذ، وما على النقيب إلّا أن يكتب ما يستطيع كتابته في أوراق الامتحان التي ستُستبدَل بأخرى تحوي الإجابات الصحيحة[5]. وقد كان. رُقّي النقيب إلى رتبة رائد في انتظار أن يصبح مقدّمًا.

بعد تشكيل السادات إلى العريش في سيناء، ثمّ إلى رفح، رجعت زوجته جيهان إلى منزل والديها، وعادت إلى الدرس بمساعدة أستاذ لنيل شهادة البكالوريا. كتب لها أنور يقول:

جيني،

أرسل إليك سلامي وقبلاتي. إنّها المرّة الأولى التي أكاتبك منذ أن تزوّجنا، ومنذ أن حملتِ اسمي إلى الأبد. ألهذا السبب أجهل ما عليّ كتابته؟ هل أقول لك إنّني أحبّك يا زوجتي العزيزة؟ هذا لا يكفي للتعبير عن حقيقة الواجبات المقدّسة التي جمعت بين قلبينا حتّى قبل لقائنا. لقد كنّا متّحدين ومتزوّجين، والتقت روحانا قبل زواجنا بوقت طويل. والآن أكتب إليك يا حبّي، ويا أملي، ويا إلهامي، ويا سعادتي. وسأحمد الله العليّ العظيم ما حييت على ما وهبني إيّاه. وأصلّي ليحفظك لي مثالًا للطيبة، والجدّية، والطهارة، وقوّة الشخصيّة والإقناع، وعفاف الروح وعمق المشاعر والعواطف.

زوجك[6]

هل كان أنور السادات يشعر بارتياح أكبر بالتعبير خطّيًا عن مشاعر الحبّ لديه؟ توضح جيهان بدقّة في مذكّراتها: «إنّ كلمة الحبّ لم ترد على لسانه أبدًا في كلامه معي طوال فترة زواجنا. فكثيرًا ما كنت

---

[5] أنيس منصور، المرجع السابق، ص. 480.

[6] جيهان السادات، *My Hope for Peace*، نيويورك، Free Press، 2009، ص. 56.

أداعبه محاوِلةً أن أدفعه لكي يقول لي إنّه يحبّني. ولم أكن أريد إلّا إعادة تأكيد حبّه لي، مثلي في ذلك مثل كلّ النساء. ومع أنّني كنت أعرف أنّه يحبّني، إلّا أنّه لم ينطق بهذه الكلمة أبدًا. لكنّ حمله على الاعتراف بذلك كان مستحيلًا (...) ألعلّه كان خجولًا جدًّا؟[7]».

كان الزوجان يلتقيان أحيانًا، لبضعة أيّام، في المنزل الصغير الذي يشغله الضابط على أطراف الصحراء، قريبًا من الحدود الإسرائيليّة. وكانا يوم الجمعة يذهبان للنزهة على الشاطئ.

في العام 1950، استقبل أنور ابنته البكر رقيّة للإقامة في منزَله. وكان يأخذها بين ذراعيه ليلًا ويغنّي لها تهويدة لتغفو. في العام التالي، عادت الفتاة ومعها شقيقتها التي تليها سنًّا، راوية[8].

أمّا في خلال الأمسيات التي اعتاد أن يقضي معظمها وحيدًا، فقد وجد السادات ما يملأ به وقته، إذشرع بكتابة رواية بعنوان «أمير الجزيرة»، بطلها زعيم شابّ يسدي إليه معاونوه العجائز نصائح سيّئة. لكنّ تلك الرواية لم تُنشر قطّ[9]...

تفجير السفارة البريطانيّة

كان السادات قد وعد حماه بعدم العودة إلى تعاطي السياسة أبدًا. وقد ساعده قائد الضبّاط الأحرار على الوفاء مؤقّتًا بذاك الوعد المتهوّر. «طلب منّي عبد الناصر ألّا أقوم بأيّ نشاط سياسيّ واضح، لأنّني بسبب تاريخي النضاليّ، لا بدّ أن أكون بطبيعة الحال مراقبًا[10]». ومع ذلك، فقد قُبِل السادات في عداد أعضاء اللجنة التنفيذيّة للتنظيم، والتي ستصبح

---

7 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 92.

8 رقيّة أنور السادات، ابنته، القاهرة، دار نهضة مصر، 2012، ص. 35-36.

9 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 41.

10 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 148.

لاحقًا مجلس الثورة[11]. إذا شئنا أن نصدّق ما كتبه في النسخة الثانية من سيرته الذاتيّة، فإنّ عبد الناصر، ومن دون أن تنشأ بينهما علاقة صداقة، كان واثقًا كلّ الثقة بأنّ السادات سيقف إلى جانبه باعتباره قوّة لها تجربتها وتاريخها، قوّة ستسانده في الصراعات التي بدأت داخِل الهيئة التأسيسيّة. «ولذلك كان يهرع عندما أعود إلى القاهرة في إجازة، ليشرح لي المصاعب التي يلاقيها من بعض الأعضاء... كان يقضي معي خمسة أيّام كاملة من إجازاتي التي لم تكن تتعدّى الأسبوع وكنّا نتدارس أحوال التنظيم والصعاب والمشاكل التي تواجهنا». لكنّ جيهان من جهتها تتذكّر ولعهما بمشاهدة الأفلام: «حين يكون أنور في إجازة، كنّا نذهب دائمًا إلى إحدى دور السينما[12]».

يؤكّد السادات أنّه ثنى عبد الناصر في العام 1951 عن الشروع في سلسلة من الاغتيالات السياسيّة. والواقع أنّه هو مَن ترك عن نفسه صورة الرجل الميّال إلى العنف، والمؤيّد لعمليّات الاغتيال، أقلّه قبل عودته إلى الجيش. حتّى أنّه يروي ذلك في أحد كتبه الأولى. في شباط فبراير 1945 قام النقراشي باشا في مستهلّ عهده في رئاسة مجلس الوزراء المصريّ، بزيارة إلى السفير البريطانيّ، اللورد كيلرن، لتذكيره بأنّ مصر تطالب بانسحاب قوّات الاحتلال. كان استقبال السفير له مقتضبًا، وقابل طلبه بالرفض القاطع. لم تلبث تفاصيل هذه المقابلة أن ذاعت، فأثارت لدى القوميّين المصريّين شعورًا بالسخط الشديد. وكتب السادات يقول:

[11] تألّفت اللجنة حينذاك من جمال عبد الناصر، وكمال الدين حسين، وعبد الحكيم عامر، وحسن ابراهيم، وعبد المنعم عبد الرؤوف، وصلاح سالم، وجمال سالم، وعبد اللطيف البغدادي، وخالد محي الدين، والسادات. ولاحقًا، أقصي منها عبد المنعم عبد الرؤوف الذي اعتُبر مقرّبًا جدًّا من الإخوان المسلمين، ودخل اللجنة مكانه زكريا محي الدين، وحسين الشافعي، ويوسف صدّيق وعبد المنعم أمين.

[12] جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 124.

«قصدتُ جمال لأقدّم إليه عرضًا بالانتقام يقضي بتفجير السفارة بكلّ مَن فيها[13]». لكنّ عبد الناصر رفض، وانتهى الأمر هنا.

كما أنّ اللجوء إلى الإرهاب كان أحد أسباب القطيعة التي وقعت في العام 1949 بين الضبّاط الأحرار والإخوان المسلمين، بعدما شهدت العلاقات بينهما تراجعًا في أثناء حرب فلسطين. فقد اغتال الإخوان النقراشي باشا في كانون الأوّل/ديسمبر من العام 1948، وبعد أسابيع قليلة ردّت الشرطة السياسيّة بقتل مرشدهم الأعلى حسن البنّا.

في خلال العام 1951، قام السادات بعدّة أعمال تخريبيّة. فقد كان يوزّع التعليمات على الضبّاط الأحرار في المناطق التي عُهدت إليه، ويقدّم الدعم للمناضلين الذين يشنّون الهجمات على القواعد البريطانيّة في منطقة قناة السويس، ويمدّهم بالأسلحة والذخائر. كما دأب على مقابلة الدكتور يوسف رشاد الذي يدير جهاز المخابرات الخاصّة في القصر الملكيّ، وزوّده بـ«معلومات خاطئة»، محاولًا الحصول من جهته على «معلومات تتعلّق بخطط الملك ونواياه»[14]. هل كان عميلًا مزدوجًا؟ نعم، لكنّه لم يخُن الضبّاط الأحرار قطّ[15]. كما أنّه لم يكن الوحيد في ممارسة هذه اللعبة المزدوجة لمصلحة التنظيم. فصلاح سالم، وهو عضو آخر في اللجنة، كان يعمل في مكتب وزير الحرب.

سهرة في نادي السيارات

كان الضبّاط الأحرار يعلمون أنّهم وعندما يحين الوقت، سوف يحتاجون إلى شخصيّة ذات صفة تمثيليّة، فوجدوها في شخص اللواء محمّد نجيب، الذي تميّز في شباط/فبراير من العام 1942 برسالة كتبها إلى

13 أنور السادات، *Révolte sur le Nil*، المرجع السابق، ص. 108.

14 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 154-155.

15 مقابلة مع توفيق أقليمندوس، شباط/فبراير 2013.

الملك فاروق، قال له فيها: «بما أنّ الجيش عجز عن حماية جلالتكم (في مواجهة السفير البريطانيّ، الذي أرغم الملك على استبدال رئيس الوزراء)، أخجل من ارتداء زيّي العسكريّ...» لكنّ طلب استقالته قوبل بالرفض. وبعد تعرّضه للإصابة بجروح ثلاث مرّات في حرب فلسطين، اكتسب نجيب إعجاب عدد كبير من الضبّاط. كما دأب نجيب على أن يفضح بوتيرة متواصلة فساد النظام في مجلّة روز اليوسف باسم مستعار وهو «الجنديّ المجهول». حين اتّصل به الضبّاط الأحرار، طمأنهم إلى أنّه يقف في جانبهم.

في كانون الثاني/يناير من العام 1952، أقنع الضبّاط الأحرار اللواء نجيب بالترشّح لرئاسة نادي الضبّاط في مواجهة مرشّح القصر، فحقّق الفوز بأكثريّة ساحقة، وهو ما أثار سخط فاروق، الذي رفض نتيجة الانتخاب، واستبدل نجيب بضابط آخر مقرّب منه، هو اللواء حسين سرّي عامر.

بلغت المزايدات الوطنيّة الذروة في الأوساط السياسيّة المصريّة. فقد نقضت حكومة حزب الوفد، الساعية إلى اكتساب الشعبيّة من جديد، المعاهدة الإنكليزيّة المصريّة التي أقِرّت في العام 1936، وصادق البرلمان على قرارها في 8 تشرين الأوّل/أكتوبر 1951. وهذا ما جعل بطبيعة الحال وجود القوّات البريطانيّة في برزخ السويس وجودًا غير شرعيّ، وحوّلها إلى هدف لهجمات الفدائيّين الذين خاضوا ضدّها حرب عصابات. وبعد ثلاثة أشهر، كانت المأساة: فبعد هجوم أوقع في صفوف قوّات الاحتلال عشرة قتلى، ردّ البريطانيّون بمهاجمة ثكنة للبوليس المصريّ، الذي كان يقدّم العون للفدائيّين. تلقّى أفراد الثكنة الأوامر من الحكومة المصريّة بالمقاومة، فكانت النتيجة خمسين قتيلًا ومئة جريح.

في اليوم التالي، أي السبت في 26 كانون الثاني/يناير 1952، اشتعلت – بالمعنى الحقيقيّ للتعبير – القاهرة «الأوروبيّة». فقد

تعرّضت المتاجر والفنادق والمقاهي ودور السينما إلى هجمات شنّتها مجموعات صغيرة من المنتفضين الغاضبين، تدعمهم الجماهير. لم تتدخّل الشرطة المصريّة إلّا عصر ذلك اليوم، بعد الانتهاء من وليمة أقامها الملك لمناسبة ولادة وليّ العهد. كانت أعداد الضحايا بالعشرات، ومن بينهم تسعة إنكليزيّين احترقوا أحياء في نادي الفروسيّة الذي شبّ فيه حريق هائل.

يؤكّد السادات أنّه عرف من الدكتور يوسف رشاد أنّ فاروق، الذي أثار هذا «السبت الأسود» اضطرابه الشديد، فكّر في مغادرة البلد. ووفقًا لما يقوله السادات، ساهمت هذه المعلومة بعد نقلها إلى عبد الناصر في تقديم موعد الانقلاب[16]. في كلّ حال، بات من الضرورة تعديل موعد تنفيذ الخطّة لأنّ الشرطة السياسيّة أوشكت آنذاك على كشف أمر الضبّاط الأحرار وقادتهم. فكان على هؤلاء التصرّف بسرعة لئلّا يعرّضوا أنفسهم للاعتقال. وهكذا فإنّ الانقلاب الذي حُدِّد موعده في الأصل بشهر تشرين الثاني/نوفمبر، قد وقع في منتصف الصيف.

في بداية تمّوز/يوليو من العام 1952، كان السادات على موعد مع يوسف رشاد في نادي السيّارات في الإسكندريّة[17]. شعر الطبيب بالقلق بسبب المناشير التي وُزِّعت بين الضبّاط، فطمأنه صديقه إلى أنّ مصدرها ضابط محبّ للظهور ومصاب بمرض العظمة[18].

تروي جيهان هذا اللقاء في مذكّراتها على نحو أكثر دراماتيكيّة[19]. فتقول إنّ كليهما كانا يتناولان العشاء مع يوسف رشاد حين شعرت المرأة الشابّة أنّ ثمّة عينين تحملقان فيها: إنّه فاروق، الجالس إلى

---

16 أنور السادات، *Those I Have Known*، المرجع السابق، ص. 4-5.

17 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 155-156.

18 مصطفى كمال صدقي.

19 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 131-132.

مائدة قريبة، والذي ما لبث أن استدعى الطبيب إليه. دبّ الرعب في قلب جيهان، لعلمها أنّ من عادة الملك مراودة النساء الجميلات عن نفسه. فغادرت المائدة إلى المرحاض، لتعود إليها، والرعشة لا تزال في جسدها، وتختار كرسيًّا آخر لا يظهر منه للملك المصريّ غير ظهرها. عاد الدكتور رشاد للجلوس معهما، وقال: «لقد أراد الملك أن يعرف مع مَن أجلس، فقلتُ له إنّكما من أصدقائي». وفي خلال تلك الأمسية، استُدعي الطبيب مرّات عدّة إلى مائدة الملك. وتروي جيهان فتقول: «كان أنور يزداد انفعالًا، وكنتُ أعتقد أنّه قلق بسببي، ولكنّي عرفتُ فيما بعد أنّ قلقه كان خوفًا من أن يربطه الملك بالشائعات التي انطلقت حول المؤامرات بين ضبّاط الجيش».

6

الثورة

عاد أنور السادات إلى مركزه في سيناء. وفي 21 تمّوز/يوليو 1952 اتّصل به موفد من عبد الناصر يدعوه للذهاب إلى القاهرة في اليوم التالي، لأنّ الأحداث تسارعت. وبين أيدينا ثلاث روايات على الأقلّ حول الساعات الأربع والعشرين التاريخيّة التي تلت ذلك.

تقول الرواية الأولى، المنشورة في العام 1957: «كنت في رفح حين استدعاني الرئيس (عبد الناصر) إليه على عجل، فاستنتجتُ أنّ الخاتمة باتت وشيكة». إستقلّ السادات أوّل قطار ووصل إلى القاهرة بعد الظهر. «كانت الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، ولم يكن أحد في انتظاري. وحين لم أجد في منزلي أيّة رسالة، رغبتُ في الترفيه عن أولادي وأخذهم إلى سينما في الهواء الطلق، تقع في مكان قريب من المنزل. في هذا الوقت مرّ بمنزلي جمال، الذي كان يستدعي المخطّطين للثورة كلّا على حدة، بسيّارته الأوستن الصغيرة المشهورة. ولمّا لم يجدني، عاد بعد ساعة ليترك رسالة صغيرة كتب عليها هذه الكلمات البسيطة: «موعد العمليّة هذا المساء. اللقاء لدى عبد الحكيم عامر عند الحادية عشرة». إضطربتُ كثيرًا، وعهدتُ بأولادي إلى البوّاب، تتنازعهم

المفاجأة والخشية، وقفزتُ السلالم قفزًا. خلعت بزّتي المدنيّة لأرتدي لباسي العسكريّ على عجل. وفي أقلّ من 5 دقائق، كنت جالسًا إلى مقود سيّارتي[1]...».

وتقول الرواية الثانية المنشورة في العام 1978: «في يوم 21 يوليو، أرسل عبد الناصر رسالة لي مع حسن ابراهيم تسلّمتها في مِطار العريش يطلب منّي فيها أن أنزل إلى القاهرة يوم 22 يوليو، لأنّ الثورة قد تحدّد لقيامها ما بين ذلك 22 يوليو و5 أغسطس. وفعلًا وصلتُ القاهرة يوم 22 يوليو، ولكنّي لم أجد عبد الناصر في انتظاري على محطّة السكّة الحديد كعادته. فقلتُ في نفسي لا بدّ أنّ الوقت لم يحُن بعد. ولذلك توجّهتُ إلى بيتي واصطحبتُ زوجتي إلى السينما. ولكنّي عندما عدتُ إلى البيت في منتصف الليل وجدتُ بطاقة من عبد الناصر يطلب منّي فيها أن أقابله في منزل عبد الحكيم عامر الساعة 11 مساء. وعلمتُ من البوّاب الذي سلّمني هذه البطاقة أنّ عبد الناصر قبل أن يترك البطاقة أتى إلى بيتي مرّتين، مرّة في الساعة في الثالثة، ومرّة أخرى في العاشرة (وآنذاك، أي عند العاشرة، كتب الكلمة التي تركها لي). غيّرتُ ملابسي بسرعة وأخذتُ مسدّسي، وتوجّهتُ إلى منزل عامر...[2]»

أمّا الرواية الثالثة، فتظهر في مذكّرات زوجته[3]، التي تروي أنّه في 22 تمّوز/يوليو، اتّصل بها هاتفيًّا وقال لها: «جيهان، إنّي قادم في إجازة». فردّت مدهوشة: «في إجازة؟» فقد كان في إجازة منذ مدّة قريبة. قدّم لها الشرح قائلًا إنّ والدته مريضة، لكنّ جيهان كانت قد التقت حماتها في اليوم عينه، وبدت لها بصحّة جيّدة... «ما هذا الغموض؟ ذهبتُ لمقابلته في محطّة السكك الحديديّة. وبمجرّد أن وصل، قال لي: دعينا

---

1 أنور السادات، *Révolte sur le Nil*، المرجع السابق، ص. 198-199.

2 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 156-157.

3 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 133-135.

نذهب إلى شارع الهرم» وهناك، باح لها أنّه يقوم بنشاطات سياسيّة، بعكس الوعد الذي أخذه على نفسه أمام والدها. لكنّها تفهّمته، ووافقت على ما يفعله، وطمأنته. فجأة اقترح عليها وقد زال عنه كلّ توتّر، دعوة والديها إلى السينما. وتوضح جيهان قائلة: «كان أثناء الفيلم عطوفًا أكثر من المعتاد، واضعًا ذراعه حولي». عادا إلى المنزل «حوالى منتصف الليل» وآنذاك أعطاهما البوّاب رسالة «هرب الدم من وجه أنور» وهو يقرأها، ثم هرع يرتدي بذلته العسكريّة مؤكّدًا لزوجته: «أحد أصدقائي مريض جدًّا، ويجب أن أذهب إليه». فسألته مدهوشة: «في بذلتك العسكريّة؟» لكنّه آنذاك كان يهرول على الدرج لينطلق بسيّارته...

ما كانت هذه الاختلافات بين الروايات الثلاث لتكون ذات أهميّة لولا أنّ موقف السادات أثار فيما بعد شكوكًا عدّة. فتلك لم تكن المرّة الأولى التي يعطي فيها الانطباع بأنّه هيّأ نفسه في آنٍ واحد لاحتمالَي النجاح والفشل. وقد لاحظ مراقب بارع بأنّ «أنور السادات، إذا ما شارك في مؤامرة، فهو ينأى بنفسه دائمًا ساعة الامتحان، وكأنّما يرغب في مداراة السلطة والمعارضة معًا، خشية الالتزام الكامل بسلوك درب قد تقوده إلى الهلاك[4]». في ذلك التاريخ، أي يوم 22 تمّوز/يوليو 1952، مع مَن ذهب إلى السينما؟ مع زوجته؟ مع أولاده؟ مع حمويه؟ أتعني عودته المتأخّرة جدًّا إلى المنزل أنّه شاهد فيلمين أو ثلاثة على التوالي؟ وفي السينما، هل افتعل مشاجرة مع مشاهد آخر، فاستدرجه إلى مخفر الشرطة لتدوين محضر، ليمنح نفسه حجّة غياب في حال فشل الانقلاب؟[5] لكنّ ذلك لا يعدو كونه ضجيجًا. وحتّى هيكل، ألدّ أعدائه

---

[4] بيار ميريل، *L'Egypte des ruptures*، Sindbad، 1982، ص. 245.

[5] إريك رولو، *Dans les coulisses du Proche-Orient*، Fayard، 2012، ص. 321.

ينسب هذه الشائعة إلى «مَن يدّعونها» ويؤكّد أنّ «ليس هناك دليل مادّيّ مؤكّد يعزّز هذا الادّعاء[6]».

حين يُطرح هذا السؤال على جيهان اليوم، تقول موضحة: «عُرض الفيلم في سينما في الهواء الطلق. لذلك لم يبدأ عرضه قبل هبوط الظلام. وكان والداي معنا، ولم تقع أيّة مشاجرة في السينما. ولم يتوجّه زوجي إلى الشرطة، بل رافقَنا، والديّ وأنا، إلى المنزل، قبل أن يذهب لموافاة رفاقه الضبّاط الأحرار للقيام بالثورة[7]».

بعد الانقلاب، وبناء على طلب جمال عبد الناصر، أجريَ تحقيق حول حوادث عدّة تتعلّق بتلك الفترة. ويوضح كاتب التقرير، وهو الضابط محسن عبد الخالق، الذي أصبح فيما بعد سفيرًا لمصر في اليابان، ما يلي: نحو الساعة الثامنة مساءً، ولمّا لم يتلقَّ أيّة أخبار، اصطحب السادات زوجته إلى السينما، بعدما طلب من البوّاب إنذاره إذا ما سأل عنه أحد؛ بعد ذلك أخبر مدير السينما بحضوره، راجيًا منه إبلاغه بحال وصول صديق له؛ إلّا أنّ البوّاب لم يخبر أحدًا بمجيء عبد الناصر إلى منزل السادات، ولم يدرِ الزوجان بذلك إلّا بعد عودتهما إلى المنزل عند الثانية عشرة والنصف[8].

أسرع السادات بسيّارته إلى منزل عبد الحكيم عامر. ولمّا لم يجده، مضى إلى ثكنة العبّاسيّة التي لم يستطع دخولها بسبب جهله كلمة السرّ. كان الحارس قاطعًا في منع السادات من الدخول، لكنّ الأخير لمح ولحسن الحظّ من بعيد عبد الكريم عامر فناداه، ليعلم منه أنّ الضبّاط الأحرار قد استولوا على المقرّ العامّ لقيادة القوّات المسلّحة. والواقع أنّ

6 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 43.

7 ردّ على الكاتب في آذار/مارس 2013.

8 موسى صبري، **السادات: الحقيقة والأسطورة**، القاهرة، المكتب المصري الحديث، 1985، ص. 680-682.

المقدّم يوسف صدّيق نجح، على رأس كتيبة المدفعيّة المتحرّكة الأولى، وتسنّت له فرصة اعتقال رئيس هيئة الأركان وعدد من كبار الضبّاط الذين كانوا في اجتماع لتدارس وسائل مواجهة الانقلاب.

صوته في الإذاعة

حين وصل السادات، رأى أنّهم كانوا يعتمدون عليه لتعطيل شبكات الاتّصالات التابعة للقصر والجيش. لكنّ ذلك لم يعد ضروريًّا. طلب إليه عبد الناصر اختبار الخطوط الهاتفيّة التي تربط القاهرة ببرزخ السويس، والاتّصال بمختلف الوحدات للتأكّد من أنّ كلّ شيء يسير وفقًا لما أعدّ له المخطّطون للثورة. واقتصرت مشاركته في الانقلاب، ليلة 22-23 تمّوز/يوليو 1952 على هذا الأمر.

نجحت العمليّة بسهولة مفاجئة. ولم يبقَ سوى إحضار اللواء محمّد نجيب وتعيينه قائدًا على الجيش. في الصباح الباكر، كُلّف السادات، الواصل متأخّرًا، بإعلان خبر الانقلاب على الإذاعة. لماذا هو؟ لأنّ له «صوتًا قويًّا ويجيد الإلقاء»، حسبما يقول بخبثٍ هيكل، الذي يؤكّد سماعه هذا التعليل من فم عبد الناصر[9]. ويقول السادات في الرواية الأولى إنّ عامر هو مؤلّف ذلك البيان الذي وُجّه إلى الشعب المصريّ[10]، بينما يزعم في كتابه الأخير (أي النسخة الثانية)، وبدون أدنى حرج، بأنّه هو مؤلّف البيان[11].

حين وصل السادات إلى مقرّ الإذاعة، انتظر انتهاء المقرئ من تلاوة آيات من القرآن الكريم، كما درجت العادة كلّ صباح، ثمّ قرأ البيان بكلّ ما يقتضيه الموقف من هيبة: «إجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها

---

9 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 44.

10 أنور السادات، *Révolte sur le Nil*، المرجع السابق، ص. 202-203.

11 أنور السادات، *Those I Have Known*، المرجع السابق، ص. 7.

الأخير، من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكلّ هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبّب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين... تآمر الخونة على الجيش وتولّى أمره إمّا جاهل أو فاسد، حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها. وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا... ولا بدّ أنّ مصر كلّها ستلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب... الجيش كلّه أصبح يعمل لصالح الوطن». وإذا كان الناطق باسم الضبّاط الأحرار قد استخدم لاحقًا في كلامه صيغة المتكلّم المفرد، فذلك لأنّه يتحدّث باسم اللواء نجيب، الذي قدّم نفسه على أنّه القائد الجديد للجيش: «أنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألّا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف... وإنّني أطمئن إخواننا الأجانب إلى مصالحهم وأرواحهم وأموالهم، ويعتبر الجيش نفسه مسؤولًا عنهم، والله وليّ التوفيق».

قرّر الضبّاط الأحرار في المرحلة الأولى أن يفرضوا على الملك سياسيًّا مستقلًّا، هو علي ماهر باشا، لرئاسة الحكومة. وكُلّف السادات بزيارته لعرض الاقتراح عليه. ولمّا كان يجهل عنوانه، فقد استعان بصديقه الصحفيّ والكاتب إحسان عبد القدّوس، الذي رافقه لزيارة الباشا. وافق ماهر بعدما نال عبر الهاتف موافقة الملك الموجود، وككلّ صيف، في الإسكندريّة، مع قسم كبير من أفراد الحاشية والحكومة.

وبعد يومين، كان السادات هو أيضًا مَن رافق اللواء نجيب إلى «العاصمة الثانية لمصر» لتوجيه إنذار إلى الملك بواسطة علي ماهر: يطلب مجلس الثورة من فاروق التنازل عن الحكم لمصلحة ابنه، الذي لم يكد يتجاوز الشهر السادس من العمر، ومغادرة مصر. وافق الملك الذي تملّكه الرعب على كلّ مطالب الانقلابيّين، وغادر مصر في 26 تمّوز/ يوليو مع أفراد عائلته حاملًا معه الكثير من الحقائب، ومصحوبًا بما يليق به من مظاهر التكريم، على متن اليخت الملكيّ «المحروسة» إلى كابري.

بعد خمسة وعشرين عامًا، وبعدما استتبّ الحكم للسادات وأدرك أنّ أحدًا لن يجرؤ على مناقضة أقواله، بالغ السادات في تصوير الدور – المتواضع إلى حدّ ما – الذي لعبه في خلال الأيّام القليلة تلك. وبحسب روايته أنّه قد أثار إعجاب علي ماهر، وأنّه كتب بيده الإنذار الموجّه إلى الملك، وأعطى الضوء الأخضر لإنشاء مجلس وصاية على العرش، وأرغم القائم بالأعمال البريطانيّ على احترام أصول التعامل، وأقنع قبطان «المحروسة» بالإبحار، وحرص على ألّا يطلق سلاح البحريّة النار على اليخت... وفي جملة الحديث، يتذكّر أنّه خدع محاوريه بحقيبة فارغة: «قبل السفر من القاهرة (لموافاة علي ماهر في الإسكندريّة)، قلتُ: يا جماعة، هل معقول أن أدخل على رئيس وزراء هكذا دون أن يكون في يدي شيء، ولو شنطة؟ وأعطاني جمال عبد الناصر شنطته. ودخلتُ بها على علي ماهر وأمام الصحفين. ونشرت الصحف أنّني أحمل حقيبة ملأى بالوثائق. وللحقيقة لم يكن بهذه الحقيبة شيء. لقد كانت مليئة بالورق الأبيض[12]». مرّة جديدة يجد السادات الفرصة للتمثيل.

وفي إطار أكثر جدّية، وبوقاحة فاضحة، يكتب في مذكّراته: «كنتُ الوحيد بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذي كُتبت عليه مواجهة جميع الأحداث، منذ إعلاني قيام الثورة إلى خروج الملك من مصر. وقد تسبّب هذا في خلق حساسيات كثيرة بيني وبين زملائي في مجلس قيادة الثورة، خاصّة وأنّني كنت الاسم الوحيد المعروف بينهم لدى الجماهير، نتيجة لنضالي السياسيّ الطويل، وبعد أن خلقت منّي الصحف والمجلّات بطلًا أسطوريًّا في قضيّة مقتل أمين عثمان[13]».

في كلّ حال، لم يتخلّ السادات عن صديقه يوسف رشاد. فغداة الانقلاب، عارض اعتقال طبيب الملك، وقد فعل ذلك بطريقة مسرحيّة،

---

12 أنيس منصور، المرجع السابق، ص. 392-393.

13 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 164.

حسبما يقول بنفسه. فهو وصل إلى اجتماع لمجلس قيادة الثورة حاملًا حقيبة ملابس، وصرّح: «يوسف رشاد هذا الذي تتكلّمون عنه أنا فعلتُ معه كذا وكذا وكذا. عبد الناصر يعلم كلّ التفاصيل. ولذلك إذا اعتقلتم يوسف رشاد، فيجب أن تعتقلوني معه. وأنا على أتمّ استعداد لذلك كما ترون فمعي حقيبة ملابسي![14]» بعد ذلك، ساعد الطبيب السابق للملك على إيجاد وظيفة في القطاع العامّ، وحافظ على اتّصال معه حتّى وفاته، وأمّن له المساعدة المادّية بصورة منتظمة[15].

[14] المرجع نفسه، ص. 167

[15] موسى صبري، المرجع السابق، ص. 686.

7

أباراتشيك[1] في غاية الوداعة

بعدما أصبح أنور من سادة النظام الجديد، بات وزوجته يُدعيان إلى العشاء كلّ مساء في أماكن شتّى. لكنّه كان يصل متأخّرًا دائمًا، وأحيانًا حتّى فيما الآخرون ينصرفون عن المائدة. ذلك أنّ مجلس الثورة في حال انعقاد شبه دائمة. فأعضاؤه التسعة، الآتون من مشارب مختلفة – من الإسلام السياسيّ، أو من الماركسيّة، أو من قوميّة لا صبغة معيّنة لها – يخوضون نقاشات لا تنتهي حول السياسة الواجب اتّباعها والمؤسّسات التي يجب إنشاؤها. «هل يجب أن تبقى مصر ديمقراطيّة أو أن تصبح دكتاتوريّة؟»، طرح جمال عبد الناصر هذا السؤال على رفاقه وطلب تصويتًا. للمفارقة أنّه كان، هو الذي سيصبح لاحقًا السيّد المطلق للبلاد، الوحيد الذي صوّت مع الديمقراطيّة. فيما كان أنور السادات من بين أشدّ المدافعين عن الدكتاتوريّة، باسم «سرعة الإنجاز»، إذ أكّد قائلًا: «الشيء الذي ننجزه بالطريق الديمقراطيّ في سنة، يمكن إنجازه عن طريق الدكتاتوريّة في يوم». بعدما وجد أنّه يشكّل أقلّية، أعلن عبد الناصر أنّه يتنحّى عن رئاسة مجلس قيادة الثورة، لكنّ الآخرين رجوا منه

---

[1] موظّف طيّع في جهاز السلطة.

أن يبقى لأنّ من غير الممكن الاستغناء عنه. ولا شكّ بأنّه دفع إلى هذا التصويت ليبرهن عن ذلك.

كان السادات مقتنعًا بأنّ القائد غير مضطرّ للخضوع لأيّ تصويت. «ما جدوى قضاء ساعات في النقاش؟ هل رأينا في التاريخ ثورة واحدة تُصنع بأكثريّات وأقلّيات؟ الثورة بحاجة إلى قائد واحد[2]». بعد سنواتَ، حين عاد ليتذكّر تلك الحادثة، قال لصديقه المؤتمن على أسراره، أنيس منصور: «لقد حقّق هتلر في ستّ سنوات ما لم تستطع ألمانيا أن تحقّقه في عشرات السنين. وكذلك فعل مصطفى كمال. إذًا، يجب أن يكون الحكم دكتاتوريًّا[3]».

لقد ظلّ أتاتورك واحدًا من أبطاله. لكن، هل كان السادات في العام 1952 معجبًا بسرعة هتلر في الإنجاز شأنه قبل خمسة عشر عامًا؟ سوف يثير الشكوك حول هذه المسألة على أثر مبادرة غريبة منه. ففي أيلول/سبتمبر 1953، وعلى أثر انتشار شائعة حول أنّ الزعيم الألمانيّ لا يزال حيًّا، سألت مجلّة تصدر في القاهرة سبع شخصيّات مصريّة عمّا كانت لتكتبه للدكتاتور العائد من عالم الأموات. ردّ السادات بكتابة نصّ أثار الذهول: «عزيزي هتلر، أنا معجب بك من أعماق قلبي. حتّى ولو بدوتَ مهزومًا، ففي الحقيقة أنت المنتصر. لقد نجحتَ في إحداث شرخ بين تشرشل العجوز وحلفائه، أبناء الشيطان... لقد ارتكبتَ بعض الأخطاء... لكنّ إيمانك بأمّتك عوّض عنها خير تعويض. يمكنك أن تفتخر بأنّك كنتَ قائدًا خالدًا لألمانيا. ولن يفاجئنا أبدًا أن نراك من جديد، أو أن نرى هتلر جديدًا يحلّ محلّك[4]...».

---

2 أحمد بهاء الدين، محاوراتي مع السادات، دار الهلال، 1987، ص. 12.

3 أنيس منصور، المرجع السابق، ص. 414.

4 المصوّر، 18 أيلول/سبتمبر 1953.

لا نجرؤ أن نتناول نصّ تلك الرسالة بحرفيّته. أهو حسٌّ فكاهة غير لائق؟ أم رغبة بالتمايز؟ أم نقص في الثقافة السياسيّة؟ أم عدم وعي؟ لعلّ تلك الأسباب الأربعة اجتمعت معًا...

جوازا سفر لنفيٍ طوعيّ

في أيلول/سبتمبر من العام 1953، تشكّلت «محكمة ثوريّة» للحكم على عدد من السياسيّين المتّهمين بـ«مواصلة العلاقات مع سفارة بريطانيا». وتألّفت هيئة تلك المحكمة التي استندت إلى إجراءات اعتباطيّة تمامًا، من ثلاثة أعضاء من مجلس الثورة، من بينهم السادات. وصدرت أحكام شديدة بالحبس بحقّ ابراهيم عبد الهادي، رئيس الحكومة السابق (وهو من حزب السعديّين)، وفؤاد سراج الدين، وزير الداخليّة السابق (وهو من حزب الوفد)، وابراهيم فرج، الأمين العام المساعد السابق لحزب الوفد.

لكنّنا لا نستطيع القول إنّ السادات قد وجد حقًّا مكانه في الحلقة الحاكمة. فقد كانت شخصيته تثير لدى الآخرين الحذر أو الانزعاج، وأحيانًا عدائيّة سافرة حتّى. فاللواء نجيب مثلًا، والذي أصبح رئيسًا للجمهوريّة في حزيران/يونيو 1953، شنّ ضدّه «حربًا مستمرّة». ويظنّ السادات أنّه عرف السبب: «السبب كان ما سبق أن حكيته عن معرفة الشعب لي بسبب كفاحي وتصوير ذلك لنجيب على أنّ هذه محاولة منّي للتسلّق عليه[5]». الواقع أنّ مَن كان نجيب يخشاه هو عبد الناصر الذي نجح أخيرًا، وبعد كباش طويل، في إزاحته في تشرين الثاني نوفمبر 1954 وفرض الإقامة الجبريّة عليه.

لاحقًا، سوف يطرح السادات هذا السؤال: «فيم إذًا هذا الهجوم والتهكّم والسخرية وكأنّني دخيل يريد أن يسلبهم حقوقهم أو غريب

---

[5] أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 184.

يتكلّم لغة غير لغتهم؟» لكنّه قدّم إجابة غير مقنعة: «كانت الثورة بالنسبة إليّ مختلفة عمّا كانت عليه بالنسبة إلى الآخرين كلّهم... فانسحبت إلى نافذة عالية أطلّ منها عليهم وأضحك على صراعاتهم[6]».

في المنزل، كان السادات يبدو في غاية الاكتئاب. أخذ ينعزل على الشرفة، بصمت، وهو على شفير الانهيار. وذات مساء، أعلن لزوجته أنّه كتب رسالة استقالة، وأضاف: «سنترك البلاد». وشاهدته جيهان والمفاجأة تعقد لسانها يُخرج من سترته جوازَي سفر جديدين، عليهما تأشيرتا خروج، وتذكرتَي سفر إلى لبنان[7]... لكنّ عبد الناصر وعامر أقنعاه بالعدول عن رأيه، وعهدا إليه في كانون الأوّل/ديسمبر 1953 بتأسيس جريدة حكوميّة جديدة وإدارتها، وهي «الجمهوريّة». فكان يوقّع كلّ يوم مقالًا في صفحتها الأولى... غالبًا ما كان بقلم الكاتب يوسف إدريس، إذا ما أردنا تصديق هذا الأخير[8]. أمّا تحيّة عبد الناصر، فقد اعتقدت أنّها تعرّفت في تلك المقالات إلى قلم زوجها، فقالت له: «أنت كاتب هذه المقالات، عرفتُ أسلوبك» فأجابها جمال: «هذا صحيح»، بدون أن يضيف أيّ توضيح آخر.

ومع ذلك، فإنّ السادات كان يحبّ الكتابة، وذلك لا يقتصر على كتابة المقالات فقط. ففي نيسان/أبريل 1954، نشر في إحدى المجلّات الثقافيّة قصة بعنوان «ليلة خسرها الشيطان». وهو يوضح قائلًا: «قبل الثورة كان لي وقت أكثر ممّا هو متاح حاليًّا، فألّفتُ رواية وشرعت في كتابة رواية ثانية». تشكّل القصص الخيالية بالنسبة إليه وسيلة جيّدة للوصول إلى الجمهور، الذي لا صبر له على قراءة المقالات الأدبيّة.

---

6 المرجع نفسه، ص. 173 و179.

7 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 146-147.

8 يوسف إدريس، **البحث عن السادات**، طرابلس (ليبيا)، المنشأة العامة، 1984، ص. 134.

ويشرح أنّ حبّ الكتابة ظهر في طفولته، بفضل القصص التي كانت جدّته ترويها له[9].

في ذلك النصف الأوّل من خمسينيّات القرن الماضي، كان السادات «أكثر الأعضاء الذين يمكن التقرّب إليهم» في مجلس قيادة الثورة، بحسب جان لاكوتور، مراسل جريدة «فرانس سوار» في مصر، والذي رأى فيه شبهًا بدوك إلنغتون: «بوجهه البشوش، الأسمر، ذو الشاربين، وكلمة هالو! الودودة، كان يذكّرني على نحو لا يقاوَم بالموسيقيّ الأميركيّ الشهير[10]».

إنّه رجل مرح، وهذا ما قدّره فيه عبد الحكيم عامر، غير المبالغ في الجدّية مثل عبد الناصر. وقد ربطت بين الرجلين علاقة صداقة. كان السادات يرفّه عن محيطه بالغناء والرقص. لقّبه البعض بـ«الرقّاص»، واعتبروه ودودًا وأنيسًا، باللهجة المصرية، عُرف بأنّ «دمه خفيف».

خلافًا لأعضاء آخرين في مجلس قيادة الثورة عُهد إليهم بحقائب وزاريّة في العام 1953، لم يدخل السادات الحكومة. ولم ينل سوى وزارة دولة في نهاية العام التالي حين تولّى عبد الناصر رئاسة حكومة جديدة، بعدما تخلّص من اللواء نجيب.

عاشت مصر حقبة من الشائعات والمؤامرات. وحُظر تنظيم الإخوان المسلمين الذي اشتُبه في نيّته الاستيلاء على السلطة، فتحوّل إلى العمل السرّيّ. وفي تشرين الأوّل أكتوبر من العام 1954، اتُّهم التنظيم بالإعداد لمحاولة اغتيال ضدّ عبد الناصر باءت بالفشل. وفي الشهر التالي، أعدِم ستّة من أعضائه شنقًا، بعدما حوكموا أمام «محكمة الشعب» التي

---

9 بقلم أنور السادات، قصص أدبيّة ومقالات ثقافيّة، مجموعة نصوص من تقديم خالد عزب وعمرو شلبي، القاهرة، أطلس، 2009.

10 جان كلود غيوبو وجان لاكوتور، *Sont-ils morts pour rien?*، Seuil، باريس، 2010، ص. 108.

تألّفت من ثلاثة أعضاء، من بينهم السادات، الذي تورّط وللمرّة الثانية في مهزلة قضائيّة.

على أثر تلك المحاكمة العاجلة، تلقّت زوجة السادات اليافعة، ولبعض الوقت، اتّصالات هاتفيّة مثيرة للقلق. في أيلول/سبتمبر، ولدت طفلها الأوّل، وكانت فتاة. لا شكّ بأنّ أنور، الوالد لثلاث بنات، كان يأمل بأن يُرزق صبيًّا. لكنّ «لبنى جميلة، إنّها بيضاء البشرة ولها عينان زرقاوان[11]»، كما قال للوالدة بعدما استفاقت من ولادة صعبة.

أضيفت إلى الاتّصالات الهاتفيّة رسائل تهديد مجهولة المصدر. كانت جيهان تخاف على حياة زوجها، برغم وجود حرّاسه الشخصيّين. وبناء على طلبها علّمها قيادة السيّارة، تحسّبًا لاحتمال أن تضطرّ في أحد الأيّام إلى نقله إلى المستشفى على وجه السرعة. وفاجأته مرّة أخرى بالقول: «علّمني كيف أطلق النار» فنظر إليها نظرة ساخرة، لكنّه صحبها يوم الجمعة التالي إلى الصحراء، بالقرب من الأهرام، وأعطاها مسدّسًا صغيرًا وعلّمها كيف تستعمله بعدما وضع علبة من الصفيح في الرمال لتكون هدفًا[12].

السادات، رئيسًا للمؤتمر الإسلاميّ

إبتعد السادات عن مجلس قيادة الثورة. وقال بعد سنوات شارحًا الأمر لأحد أصدقائه الموثوقين، وهو الصحفيّ أحمد بهاء الدين: «لم أكن أتحمّل تلك الاجتماعات التي لا تنتهي. قلت لهم إنّني لن أعود للمشاركة فيها، ومنحت عبد الناصر وكالة للتصرّف بصوتي مهما كان الموضوع[13]. كان الجميع يريد أن يحكم وله طموحات شخصيّة. أمّا أنا فلم أكن

---

11 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 154.

12 المرجع نفسه، ص. 161-162.

13 أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص. 98.

على خلاف مع عبد الناصر لأنّني كنت الوحيد الذي لم يطلب لنفسه شيئًا[14]».

لم يكتفِ السادات بأنّه لم يعارض عبد الناصر قطّ، بل كان دائمًا على اتّفاق معه. واعتادَ التعبير عن ذلك بأن يهتف بكلمة «صحّ»، كلّما عبّر سيّد البلاد عن رأي. وكان عبد الناصر يتسلّى بذلك، حتّى أنّ البعض سمعه يلقّب السادات بشيء من الاحتقار «البكباشي صحّ».

في كانون الثاني/يناير 1955، وجد أنور السادات مكانه أخيرًا، فأصبح أمينًا عامًّا لمنظّمة دوليّة جديدة، هي منظّمة المؤتمر الإسلاميّ، مقرّها القاهرة، ومهمّتها العمل على نشر الإسلام والتعاون بين مختلف الدول الإسلاميّة. أتاح له ذلك المنصب السفر وإقامة علاقات مهمّة جدًّا في الأوساط السياسيّة والفنيّة. وفي المملكة العربيّة السعوديّة على وجه الخصوص، جمعته علاقة بكمال أدهم، الذي سيصبح مستقبلًا رئيس المخابرات في المملكة، والذي اشتُبه حتّى في أنّه يمدّ السادات بدخل ثابت في فترة الستّينيّات[15]. في كلّ حال، كان السادات يتلقّى الهدايا من الملوك أو من رؤساء الدول، وعرف كيف يكون بدوره سخيًّا، فتخلّى مثلًا لعبد الكريم عامر عن سيّارة كاديلاك كان قد تلقّاها هديّةً[16]...

في 26 تمّوز/يوليو 1956، منعه التهاب حادّ في المعدة والأمعاء من مرافقة عبد الناصر إلى الإسكندريّة، حيث كان على هذا الأخير أن يلقي خطابًا لمناسبة الذكرى الرابعة لتنازل فاروق عن السلطة. «أصغِ إلى ما سأقوله عبر الإذاعة»، قال له بشكل مبهم الرئيس الجديد للجمهوريّة. وبالفعل فقد تلقّى السادات عبر الأثير – مذهولًا، شأنه شأن الجميع – خبر تأميم الشركة العالميّة لقناة السويس.

---

14 المرجع نفسه، ص. 12.

15 وفقًا لجريدة واشنطن بوست عدد 24 شباط/فبراير 1977.

16 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 46.

جاءت تلك الخطوة ردًّا من عبد الناصر على الولايات المتّحدة، التي أرادت معاقبته على شراء أسلحة من دول الكتلة الشرقيّة، فمنعت البنك الدوليّ من تمويل مشروع بناء السدّ العالي في أسوان، لكنّه قال للجماهير التي أخذتها النشوة: «عائدات القناة هي التي ستموّل مشروع السدّ». كانت تلك لعبة مراهنة، فهل سيقبل البريطانيّون والفرنسيّون الذين يملكون غالبيّة أسهم الشركة بهذا الأمر الواقع؟ بعد ثلاثة أشهر، تعرّضت مصر لـ«عدوان ثلاثيّ جبان»، حين قامت وحدات عسكريّة بريطانيّة وفرنسيّة، متحالفةً سرًّا مع القوّات الإسرائيليّة التي بادرت إلى الهجوم، بمحاولة استعادة القناة بالقوّة. كان تحقيق ذلك ليكون سهلًا لولا أنّ البيت الأبيض أوقفها، بضغط من الكرملين. والواقع أنّ الاتّحاد السوفياتيّ بلغ به الأمر بأن هدّد بإشعال حرب نوويّة، وهو ما سمح له بتحويل الأنظار عن تدخّله العسكريّ في بودابست...

بنجاته في اللحظة الأخيرة من هزيمة ساحقة كانت ستطيح نظامه بلا شكّ، تحوّل عبد الناصر بين ليلة وضحاها إلى بطل العالم العربيّ. سيقول السادات بعد سنوات إنّ عبد الناصر وبتأميمه قناة السويس – التي كانت ملكيّتها ستعود إلى مصر في العام 1968 بجميع الأحوال، بانتهاء مفعول عقد تأجير مدّته 99 عامًا – قد لعب بالنار، وأنّه ارتكب خطأً فادحًا حين نسب إلى السوفيات، لا إلى الأميركيّين، الفضل في «جعل هزيمتنا تنقلب إلى نصر»[17]، وأنّه لو سأله رأيه، لنصحه بأن يكون حذرًا. لكنّ ذلك جاء في الرواية الثانية. أمّا آنذاك، فالزمن كان زمن كيل المديح للرئيس[18]، الذي عشقته الجماهير من المحيط الأطلسيّ إلى الخليج العربيّ.

---

[17] أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 209-216.

[18] ويُقال له بالعاميّة المصريّة «ريّس».

في أثناء تلك الأحداث لجأت جيهان، التي كانت حاملًا في شهرها السادس، إلى منزل ذويها في الريف، على مسافة ساعتين من القاهرة. وبدأت فجأة تعاني آلامًا تنذر بولادة قبل أوانها. أصابها الهلع، فما من عيادات طبيّة في المنطقة، كما أنّ المستشفيات القليلة امتلأت بالجنود الجرحى. تبلّغ أنور بالأمر هاتفيًّا، فاتّصل بطبيب ولادة مشهور هو الدكتور مجدي ابراهيم، الذي أشرف قبل أربع سنوات على ولادة ابن الملك فاروق. مضى الطبيب بسيّارته توًّا، يرافقه سائق وممرّضة، وبحوزته المعدّات اللازمة. بالرغم من منع التجوّل والحواجز العسكريّة، تمكّنوا من الوصول في الوقت المناسب، ووضعت جيهان طفلًا نما نموًّا طبيعيًّا بعدما قضى بعض الوقت في حاضنة، وحرص والده على أن يطلق عليه اسم البطل الجديد للعالم العربيّ: جمال.

نعم لجمال، أمّا زنوبيا فلا!

ما كان السادات ليتردّد حين يصدر عبد الناصر أمرًا، في التضحية ببرودة حتّى بأحد أقرب معاونيه إذا ما اقتضى الأمر. وفي العام 1957، كان الكاتب يوسف إدريس، أحد مساعديه في منظّمة المؤتمر الإسلاميّ، هو مَن دفع الثمن، وبطريقة تكاد تكون كوميديّة، إذ ما كاد يُوظَّف في جريدة الأهرام حتّى نشر مقابلة مع السادات، أوحت أقوال هذا الأخير فيها بأنّ المؤسّسات مفتوحة أمام الجميع، بمن فيهم الشيوعيّون. أثارت تلك المقابلة سخط عبد الناصر الذي سارع إلى الإيعاز إلى الجريدة بصرف إدريس. مضى الكاتب مسرعًا إلى مقرّ المؤتمر الإسلاميّ، ليجد على الباب إعلانًا بأسماء خمسة أشخاص مطرودين، ومن بينهم اسمه، فدخل إلى مكتب السادات وسأله: «ما هذه الحكاية؟ هل أنا مطرود أيضًا من المؤتمر الإسلاميّ؟». أجابه الآخر بهدوء: «أنا مَن طردك يا يوسف...».

لم يصدّق يوسف أذنيه، فقبل ليلتين تناول العشاء مع السادات، الذي أظهر سروره بالمقابلة الصحفيّة. اعترض الكاتب قائلًا: «لا يحقّ لك طردي. يمكنك فقط إلغاء أمر نقلي». تظاهر السادات بالدهشة وقال: «أمر نقلك؟ أيّ نقل؟ أين تعمل؟» برغم أنّه يعرف تمامًا أنّ إدريس موظّف في وزارة الصحّة، لأنّه هو نفسه مَن كان طلب نقله إلى منظّمة المؤتمر الإسلاميّ. وعندما ذكّره إدريس بذلك، قهقه السادات وقال: «أنت مصروف أيضًا من وزارة الصحّة». ظنّ إدريس أنّ السادات يمزح، فسارع إلى الوزارة ليجد أنّ الأمر ليس دعابة، بل هو مصروف فعلًا[19]...

بعد المؤتمر الإسلاميّ، بدأ السادات يتبوّأ المناصب المختلفة في أجهزة السلطة، والتي لا نفوذ فعليًّا لها. في العام 1957، انتُخب مجلس للأمّة يخضع تمامًا للسلطة، واقترح عليه عبد الناصر رئاسة ذلك المجلس، الأمر الذي قبله السادات بسرور. لكنّ الرئيس عاد عن قراره بعد يومين وعيّن في ذلك المنصب أحد الضبّاط الأحرار، وهو عبد اللطيف البغداديّ. لم يفهم السادات هذا الانقلاب في الموقف، والذي سبّب له جرحًا في الصميم، لكنّ ذلك لم يمنعه من القبول بتجرّع إهانة جديدة بدون أيّ اعتراض. ولمّا كانت نيابة رئيس مجلس الأمّة لا تثير اهتمام أحد من أفراد مجلس قيادة الثورة القديم، طلب منه عبد الناصر أن يشغل ذلك المنصب القليل الأهمّية. إمتثل السادات، مبتلعًا عاره: أليس هو المستعد للقيام بأيّ عمل رسميّ «ما دام من أجل مصلحة مصر»[20]؟

برغم كون مسألة قناة السويس مصريّة بحتةً، إلّا أنّها جعلت من عبد الناصر بطل العالم العربيّ. من نواكشوط إلى بغداد، ومن الرباط إلى صنعاء، بات العرب يحلمون بالوحدة. واتّجهت كلّ الأنظار إلى القاهرة التي بدت العاصمة الطبيعيّة لتلك الأمّة التي بدأت ملامحها الأولى

---

[19] رشاد كامل، ذكريات يوسف إدريس، القاهرة، 1991.

[20] أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 219.

تتشكّل. تمّ القيام بالخطوة الأولى في كانون الأوّل/ديسمبر من العام 1958 مع ولادة الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، التي رافقت الاحتفال بها نشوة عارمة. فقد باتت مصر وسوريا بلدًا واحدًا، في انتظار أن تنضمّ إليهما بلدان أخرى. كان من البديهيّ أن يتولّى عبد الناصر رئاسة هذه الدولة الجديدة. أمضى هذا الأخير أسبوعًا في دمشق وسط هتافات التهليل الملتهبة حماسًا والتي صدحت بها حناجر السوريّين. ومن شرفة القصر الرئاسيّ حيث أقام مع الرئيس، قرأ السادات نصّ الدستور المؤقّت، الذي قوطعت كلّ جملة منه بالتصفيق الحادّ. كما كانت الحال في 23 تمّوز/يوليو 1952، أعار السادات صوته لكتابة صفحة من صفحات التاريخ. وها هو من جديد، تحت الأضواء، من دون أن يكون الصانع الرئيسيّ للحدث.

في رحلة العودة بالطائرة، سمع عبر جهاز اللاسلكيّ عبارة «مبروك! رُزقتَ فتاة». ولدى وصوله إلى القاهرة، مضى مسرعًا إلى مستشفى الولادات، وقال لجيهان إنّه يريد تسمية ابنتهما – وهي الثالثة في الترتيب – زنوبيا. حملقت فيه جيهان بعينين مشدوهتين، فشرح يقول لها إنّ زنوبيا ملكة تدمر جمعت في القرن الثالث مصر وسوريا في بلد واحد. وتشبّث برأيه برغم اعتراض جيهان، لكنّ تحيّة، زوجة عبد الناصر، والتي أتت لعيادتها في المستشفى تبنّت رأيها ودافعت عنه، راويةً القصّة لزوجها الذي وجد في الأمر بعض التسلية، قبل أن يتدخّل لإقناع أنور بتغيير رأيه. في النهاية، أُطلق على الفتاة اسم «نهى»، التي لا تعني «الوحدة»، بل «العقول»[21].

---

[21] جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 179.

السادات يزوّج ابنته وهي بعد في الثالثة عشرة

كانت عائلتا عبد الناصر والسادات تتبادلان الدعوات إلى العشاء أحيانًا. وبدت تحيّة مختلفة جدًّا عن جيهان، فهي «خجولة ومتواضعة جدًّا، ونادرًا ما تتحدّث في أثناء الطعام. وكانت العلاقة بينها وبين زوجها رسميّة وتقليديّة، فلم تكن تخاطبه أبدًا باسمه، بل دائمًا بالريّس، حتّى أمامنا[22]». وفي الصيف، درجت عائلة السادات على السكن في منزل خُصِّص لها على شاطئ المعمورة الرائع، على أطراف الإسكندريّة، حيث كانت عائلة عبد الناصر تزورها زيارة الجيران للجيران، فيلعب الرجلان لعبة الطاولة، فيما تتنزّه النساء في الحديقة.

في القاهرة، تركت عائلة السادات منزلها في الروضة بعدما ضاق عليها، واستأجرت منزلًا له حديقة واسعة، على طريق الأهرامات. كان ذلك المنزل محاذيًا لأراضٍ زراعيّة، يعبق فيه هواء الريف، ولهذا السبب اختاره أنور. كان ذلك البناء المتداعي ملكًا للسينمائيّ توغو مزراحي، وهو يهوديّ من أصل إيطاليّ، شارك في أفلام كثيرة إخراجًا أو إنتاجًا أو تمثيلًا حتّى رحيله عن مصر في العام 1948. بدأت أعمال ترميم المنزل، وراحت جيهان تدور على صالات العرض ومزادات حيّ العطّارين في الإسكندريّة، حيث كانت تعثر بثمن زهيد جدًّا على أثاث وأشياء ذات قيمة كانت ملكًا لفرنسيّين أو بريطانيّين أو يهود طُردوا من مصر بعد حرب السويس. وتقول عن ذلك: «ما لم أستطع استخدامه وقتها قمت بتخزينه في البدروم الكبير من أجل الأولاد عند زواجهم[23]».

إنتقلت غلاديس، والدة جيهان للعيش معهم. ويبدو أنّ السادات حاول استقدام والدته، لكنّ ستّ البريّن شعرت بالضيق في هذا

---

22. المرجع نفسه، ص. 162.
23. المرجع نفسه، ص. 178.

المحيط، وفضّلت أن تسكن شقّة في حيّ القبّة. وفي 12 كانون الأوّل/ ديسمبر 1958، زارها السادات ووجدها تصغي إلى مسرحيّة عبر الإذاعة. نهضت لتعدّ له القهوة أو لدخول الحمّام، لكنّها سقطت بغتة أرضًا بعدما أصابتها أزمة قلبيّة، وماتت بين ذراعيه تقريبًا. أقيمت جنازتها في القرية، بحضور عبد الناصر.

بعد أسابيع قليلة، قرّر السادات أن يأتي إلى منزله بابنتين من زواجه الأوّل، وهما راوية، ثلاثة عشر عامًا، وكاميليا، عشرة أعوام. وطلب من زوجته الأولى العودة إلى ميت أبو الكوم، عارضًا عليها بناء منزل لها، لكنّها رفضت مفضّلة البقاء في القاهرة قريبة من ابنتيها. إشتدّ الخلاف بين الطليقين، فقطع عنها النفقة، كما سبق له أن فعل ذات مرّة في العام 1951، للسبب عينه كما يبدو، قبل أن يرغمه رئيسه على الإذعان[24].

تؤكّد جيهان قائلة: «عاشت راوية وكاميليا معنا عامين، وأحبّ أبنائي أختيهما الجديدتين، وشعروا بافتقادهم لهما جدًّا عندما تزوّجتا وانتقلتا من منزلنا في أكتوبر 1961[25]». لكنّ ذلك لا يطابق تمامًا ما روته كاميليا، التي انتقلت بعدما بلغت سنّ الرشد للدراسة الجامعيّة في الولايات المتّحدة، وقالت إنّ التعايش كان صعبًا، حتّى وضع له حدًّا زواج مزدوج. فقد قرّر أنور السادات تزويج ابنتيه في وقت واحد، واقترنت كلّ منهما بضابط لم تختره، ويكبرها بسبعة عشر عامًا. أقيم حفل القران في 10 تشرين الأوّل/أكتوبر 1961، بدون موسيقى ولا رقص، لأنّ الوحدة السوريّة المصريّة التي نشأت قبل ثلاثة أعوام كانت قد انتهت قبل فترة وجيزة. برغم ذلك حضر الزفاف أهمّ شخصيّتين في الدولة، أي عبد الناصر وعبد الكريم عامر، لكنّ والدة العروسين لم تحضره.

---

24 كاميليا السادات، المرجع السابق، ص. 25-39.

25 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 184.

لم تكن كاميليا قد بلغت الثالثة عشرة حتّى، لكنّ السادات أكّد أنّ شهادة ميلادها غير موجودة. ووافق الشاهدان، عبد الناصر وعامر، على التصريح بأنّ لها من العمر ستّة عشر عامًا، وهي السنّ القانونيّة للزواج. ويبدو أنّ ذلك قد أثار غضب زوجة عبد الناصر. قالت كاميليا فيما بعد: «دمّر هذا الزواج طفولتي تمامًا[26]». لم يخبر أحد الفتاة بما ينتظرها في ليلة عرسها. في الصباح التالي جاء والدها لزيارة العروسين. كانت التقاليد تقضي بأنّ الزوج يستطيع إعادة زوجته إلى ذويها إذا اكتشفها أنّها ليست عذراء. لكنّ السادات أتى فقط ليقدّم لابنته مئة جنيه مصريّ، إضافة إلى هديّتين أخريين بالقيمة عينها، «من عمّك جمال (عبد الناصر)، وعمّك حكيم (عامر)».

ذلك الزواج المزدوج، والذي انتهى بطلاق مزدوج، يوضح طبيعة أنور السادات المحافظة وتمسّكه بالتقاليد. وقد يقول المرء إنّه أراد أن يزوّج بأسرع وقت ممكن مراهقتين يسبّب وجودهما إزعاجًا له، من غير كبير اهتمام بشخصيّتَي السيّدين اللذين يسلّمهما الفتاتين. هل كان لجيهان – وهي الأمّ الحريصة والعصريّة والشديدة الاهتمام بحقوق النساء ونهضتهنّ، كما ستثبت ذلك لاحقًا – رأي في الأمر؟ إنّها تؤكّد اليوم قائلة: «لم يرغم أحد كاميليا السادات على الزواج. كان ذلك خيارها. وفي تلك الحقبة، كانت المصريّات يتزوّجن في سنّ مبكرة جدًّا. أنا نفسي كان لي من العمر خمسة عشر عامًا حين تزوّجتُ بأنور السادات[27]».

---

26 مقابلة مع كاميليا السادات على قناة دريم تي.في المصريّة بتاريخ 8 كانون الثاني/يناير 2006.

27 ردّ على الكاتب في آذار/مارس 2013.

القلب يرسل إشارة إنذار

لا يكفي السير في خطى عبد الناصر والموافقة على كلّ ما يقوله لضمان علاقات هادئة معه. فالرئيس رجل شديد الحساسيّة ومبالغ في الحذر والشكّ، ونوبات غضبه هي موضع خشية. هل كان هو سبب الأزمة القلبيّة التي تعرّض لها أنور السادات في 15 أيّار/مايو سنة 1960، بعد تعيين ضابط آخر من الضبّاط الأحرار وهو كمال الدين حسين، رئيسًا لمجلس الأمّة؟ يشرح السادات قائلًا: «شعرتُ أنّ عبد الناصر قد بدأ يأخذ موقفًا منّي، ربّما نتيجة لوشايات مغرضة وصلته[28]».

وهكذا اكتشف السادات، وهو لم يبلغ الثانية والأربعين من العمر بعد، أنّ قلبه ضعيف. نصحه الأطبّاء بالراحة القصوى، وبعد فترة نقاهة قضاها في بادنهايم في ألمانيا الغربيّة، بصحبة زوجته، أخذ بتغيير عاداته. فبدأ يمارس تمارين الاسترخاء، مستلقيا أرضًا في غرفته، وعيناه يغطّيهما وشاح. وكانت ابنتاه الصغيرتان تقاطعان تلك التمارين بجلوسهما القرفصاء فوق صدره لتلعبا لعبة الحصان... وبدأ يمارس رياضة المشي يوميًّا، كما تحوّل عن تدخين السجائر إلى الغليون، معتمدًا التبغ الأميركيّ «كابتن بلاك».

في الفترة عينها تقريبًا، علم عبد الناصر أيضًا أنّه مصاب بالسكّريّ. ساهمت مخاوف كلّ منهما الصحّية في تبديد السحابة التي كدّرت علاقتهما مؤقّتًا. وبناء على طلب الرئيس، قبِل السادات بانتخابه رئيسًا لمجلس الأمّة الاتّحاديّ بين إقليمَي الجمهوريّة العربيّة المتّحدة في صيف 1960. كان ذلك اللقب طنّانًا لكنّه يمنحه سلطة أقلّ بكثير من سلطة عبد الكريم عامر الذي عُيّن قائدًا للجيشين المصريّ والسوريّ برتبة مشير، إضافة إلى منصب نائبٍ لرئيس الجمهوريّة العربيّة المتّحدة.

---

[28] أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 226.

لكنّ ذلك كلّه ذهب أدراج الرياح في العام التالي عندما انتفض السوريّون ضدّ النظام البوليسيّ وتأميم اقتصادهم، فوضعوا حدًّا للوحدة. حوصر المشير عامر في منزله في دمشق، ثمّ وُضع بالقوّة في طائرة وطُرد من سوريا، بينما نجا السادات الذي كان في القاهرة من هذا الإذلال. وواقع الحال أنّه ما كان إلّا لاعبًا ثانويًّا جدًّا في تلك الوحدة التي وُلدت ميتة.

لكنّ هذا الوصف لا ينطبق على المغامرة الجديدة التي تورّط فيها النظام الناصريّ. فالسادات كان من أشدّ مناصري التدخّل العسكريّ في اليمن، حيث أطاح ضبّاط بالإمام البدر في 26 أيلول/سبتمبر 1962. وسرعان ما نزل في اليمن جنود مصريّون لمناصرة النظام الجديد، فيما هبّت المملكة العربيّة السعوديّة لنجدة الموالين للملكيّة. غرق اليمن في الحرب الأهليّة، وتحوّل إلى ما يشبه فييتنام بالنسبة إلى عبد الناصر. فقد انغمست قوّاته التي تزايدت أعدادها (حتّى بلغت 70 ألف رجل) في اليمن لمدّة خمس سنوات. في النهاية أقيمت الجمهوريّة، لكن بأيّ ثمن! كلّفت تلك المغامرة ثروة طائلة وحطّت من صورة مصر في العالم العربيّ. ويقول السادات شارحًا في مذكّراته: «كنت أنا المسؤول عن الجانب السياسيّ في الثورة اليمنيّة، وكان عامر هو طبعًا المسؤول عن الناحية العسكريّة، ولكنّه كعادته أساء التصرّف[29]». والأسوأ من ذلك، أنّ السادات اتّهم المشير بأنّه استفاد من حرب اليمن «لينشر نفوذه» ويصبح «مركز القوّة الأوّل في مصر». وبسببه تحوّلت هذه «الضربة السياسيّة التي لا بدّ منها» إلى كارثة.

[29] المرجع نفسه، ص. 237.

8

في ظلّ عبد الناصر

يعترف السادات في مذكّراته قائلًا: «بانتهاء الخمسينات ودخول الستينات، بدأت الثورة فترة المعاناة والآلام والهزائم والنكسات والأخطاء البشعة من جانبنا». لكنّ ضمير «نا» هنا يعني الآخرين، أي أعضاء مجلس قيادة الثورة القديم، الذين وعلى عكسه، كانوا ذوي مطامع، ويتصارعون ويكنّون لعبد الناصر «كمّية هائلة من الحقد[1]». أمّا هو فلا يملي عليه أفعاله إلّا المصلحة العامّة ويعتبر أن لا مكان له في «عالم خالٍ من الحبّ». ومع ذلك، ظلّ يشغل مناصب أساسيّة على قمّة هذه الدولة المتسلّطة التي يدركها الإفلاس، وتتجسّس على مواطنيها، وتعتقل معارضيها وتذيقهم ألوان التعذيب في السجون.

في تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1961، عهد إليه عبد الناصر بالأمانة العامّة للجنة مؤلّفة من مئتي عضو، مكلّفة رسميًّا بتحديد أهداف الثورة. سيعترف السادات لاحقًا إنّها كانت «خدعة»، الهدف منها «امتصاص غضب الناس[2]». ثمّ، وفي إطار أكثر جدّية، أصبح في

---

1 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 225.

2 المرجع نفسه، ص. 235.

آذار/مارس 1964 رئيسًا لمجلس الأمّة أخيرًا. لكنّ تلك الألقاب الطنّانة لا تعني أنّه كان يمسك بمقابض السلطة، فهي في الجوهر وظائف تمثيليّة، تحجب السلطة الحقيقيّة المجمّعة كلّيًا بين يدَي عبد الناصر. وقد عهد هذا الأخير بدور نيابة رئيس الجمهوريّة إلى رفاقه القدامى في مجلس قيادة الثورة، الواحد تلو الآخر. فالسادات مثلًا شغل هذا المنصب... أربعًا وعشرين ساعة، حين عُيِّن فيه عشيّة تعيينه رئيسًا لمجلس الأمّة.

واصل «البكباشي صحّ» الموافقة على كلّ ما يقوله سيّد البلاد أو يفعله في شتّى الظروف. وفي العام 1965، نشر مديحًا حقيقيًّا للرئيس بعنوان «يا ولدي، هذا عمّك جمال» حيث يذكّر ابنه الذَكَر الوحيد، وعمره تسعة أعوام، بأنّه سمّاه على اسم الرجل العظيم، «صديقي، ورئيسي، الذي أحبّه وأحترمه منذ أن كنّا ضابطين صغيرين في العام 1938». ويصفه بأنّه كائن استثنائيّ، لا يناضل من أجل مصر فقط، بل من أجل البشريّة كلّها. «عبد الناصر يحاسب نفسه دائمًا أقسى وأعنف حساب، في الوقت الذي يتلمّس فيه لغيره كلّ أبواب العفو والغفران». لا شكّ بأنّ تكريم السيّد المطلق لمصر كان أمرًا لائقًا آنذاك، ولم يشذّ أحد عن تلك القاعدة، لكنّ شيئًا لم يرغم السادات على أن يبلغ هذا الحدّ من التزلّف.

الإنجاز الأهمّ في تلك السنوات كان بناء السدّ العالي في أسوان، وهو أحد أضخم السدود في العالم. فقد أتاح التحكّم بفيضانات نهر النيل، والاحتفاظ بكميّة من المياه من أجل الزراعة وتوليد الكهرباء. وقد كان من الضروريّ تلبية حاجات الصناعة والنموّ السكّانيّ الهائل، وذلك على حساب صحراء النوبة التي تمّ إغراقها بعد نقل سكّانها إلى مسافة أبعد شمالًا.

إشتعلت وسائل إعلام العالم كلّه حماسة لتغطية عمليّة خاطفة للأبصار، جرت برعاية منظّمة اليونيسكو، لنقل بعض الآثار التاريخيّة

الرائعة كمعبد «أبو سنبل» الذي فُكِّك إلى قطع ليعاد بناؤه على إحدى الهضاب.

وأتى خروتشيف لتدشين الجزء الأوّل من الأعمال في أيّار/مايو من العام 1964، لكنّه ما لبث أن أزيح عن السلطة في الاتّحاد السوفياتيّ. كان ذلك خبرًا سيّئًا بالنسبة إلى محاوريه المصريّين، الذين رأوا في الوقت عينه الرئيس ليندون جونسون يقطع عنهم إمدادات القمح الأميركيّ. رافق السادات عبد الناصر إلى موسكو في أيلول/سبتمبر 1965 ليطلبا من القادة السوفيات الجدد مساعدات إضافيّة. وافق الاتّحاد السوفياتي على عدّة مطالب، ومن بينها تأجيل سداد نصف الديون المصريّة.

بعد موسكو، إلى واشنطن. ففي شباط/فبراير من العام 1966، قام أنور السادات بصفته رئيسًا لمجلس الأمّة بزيارة رسميّة إلى الولايات المتّحدة، ترافقه زوجته. لا تأتي جيهان على ذكر تلك الزيارة في مذكّراتها، أمّا هو فيمرّ عليها سريعًا، مشيرًا خصوصًا إلى شعوره بالانزعاج من هجوم عنيف شنّه عبد الناصر على الأميركيّين عشيّة وصوله إلى واشنطن. وكأنّ الريّس أراد نسف الزيارة التي كان قد شجّع على إتمامها[3]. شملت زيارة السادات سانْ فرانسيسكو، مكتشفًا هذا البلد الذي سحره، شأنه شأن كثير من المصريّين. وبحسب مايكل سترنر، الموظّف في وزارة الخارجيّة الأميركيّة، والمُكلّف بمرافقته في خلال إقامته، فقد وجده الأميركيّون «لطيفًا، وودودًا، وذا فكاهة، ومنفتحًا، ومحبًّا للدعابة». أمّا هو فقد أثارت الولايات المتّحدة إعجابه كثيرًا[4]. ولا شكّ بأنّه بدأ يحلم مذذاك بإدارة الظهر للأخ السوفياتيّ الأكبر للارتماء في أحضان العمّ سام.

---

3 المرجع نفسه، ص. 243-244.

4 أقوال مايكل سترنر وجيهان السادات لكيركْ بيتي، *Egypt during the Sadat Years*، نيويورك، Palgrave، 2000، ص. 30.

وفي شأن تلك الزيارة، يؤكّد هيكل أنّ السادات «ألمح إلى أنّ بدل السفر الرسميّ الذي تقاضاه كان أقلّ ممّا ينبغي»، فنال «أتعابًا إضافيّة» بقيمة خمسة وثلاثين ألف دولار قدّمها إليه وزير داخليّة كويتيّ سابق، وهو الشيخ المبارك الصباح، الذي أتى للإقامة في القاهرة بعد خلاف بينه وبين العائلة الحاكمة. وحين علم عبد الناصر بأمر تلك الهديّة، أمر السادات بإعادة الشيك إلى الشيخ، بعدما أودعت نسخة منه في ملفّات المخابرات[5].

حرب لم تدُم سوى ستّ ساعات

الحقيقة أنّ الرئيس كانت له مصادر قلق أخرى، وأخطر بكثير. فالشرق الأوسط قد دخل في حالة من التوتّر المتفاقم، ودخلت منظّمتان فلسطينيّتان متنافستان، هما الصاعقة ومركزها دمشق، وفتح ومقرّها عمّان، في مزايدات كلاميّة، وقامتا بأعمال تخريبيّة في داخل إسرائيل. من جهتها، لم تكن سوريا، حيث سيطر الجناح اليساريّ في حزب البعث على السلطة، بمنأى عن الخطر. فقد ارتفعت لهجة التهديد في تل أبيب التي توعّدت دمشق بالانتقام. أراد عبد الناصر المحافظة على زعامته للعالم العربيّ، فرفع بدوره الصوت عاليًا. وتضاعفت أعمال العنف، ففي 6 نيسان/أبريل 1967، أسقِطت ستّ مقاتلات ميغ سوريّة فوق دمشق، في حين كانت مصر وسوريا مرتبطتين بميثاق دفاع مشترك.

ألهبت المشاعر القوميّة العالم العربيّ، وغنّت أمّ كلثوم «راجعين بقوّة السلاح»، كما قدّمت إلى الحكومة المصريّة كلّ مداخيل حفلاتها الغنائيّة. وشأن كثيرات من سيّدات القاهرة، تبرّعت جيهان السادات بخواتم خطوبتها وزفافها. كما اتّصلت هاتفيًّا بصديقاتها، وزوجات

---

5 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 48.

السفراء العرب، ومسؤولات المنظّمات النسائيّة، ومضين إلى القصر العينيّ للتبرّع بالدم[6].

في نهاية أيّار/مايو، استشار عبد الناصر اللجنة التنفيذيّة العليا، المؤلّفة من ستّة أعضاء، ومن بينهم السادات، وسألهم إن كان يجب إغلاق مضيق تيران أمام السفن الإسرائيليّة، وهو الذي يسمح لها بالوصول إلى البحر الأحمر. وحده رئيس الوزراء صدقي سليمان رفض ذلك، ونصح بالحذر. لكنّ قائد الجيش عبد الحكيم عامر أكّد أنّ القوّات المصريّة جاهزة. وتحت ضغوط جميع الجهات - من سوريّين وفلسطينيّين وسوفيات، ومن محيطه الخاصّ حتّى - قام عبد الناصر بمبادرتين متتاليتين لم يحسب لعواقبهما حسابًا. فقد طلب من الأمم المتّحدة انسحاب جنودها المعروفين بـ«القبّعات الزرق»، والمتمركزين منذ العام 1956 على الحدود الإسرائيليّة المصريّة، وقرّر إغلاق مضيق تيران.

في صباح 5 حزيران/يونيو، علم أنور السادات عبر الإذاعة بأنّ الإسرائيليّين شنّوا هجومًا على مصر. فقال في نفسه إنّهم «سيتعلّمون درسًا لن ينسوه مدى الحياة. كانت ثقتي بالنصر أكيدة، فعدّتنا أكثر من كافية والخطّة محكمة للغاية[7]». ولم تتأخّر الإذاعة في نقل أخبار انتصارات الدفاع الوطنيّ، فوصفت الطائرات العدوّة بأنّها تتساقط كالذباب. عند نحو الساعة الحادية عشرة، ذهب السادات إلى مقرّ القيادة. وهناك ذُهل حين علم بأنّ سلاح الطيران المصريّ «قد ضُرب بأكمله تقريبًا وهو على الأرض».

وفي خلال الأيّام الثلاثة التالية لازم منزله كاظمًا غيظه، وامتدّت رياضة المشي اليوميّة التي يمارسها لساعات. يصف حالته في تلك الأيّام قائلًا: «استولى عليّ ذهول غريب لم أعد أستطيع معه أن أتبيّن

---

6 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 237.

7 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 254.

الزمن أو المسافات أو حتّى المكان نفسه في بعض الأحيان[8]». في شارع الهرم، كان يلتقي بمجموعات من أبناء الشعب متراصّين في الشاحنات يتّجهون إلى وسط القاهرة وهم يهتفون ويهلّلون ويرقصون فرحًا بالنصر المزعوم...

في الثامن من حزيران/يونيو، أبلغه عبد الناصر عبر الهاتف أنّ «الوضع قد انتهى، فقوّات إسرائيل في طريقها إلى القنطرة بعد أن احتلّت العريش، وأنّ الفرقة الرابعة المدرّعة، وهي أفضل الفرق في الجيش المصريّ، قد دُمّرت تمامًا».

في اليوم التالي، أعلنت الإذاعة أنّ الإسرائيليّين عبروا قناة السويس. كان ذلك أعظم من أن يتحمّله السادات الذي استفاقت فيه ردّات فعل الشباب. «قمتُ للتوّ وارتديت زيّ المقاومة الشعبيّة وأخذت بندقيّتي ذات التلسكوب وركبت عربة فيات صغيرة كنت قد استعرتها من المخابرات ومضيت لأحارب معركتي – فقد كان من الأشرف لي أن أموت وأنا أقاتل العدوّ من أن أقبع في داري بلا عمل[9]». وبصفته رئيسًا لمجلس الأمّة، طلب من جميع النوّاب الذين لهم ثقافة عسكريّة بأن يجمع كلّ واحد منهم مائة إلى مئتي رجل، كلٌّ في دائرته وأن يقوم بتجهيزهم لمقاومة الإسرائيليّين في المكان الذي يحدّده لهم.

ويتابع السادات روايته قائلًا إنّه مضى إلى مكتب عبد الناصر في منشيّة البكري، وحضّه على مغادرة القاهرة: «يجب أن تذهب إلى الصعيد يا جمال، فنحن سننظّم المقاومة من هناك». نظر إليه الرئيس من دون أن يردّ، ودعاه إلى الجلوس. ثمّ قال له إنّ بيان القيادة فارغ، وإنّ الإسرائيليّين لم يعبروا قناة السويس، كما لا نيّة لهم بذلك. لقد

---

8 المرجع نفسه، ص. 256.

9 المرجع نفسه، ص. 259-261.

انتهى كلّ شيء منذ البداية: فحرب الأيّام الستّة لم تكن سوى حرب ساعات ستٍّ...

مكسورًا، توجّه عبد الناصر بكلمة إلى المصريّين، اعترف في خلالها بالمسؤوليّة الكاملة عن الكارثة التي حلّت، وأعلن استقالته، معيّنًا مكانه زكريا محيي الدين، الذي يمثّل الجناح اليمينيّ الموالي للأميركيّين بداخل النظام. لكنّ الشعب المصريّ رفض ذلك، وسرعان ما تدفّقت الجماهير إلى الشوارع راجية منه البقاء، وهي تهتف «لا لزكريا! لا للدولار! لا للإمبرياليّة!». وافق عبد الناصر على البقاء في السلطة، لكنّ تلك الهزيمة الساحقة شكّلت موته السياسيّ. مع ذلك، يقول السادات بوقاحة «إقتنع جمال فردّ عليّ بالموافقة[10]».

عبد الناصر يفقد أقرب أصدقائه

تابعت جيهان السادات، وهي في زيّ الممرّضات، خطاب الرئيس على شاشة تلفزيون في أحد مستشفيات القاهرة، حيث كانت تقوم بمعالجة الجنود المصابين. وفي نهاية الخطاب سمعت جلبة كبيرة، فقد خرج سكّان الحيّ، وبعضهم في ثياب النوم، إلى الشوارع وهم يصيحون «ناصر ناصر!». وفي اليوم التالي، سارت زوجة السادات على رأس موكب من مئات النساء بزيّ الممرّضات، متّجهات إلى البرلمان وهنّ يهتفن: «إبقَ يا ناصر، إبقَ يا ناصر!». وأمام فندق هيلتون، ردّتهنّ قوّات الشرطة بخراطيم المياه. «وقعت على الأرض من شدّتها وغطاء رأس إحدى زميلاتي إلى جواري، وأخذنا نضحك بصوت عال ونحن نحاول البحث عن غطاء رأسها. وحين وصلت إلى منزلي جلست مبلّلة في المطبخ أستمع

---

[10] المرجع نفسه، ص. 265.

إلى الأخبار من خلال الراديو. وبعد قليل سمعتُ ما كنت أتمنّاه، وهو عدول عبد الناصر عن الاستقالة. وكان أنور مَن يقرأ رسالة ناصر[11]».

من جديد أنور! دائمًا أنور! إذا كان الجميع يتّفقون على أنّ دورًا ما كان له منذ 23 تمّوز/يوليو 1952، فهو دور المذيع، بالمعنى الضيّق للتعبير: فهو يقرأ النصوص التاريخيّة التي يكتبها الآخرون.

مهما يكن من أمر، فقد أصبح السادات واعتبارًا من تلك اللحظة رفيقًا حقيقيًّا للرئيس، باعتراف هيكل شخصيًّا: «في هذه الأوقات الصعبة، زاد السادات قربًا من عبد الناصر، وكان بيت السادات في الهرم هو المكان الوحيد الذي يستطيع جمال عبد الناصر أن يذهب إليه لكي يقضي فيه – بين حين وآخر – ساعات مع صديق لم يكن يضغط على أعصابه[12]». وكتب السادات يقول: «ظلّ عبد الناصر يبدو لفترة طويلة الميت الحيّ، صفرة الموت تغطّي وجهه ويديه[13]».

خسر عبد الناصر رفيقه الأقرب، المشير عبد الحكيم عامر، قائد القوّات المسلّحة، والذي اعتبره مسؤولًا عن الهزيمة وبات يشكّ في أنّه يتآمر ضدّه. ومساء 25 آب/أغسطس 1967، دعاه إل منزله بنيّة القبض عليه. وهناك فوجئ المشير برؤية ثلاثة من قادة النظام الآخرين، وهم أيضًا ثلاثة من الضبّاط الأحرار القدماء: زكريّا محيي الدين وحسين الشافعي وأنور السادات. إتّهم الرئيس صديقه الأقرب بالسعي إلى الاستيلاء على السلطة. أنكر عامر كلّ شيء، وقرّر الانسحاب عند نحو الثانية صباحًا. لكنّ الحرّاس منعوه، كما أنّ السيّارة المصفّحة التي وصل بها كانت قد اختفت.

11 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 246-247.

12 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 48.

13 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 262.

يقول السادات في روايته: «أحسّ عبد الناصر بالأعياء أو خشي أن يتراجع في قراره فانسحب إلى حجرة نومه ولحق به زكريّا والشافعي على ما أعتقد، فوجدتُ نفسي وحدي وجهًا لوجه مع عامر الذي قال لي إنّه ذاهب إلى دورة المياه، فصاحبته. ثمّ عدنا إلى الحجرة فإذا به يفاجئني بقوله إنّه تناول سيانور لينتحر. ودهشتُ فأنا أعرف من قراءاتي أنّ السيانور إذا لمس الفم يموت مَن يتناوله في أقلّ من ثانية. ومع ذلك أرسلت في طلب الأطبّاء لإسعافه، وفعلًا حضروا وأسعفوه[14]». ويوضح السادات أنّه لازمه طوال الليل.

أعيد المشير إلى منزله ووُضع تحت الحراسة. ويؤكّد السادات أنّه تلقّى بعد ثلاثة أسابيع اتّصالًا من عبد الناصر يقول له فيه بصوت يخلو من أيّ انفعال: «عبد الحكيم عامر انتحر». ويقول السادات إنّه ردّ قائلًا: «والله، إذا كان هذا ما حصل فعلًا، فهو أحسن قرار اتّخذه عبد الحكيم عامر كقائد خسر معركة. فلو كنتُ مكانه لفعلتُ ذلك في 5 حزيران[15]». لكنّ كثيرين رأوا في ذلك عمليّة تصفية مقنّعة[16].

شهدت مصر، التي نزلت عليها الهزيمة العسكريّة كالصاعقة، عمليّة تصفية حسابات على مستوى القمّة في الدولة. فحُكم على شمس بدران، وزير الحرب، بالحبس المؤبّد. أمّا مساعده صلاح نصر، رئيس المخابرات المثير للخشية، فقد واجه رئيس المحكمة حسين الشافعي بهذا الحوار المذهل والذي سُمع على الملأ:

الشافعي: هل كنتَ تدبّر نساء للضبّاط، وللمشير؟

14 المرجع نفسه، ص. 277-278.
15 المرجع نفسه، ص. 280.
16 في أيّار/مايو 2011، أكّد جمال عامر، ابن المشير عبد الحكيم عامر، أنّه قدّم إلى القضاء المصريّ وثائق تثبت أنّ والده مات اغتيالًا.

صلاح نصر: طبعًا، وهل يُرفض للمشير أيّ طلب؟

الشافعي: أيّ نوع من النساء؟

صلاح نصر: زوجتك، مثلًا!

الشافعي: أعلن جلسة المحاكمة مغلقة![17]

ثار الشارع المصريّ، فالمحكمة لم تحكم إلّا بالحبس سنوات قليلة على قادة سلاح الطيران، وسارت التظاهرات على وقع «لا للتساهل مع الخونة!». نال عبد الناصر مساعدة ماديّة من الدول النفطيّة العربيّة للتعويض عن خسائر عائدات قناة السويس التي أقفلت أمام حركة الملاحة؛ وأيّد القرار رقم 242 الصادر عن مجلس الأمن في الأمم المتّحدة والذي يدعو إلى إعادة الأراضي التي احتلها الإسرائيليّون في مقابل الاعتراف بدولتهم. لكنّه، وتحت ضغط الشارع، أطلق حرب استنزاف ضدّ الدولة اليهوديّة، تقضي بقصف تحصينات العدوّ على طول القناة، وخوض اشتباكات بالمدفعيّة، ولو على حساب التعرّض لغارات جويّة انتقاميّة من شأنها أن توقع الكثير من الضحايا.

نائبًا لرئيس الجمهوريّة

كان على عبد الناصر المشاركة في «مؤتمر لتحرير فلسطين» نظّمه الملك الحسن الثاني في العاصمة المغربيّة. وفي 20 كانون الأوّل/ديسمبر من العام 1969، وقبل سفره إلى الرباط، عيّن السادات نائبًا لرئيس الجمهوريّة. يؤكّد هذا الأخير أنّ عبد الناصر قال له: «أنا مسافر يا أنور لحضور مؤتمر القمّة العربيّ في المغرب. وكما ترى فإنّ المؤامرات

[17] نقلًا عن جان لاكوتور، *Nasser*، Seuil، 1971، ص. 276.

حولي كثيرة ومحتمل جدًّا أن أصاب في إحدى هذه المؤامرات. ولا أريد أن يبقى البلد تائهًا، ولا أن أتركه في فراغ. لذلك قرّرتُ أن أعيّنك نائب رئيس جمهوريّة، فتقسم اليمين قبل سفري[18]».

يقول السادات في روايته إنّه احتجّ على ذلك التعيين، واقترح على عبد الناصر أن يكتفي بمنصب مستشار للرئيس، مذكّرًا إيّاه برغبته في التخلّي عن كلّ مناصبه في نهاية العام للعودة إلى قريته[19]. لكنّ عبد الناصر رفض. ويتابع السادات: «ذهبتُ إليه في اليوم التالي ومعي حسين الشافعي كعادتنا لاصطحابه إلى المطار. في المنزل، طلب أن أحلف اليمين، وكان ذلك في وجود حسين الشافعي، ففعلتُ، وحينما ذهبنا إلى المطار لتوديعه أعلنها عبد الناصر على الجميع».

لكنّ محمّد حسنين هيكل يروي الأمر بطريقة مختلفة، فيقول إنّ عبد الناصر، وبعد إقلاع الطائرة المتوجّهة إلى الرباط، دعاه إلى الجلوس بجانبه وعلى وجهه ابتسامة وقال له: «هل تعرف ماذا فعلت اليوم؟ كان أنور السادات سيمرّ عليّ لكي يصحبني إلى المطار، وطلبت منه أن يجيء معه بمصحفه. وعندما جاء فقد جعلته يقسم اليمين ليكون نائبًا رئيس الجمهوريّة في غيابي[20]». سألتُه عن السبب، فأجاب: «إذا حدث لي شيء، فإنّ أنور يصلح لسدّ الفترة الانتقاليّة. إنّ الاتّحاد الاشتراكيّ والقوّات المسلّحة سوف يواصلان تحمّل المسؤوليّات الفعليّة. وفي فترة الانتقال فإنّ دور أنور سيكون شكليًّا. ولكن... لماذا السادات؟ لأنّ الآخرين جميعًا واتتهم الفرصة ليكونوا نوّابًا لرئيس الجمهوريّة إلّا أنور،

---

18 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 285-286. في الطبعة الفرنسيّة للكتاب، يخاطب عبد الناصر السادات بصيغة الجمع، وهو ما لم يُعتمد في نصّ سوليه.

19 أنيس منصور، المرجع السابق، ص. 416.

20 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 49. نكرّر الملاحظة عينها التي سبق وذكرناها أعلاه حول صيغة مخاطبة عبد الناصر للسادات.

ولعلّه دوره الآن». ومن حرصه على التقليل من شأن هذا الحدث، زاد هيكل في إضعاف شهادته حين أورد أنّ عبد الناصر أضاف شارحًا بدقّة: «وعلى أيّ حال فهي فترة أسبوع على أرجح الأحوال»، قبل أن يعلّق على كلام الرئيس قائلًا: «فقد علّمته التجارب من قبل أنّ كلّ هذه التقارير عن مؤامرات الاغتيال مبالغ فيها، وقد رأى منها الكثير».

مَن مِن الاثنين، أنور السادات أو محمّد حسنين هيكل، كان يعيد كتابة التاريخ بجرأة أكبر؟ في كلّ حال، واعتبارًا من شهر أيلول/سبتمبر ذاك في العام 1969 بات أنور السادات فعليًّا نائبًا لرئيس الجمهوريّة، برغم أنّ ذلك المنصب لا يُعطيه سلطة حقيقيّة ما دام الرئيس حيًّا.

وفي مقابلة له مع أحد أصدقائه الموثوقين بعد سنوات، سيذكر السادات أمرًا غريبًا: «كان عبد الناصر يؤمن بالأرواح. وفي خلال إحدى جلسات تحضير الأرواح، «كُشِف» له أنّ خلفه سيكون أنور السادات. ولعلّه صدّق ذلك، واقتنع بأنّني لا أستطيع خلافته إلّا بانقلاب. وربّما أخّر ذلك تعييني نائبًا للرئيس، فهو لم يعيّنّي في ذلك المنصب إلّا قبل موته بسبعة أشهر. لكنّ شيئًا لم يفرّقنا قطّ في خلال تلك الأشهر السبعة[21]».

إلّا أنّ السادات سيرتكب خطأين في خلال صيف العام 1970.

الخطأ الأوّل كان سياسيًّا. ففي غياب عبد الناصر، الموجود في طرابلس الغرب، أعلن السادات في خلال اجتماع للاتحاد الاشتراكيّ العربيّ، معارضته لمبادرة السلام التي قدّمها وزير الخارجيّة الأميركيّ وليام روجرز. الواقع أنّ الرئيس كان قد اختار قبولها، لرفع الصراع الإسرائيليّ المصريّ إلى المستوى العالميّ. لكن لماذا لم يُعلم نائبه بذلك؟

الخطأ الآخر يقع أكثر على عاتق السادات. فقد كان يرغب في الحصول على منزل أكبر، وأعجب بقصر غير بعيد من مكان سكنه،

---

[21] موسى صبري، المرجع السابق، ص. 285.

يملكه لواء متقاعد. ولمّا رفض هذا الأخير تأجيره القصر، باشر السادات في إجراءات وضع اليد عليه. فاشتكى الضابط لرئاسة الجمهوريّة. وبّخ عبد الناصر السادات، الذي أصيب بأزمة قلبيّة جديده، ومضى إلى ميت أبو الكوم تعبيرًا عن استيائه. لكنّ خاتمة المسألة كانت في مصلحته، إذ مُنح منزلًا جميلًا في الجيزة، يطلّ على النيل، كان ملكًا لعائلة كاسترو اليهوديّة.

إلّا أنّ هذه التفاصيل التي رواها هيكل[22]، اعترضت عليها تمامًا رقيّة، الابنة الكبرى للسادات، التي لم ترَ فيها سوى مزيد من الافتراء على أبيها. وقالت إنّ المنزل المذكور «لم يكن بيت حراسات، ولم يكن بيت أحد وانطرد منه[23]». لكنّ كاميليا، ابنة السادات أيضًا من زواجه الأوّل، أكّدت الواقعة بكلمات غير واضحة، لكنّها عزتها إلى الرغبة الشديدة التي تملّكت جيهان، زوجة أبيها، في أنْ تسكن بذلك القصر.

ومع ذلك تتساءل كاميليا عمّا إذا لم تكن هي نفسها المسؤولة، لسبب آخر، عن المشكلة الصحيّة التي ألمّت بأبيها. والواقع أنّها أتت لرؤتيه قبل يومين، وأثارت في وجهه مشكلة مطالبةً بالطلاق من زوجها. وقالت له بحدّة: «زوجي يعاملني معاملة سيّئة، والخطأ خطأك، لماذا زوّجتني ولي من العمر اثنا عشر عامًا؟ أكان يجب أن تبيعني بيع العبيد[24]؟». طردها السادات غاضبًا. وفي اليوم التالي علمت كاميليا أنّ والدها تعرّض لأزمة قلبيّة. فهرعت إلى القرية، وزارته في سريره لتصالحه.

لم يُرد السادات الفضيحة، بل كان يفضّل التضحية بسعادة ابنته على الأقاويل. ومن شدّة يأسها، حاولت كاميليا الانتحار بابتلاع عبوة

---

22 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 50.
23 رقيّة أنور السادات، المرجع السابق، ص. 87.
24 كاميليا السادات، المرجع السابق، ص. 86-87.

بكاملها من الأسبرين[25]. في النهاية نالت الطلاق في العام 1972، بعد أحد عشر عامًا على زواجها.

إذا كان السادات يعاني ضعفًا في القلب، فقد عانى عبد الناصر مضاعفات في الشريان التاجيّ، أضيفت إلى مرض السكّري الذي يعانيه منذ سنوات. نجح علاج خاصّ خضع له في الاتّحاد السوفياتي في غرفة أكسجين خاصّة بروّاد الفضاء في تحسين حالته الصحّية، لكن لفترة وجيزة فقط.

بذل عبد الناصر كلّ ما بقي لديه من طاقة في نهاية صيف العام 1970 في مسعى للمصالحة بين الملك الأردنيّ حسين وياسر عرفات، بعد مواجهات الإخوة الدامية التي اندلعت بين الجيش الأردنيّ والمقاومة. لقد أراد العاهل الهاشميّ الاقتصاص من المقاتلين الفلسطينيّين الذين هدّدوا عرشه بعدما تحوّلوا إلى دولة في داخل الدولة، فردّ عليهم بعنف وأوقعت المعارك آلاف القتلى.

تكلّلت القمّة العربيّة التي نظّمها عبد الناصر في القاهرة من 22 إلى 28 أيلول/سبتمبر 1970 بالنجاح. ووافق الملك حسين وعرفات على أن يتعانقا أمام عدسات المصوّرين، ولو أنّ أنهار الدم التي سالت في الأردن لم تجفّ إلّا بعد وقت طويل. رافق الرئيس المصريّ منهكًا آخر ضيوفه، أمير الكويت، إلى المطار. أحسّ بالعرق يتصبّب منه عند سلّم الطائرة، وعجز عن أن يخطو خطوة إضافيّة واحدة، فأعيد إلى منزله، مصابًا بأزمة قلبيّة حادّة، سبّبها تخثّر الدم في الشريان التاجيّ، رافقتها آلام شديدة في الصدر. عند السادسة مساء، ورد اتّصال هاتفيّ إلى السادات، استُدعي فيه على عجل إلى منزل الرئيس، الذي كان قد فارق الحياة، وأحاط به الأطبّاء باكين.

[25] المرجع نفسه، ص. 108.

إجتمع كبار معاوني عبد الناصر في إحدى غرف الطابق الأرضيّ للمنزل. وقرّروا تكليف السادات – الذي سيتولّى الرئاسة بالوكالة لمدّة ستّين يومًا كما ينصّ الدستور – إعلان نبأ وفاة الرئيس عبر الإذاعة. فصحبه هيكل، وزير الإعلام والإرشاد القوميّ، بسيّارته إلى مكتبه، حيث كتبا نصّ البيان. إكتشف السادات أنّه نسي نظّارته. فأعاره هيكل، الذي سيصبح عدوّه مستقبلًا، نظّارته لكي يستطيع تلاوة البيان أمام الميكروفونات[26].

[26] محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 51.

9

أنا الرئيس

بمئات الآلاف قدموا، من مصر كلّها. اكتظّت بهم الحافلات والشاحنات والعربات، واجتاحوا القطارات، يتمسّكون بسقوف عرباتها... في الأوّل من تشرين الأوّل/أكتوبر 1970، كانت جنازة عبد الناصر في القاهرة مسرحًا لمشاهد لا توصف من الألم والغضب والاضطراب، وعجزت قوّات الأمن عن ضبط الوضع. تقدّم النعش على عربة تجرّها جياد سوداء، يواكبه ألفا جنديّ مسلّح، لكنّ الجماهير استولت عليه، «فأبحر كمركب هالك على نهر من البشر شكّلته الأذرع الممدودة[1]». كادت الجنازة تتحوّل أكثر من مرّة إلى ساحة للشغب والفوضى، وراحت الجماهير تهتف: «عرفات، حسين، أعيدا إلينا عبد الناصر!»، مجتازة حواجز الشرطة لتختلط بثلاثين من الملوك ورؤساء الجمهوريّات والحكومات الذين شاركوا في المأتم. ووسط التلاطم والتدافع، فقد المطران مكاريوس رئيس جمهوريّة قبرص، صليبه؛ وسقط الملك الأردنيّ حسين أرضًا؛ وأخذ الرئيس الجزائريّ هواري بومدين، ورئيس الوزراء الفرنسيّ جاك شابان دلماس، الأمبراطور

---

[1] جان لاكوتور، جريدة لوموند، 3 تشرين الأوّل/أكتوبر 1970.

الأثيوبيّ هيلا سيلاسي الضعيف البنية من يده، وأبعداه عن موكب التشييع لحمايته من السقوط بين الأقدام...

لكنّ أنور السادات غاب عن الجنازة، بعدما أصيب بانهيار مفاجئ، ونُقل للمعالجة إلى مقرّ المجلس القديم لقيادة الثورة، القريب من مكان التشييع. وهو يقول في مذكّراته: «أعطاني الأطبّاء خمس حقن لم أفق منها إلّا حوالى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر[2]...». وتوضح زوجته قائلة: «لمّا استيقظ بعد ذلك بخمس ساعات كان مذعورًا لأنّه علم أنّ الجثمان قد تلقّفته أيدي المشيّعين[3]...» (لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث لحسن الحظّ).

ممّا لا شكّ فيه أنّ هذا الرجل يمتلك موهبة تفويت المواعيد الكبرى مع التاريخ! فليلة استولى الضبّاط الأحرار على السلطة كان هو في السينما، وعندما سارت مصر كلّها في تشييع عبد الناصر، كان يرقد في سريره...

مَن سيصبح الرئيس المقبل للجمهوريّة؟ لم يكن أيّ من قدامى الضبّاط الأحرار مناسبًا ليتولّى المنصب، فزكريّا محيي الدين ذو صبغة يمينيّة متطرّفة. أمّا علي صبري، فذو صبغة يساريّة متطرّفة كما أنّ حظوظه أعاقتها قضيّة تزوير جمركيّة كبيرة أُلقيَ بمسؤوليّتها عليه. وفي الكرملين، كان السادات موضع ارتياب. لاحقًا، سيقول الرجل: «عرفتُ متأخّرًا جدًّا أنّه على رغم الكلام اللطيف الرقيق الذي قاله كوسيغين[4] أثناء جنازة عبد الناصر، فإنّ السوفيات قد خطّطوا من اللحظة الأولى أنّهم لا يريدونني[5]». أمّا في القاهرة، فقد كان قادة النظام مقتنعين بأنّ

---

2 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 400.

3 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 268.

4 ألكسي كوسيغين، رئيس الوزراء في الاتّحاد السوفياتي.

5 أنيس منصور، المرجع السابق، ص. 418.

هذا الرجل الذي لا حيثيّة كبيرة له، والذي بارتدائه بزّة فضفاضة عليه، سيكون ذا هامش مناورة ضيّق جدًا، ومن السهل التحكّم به. اختصر إريك رولو الوضع جيّدًا حين قال: «إستفاد السادات من صفتين: فهو وخلال مسيرته السياسيّة الطويلة، لم يستثر إلّا القليل القليل من العداوات اللدودة، ربّما لأنّ أيّ مستقبل استثنائيّ لم يبدُ مقدَّرًا له. ومن جهة ثانية، كان ممكنًا تقديمه للشعب على أنّه رمز للاستمراريّة. فبغياب أيّ دعم له من مراكز القوّة التي تشكّلت مع السنين، لم يكن يوحي بالقلق لأحد، واعتقد الجميع أنّ بوسعه استمالته إلى صفّه في انتظار الحلول مكانه[6]».

هكذا، رشّحته اللجنة التنفيذيّة العليا للاتّحاد الاشتراكيّ العربيّ، ومن ثمّ مجلس الأمّة، للرئاسة. قال السادات للنوّاب مؤكّدًا: «برنامجي هو برنامج عبد الناصر. أتعهّد لكم بشرفي بأن أستمرّ في السير على الدروب التي شقّها مهما كانت الظروف». ثمّ أضاف بصوت تخنقه العاطفة: «لا شيء، ولا أحد إلّا الجماهير يستطيع سدّ الفراغ الذي تركه قائدنا الحبيب». وأعلن أنّه عاجز عن أن ينجز وحده ما أنجزه عبد الناصر، ودعا إلى تقاسم للمسؤوليّات، وأنهى خطابه بصلاة: «يا الله، لا تحمّلنا ما لا طاقة لنا على حمله!» ويضيف هيكل بخبث: «عندما انتهى من إلقاء خطابه أمام مجلس الأمّة، استدار إلى تمثال نصفيّ لعبد الناصر كان موضوعًا على منصّة المجلس، وانحنى بطريقة مسرحيّة أمامه. وسرت همهمة في القاعة. فقد بدت هذه الحركة نوعًا من الوثنيّة[7]».

---

6 إريك رولو، جريدة لوموند، 15 أيّار/مايو 1971.

7 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 52.

سواء أكانت تلك وثنيّة أم لا، فإنّ أنور السادات، المرشّح الوحيد لرئاسة الجمهوريّة، فاز بالمنصب بتأييد شعبيّ واسع في الاستفتاء الذي أجري في 15 تشرين الأوّل/أكتوبر من العام 1970. لم تثر النتيجة التي حقّقها - (90.04%) - أكثر من بعض الابتسامات الساخرة. وعلّق نجيب محفوظ، الذي فاز لاحقًا بجائزة نوبل للآداب، على ذلك بالقول: «لم أتصوّر أبدًا أن يكون هو خليفة عبد الناصر، ولمّا حدث ذلك بالفعل اعتبرتُ المسألة غاية في السخرية والسخف[8]».

غداة وفاة عبد الناصر، سأل صحفيّ هنري كيسنجر، مستشار الرئيس الأميركيّ نيكسون للأمن القوميّ، عن رأيه في السادات، فأجاب بأنّه لن يبقى في سدّة الرئاسة أكثر من أسابيع قليلة. «كان ذلك أحد أفدح أخطائي في الحكم[9]»، أكّد الدبلوماسيّ الأميركيّ الشهير، والذي كان أوضح تعبيرًا بكثير في أحاديثه الخاصّة، حين قال لغولدا مائير، رئيسة الوزراء الإسرائيليّة: «إنّه أحمق، ومهرّج، وبهلول[10]». وفي القاهرة لاحظت الأوساط الدبلوماسيّة بكثير من السخرية أنّ مصر، وبتغييرها الرئيس، ستشفى من عبادة الشخصيّة أمام الغياب الهائل لشخصيّة الرئيس الجديد...

إستقبل السادات في 20 تشرين الأوّل أكتوبر الصحفيّ الأميركيّ سايروس ل. سولزبرغر، الذي اكتشف في الرئيس «رجلًا قويّ البنية، غير وسيم جدًّا، لكنّه حسن المظهر، وذو ملابس وهيئة عسكريّة جدًّا». وقد أوحى خليفة عبد الناصر للصحفيّ بأنّه بحالة جسديّة ممتازة: «صافحني

---

8 نجيب محفوظ، *Pages de mémoires*، Sindbad-Actes Sud، 2007، ص. 172.

9 هنري كيسنجر، *A la Maison Blanche 1968-1973*، Fayard، 1979، ص. 1332-1333.

10 ماتي غولان، *Les Négociations secrètes d'Henry Kissinger au Proche-Orient*، Robert Laffont، 1976، ص. 114.

بقبضة شديدة القوّة، ولم يبدُ عليه أيّ أثر للبدانة». كما لاحظ الزائر أنّ الرئيس «يجيد الإنكليزيّة إلى حدّ ما»، وأوضح له هذا الأخير أنّه يتمرّن على التحدّث بالإنكليزيّة مع حماته البريطانيّة[11].

عيّن السادات لنفسه نائبَي رئيس، وهما علي صبري الرئيس الأبرز للتيّار اليساريّ الموالي للاتّحاد السوفياتيّ، وحسين الشافعي، الذي يميل إلى اليمين. واختار لرئاسة الحكومة محمود فوزي، وهو دبلوماسيّ معتدل كان مستشارًا للسياسة الخارجيّة لدى عبد الناصر بعد هزيمة العام 1967. وكانت الحكومة الجديدة بمثابة شقيقة لسابقتها.

تظاهر السادات بالسذاجة ليُطمئن الذين يزعمون التأثير فيه. وحين قدّم إليه سامي شرف، الرجل المثير للخوف ووزير شؤون الرئاسة، مرسومًا لتوقيعه، لم يكلّف الرئيس نفسه حتّى عناء قراءة الملاحظة التي أرفِقت به، وقال بتواضع: «سامي، أنت أدرى منّي بهذه الأمور. لا جدوى من أن أقرأ. إذا طلبتَ منّي التوقيع، فسأوقّع[12]». وبقيت صورة سلفه إلى جانب صورته في الأماكن العامّة. كما كان يتحدّث عبر الإذاعة عن «قائدنا الخالد». وفي اجتماعات العمل، غالبًا ما كان يدلّ بإصبعه إلى صورة عبد الناصر قائلًا: «ماذا تريدون أن نفعل؟ نحن عاجزون من دونه!».

كانت مصر التي ورثها السادات بلدًا عدد سكّانه 33 مليونًا، سبعون بالمئة منهم لا يزالون أمّيين برغم انتشار التعليم الرسميّ على نطاق واسع. إلّا أنّ وضع البلد تدهور كثيرًا في أعوام قليلة، كما يشرح بطريقة لافتة الباحث الجامعيّ الكاليفورنيّ بنت هانسن[13]. فبين العامين 1913 و1955 تطابقت نسبتا النموّ الاقتصاديّ والسكّانيّ تطابقًا تامًّا، مسجّلتين

---

11 مقالة «Le Sadate que j'ai connu»، **الإكسبرس**، 16 تشرين الأوّل/أكتوبر 1981.

12 علي السمان، *L'Egypte d'une révolution à l'autre*، Le Rocher، 2011، ص. 137.

13 نقلًا عن جان بيار بيرونسيل هوغوز، «*Les suites de la crise égyptienne*»، **لوموند**، 15 آذار/مارس 1977.

1.7% سنويًّا. وكان لسياسة التصنيع التي انتهجها عبد الناصر تأثير إيجابيّ بين العامين 1956 و1965، فحقّقت نموًّا متوسّطه 6.7%، في حين كان عدد السكّان يزداد بنسبة 2.6%. لكن، واعتبارًا من العام 1965، حافظ النموّ السكّانيّ على وتيرته في حين لم تتخطّ الزيادة في الدخل الوطنيّ 1% سنويًّا.

حين استلم السادات مقاليد السلطة، كان الإنفاق العسكريّ يستهلك جزءًا كبيرًا من الموازنة الوطنيّة، بسبب حالة «اللاحرب واللاسلم» الكارثيّة التي أعقبت هزيمة 1967. كما اضطرّت العاصمة إلى استقبال أعداد كبيرة من اللاجئين من برزخ السويس، وقادت أزمة السكن الآلاف إلى الإقامة في مقابر القاهرة. وكانت الخدمات العامّة في حال مزرية، وشبكة الهاتف تعمل بشكل رديء. أمّا حافلات النقل العامّ فقد ضاقت بركّابها حتّى بات معظمهم يتمسّكون بأبوابها من الخارج...

أدّت المفاوضات إلى التوصّل إلى وقف لإطلاق النار قبل وصول السادات إلى سدّة الرئاسة، فقرّر تمديد العمل به. وفي 15 شباط/فبراير 1971، أطلق بالون اختبار. ففي مذكّرة أرسلها إلى غونار جارينغ، الموفد الخاصّ للأمم المتّحدة إلى الشرق الأوسط، اقترح الرئيس المصريّ إعادة فتح قناة السويس أمام الملاحة العالميّة إذا وافق الإسرائيليّون على انسحاب جزئيّ من سيناء، في انتظار الجلاء الكامل عنها. أراد من تلك الخطوة أن تكون مرحلة أولى في عمليّة سلام إسرائيليّة عربيّة. إلّا أنّ غولدا مائير رئيسة الوزراء الإسرائيليّة رفضت ذلك الاقتراح بشكل قاطع، ورأت فيه «إهانة لذكائنا».

ومع ذلك فقد اعترف إسحاق رابين، وكان آنذاك سفيرًا لإسرائيل في الولايات المتّحدة، بأنّ مذكّرة السادات تلك كانت بحدّ ذاتها «حدثًا ولو أنّه صغير. فالواقع أنّه وللمرّة الأولى في تاريخ الصراع في الشرق الأوسط،

يسجّل أحد البلدان العربيّة – وهو وللمناسبة أكبرها – في وثيقة رسميّة استعداده للدخول في محادثات سلام مع إسرائيل[14]».

الواقع أنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة هي مَن توجّه إليها السادات وسعى إلى مغازلتها. لكنّ واشنطن لم تفهم ما تعنيه تلك اليد الممدودة، كما سيكتب لاحقًا هنري كيسنجر، الذي كان آنذاك مستشار الرئيس نيكسون للأمن القوميّ: «لو أنّنا كنّا أفضل إدراكًا بقليل لدقائق الدبلوماسيّة في الشرق الأوسط، لشعرنا بأنّ الموقف الأساسيّ لمصر على وشك أن يتهاوى[15]».

جُدِّد وقف إطلاق النار، لكنّ الحصار ظلّ شاملًا: العرب لا يريدون التفاوض مع إسرائيل قبل الانسحاب من الأراضي المحتلّة في العام 1967، وإسرائيل ترفض أيّ انسحاب قبل الاعتراف بدولتها. وفي واشنطن ازداد الانزعاج من التعنّت الإسرائيليّ، خصوصًا أنّهم بدأوا باستشفاف رغبة مصريّة في السلام. في خلال جولة له على الشرق الأوسط، قابل جوزف سيسكو، وهو أحد أهمّ المسؤولين في وزارة الخارجيّة الأميركيّة، الرئيس المصريّ في القاهرة. فاكتشف في السادات «رجلًا يتفهّم تمامًا مشاكل إسرائيل»، وقد عرض أمامه «بطريقة عقلانيّة – لا يمكن تخيّل سماعها من فم أيّ حاكم عربيّ آخر – الحاجات الأمنية لإسرائيل». كذلك فهم سيسكو أنّ مصر مستعدّة تمامًا لخفض مستوى اعتمادها على الاتّحاد السوفياتيّ، وللتفاهم بدون كثير من الممانعة مع الولايات المتّحدة وحتّى مع إسرائيل، بشرط أن تستطيع تبرير ذلك أمام الدول العربيّة الأخرى[16].

---

14 إسحاق رابين، *Mémoires*، Buchet-Chastel، 1980، ص. 153.

15 هنري كيسنجر، *A la Maison Blanche 1968-1973*، المرجع السابق، ص. 1335.

16 كما أوجز السفير الإسرائيليّ في واشنطن ما نقله إليه سيسكو حول المحطّة التي قام بها في القاهرة (إسحاق رابين، *Mémoires*، المرجع السابق، ص. 158).

في 15 كانون الثاني/يناير من العام 1971، وبحضور الرئيس السوفياتي نيكولاي بودغورني، دشّن السادات السدّ العالي في أسوان، وهو الإنجاز العظيم لسلفه. بقي ظلّ عبد الناصر يهيمن على المشهد. لكنّ الرئيس الجديد قام في الشهر التالي بخطوة حملت مفاجأة سارّة لأوساط رجال الأعمال – وصدمة لليسار – حين أعاد إلى ثمانمئة من كبار الملّاكين أراضيهم. ومن جهة أخرى، وعد بالتعويض على خمسة آلاف منزل خسرت نصف مساحة أراضيها في الإصلاح الزراعيّ الي أجري في العام 1969.

ومع ذلك كان خصوم السادات يخبّئون له صفعة مذلّة. ففي 29 نيسان/أبريل 1971، أسقط الحزب الأوحد، وبأكثريّة ساحقة، مشروع الوحدة الكونفدراليّة بين الدول العربيّة والتي كان قد أعلنها من بنغازي مع العقيد القذّافي، الرئيس الليبيّ، والفريق حافظ الأسد، حاكم سوريا الجديد. وفي حادثة أخرى، توجّه إلى حلوان ليلقي خطابًا لمناسبة الأوّل من أيّار/مايو، ليتلقّى صفعة جديدة حين استقبله عمّال يحملون صور سلفه وهم يهتفون: «نحن أبناء عبد الناصر!».

لكنّ السادات قرّر أن يردّ. ففي اليوم التالي أقال معارضه الأبرز، وهو علي صبري أحد نائبَي رئيس الجمهوريّة، بعدما اتّهمه بالسعي لتخريب مشروع الوحدة الكونفدراليّة العربيّة.

تسارعت الأحداث، واجتمع الرئيس بعدد من قادة القوّات المسلّحة وقال لهم مهدّدًا: «أيّ واحد حيعمل حاجه ضدّ مصر، حافرمه!» (كلّ مَن سيقوم بعمل ضدّ مصلحة مصر، سأقطّعه إربًا). وبعدما تخلّص من علي صبري، الموالي للاتّحاد السوفياتي، استقبل في القاهرة في 4 أيّار/مايو، وزير الخارجيّة الأميركيّ ويليام روجرز. واعتبر الفريق محمّد فوزي القائد العامّ للقوّات المسلّحة في حديث خاصّ أنّ اقتراحات روجرز لتسوية

سلميّة بين إسرائيل والعرب، والاقتراحات التي ردّ بها السادات عليه، هي «غير مقبولة». وهكذا، أصبح فوزي خصمًا آخر يجب مراقبته...

كان السادات مقتنعًا بأنّه يواجه «كتلة سلطة» تتشكّل أساسًا من «عملاء للاتّحاد السوفياتيّ[17]»، سمّاهم «البوليتبيورو[18]» (على اسم المكتب السياسيّ للحزب الشيوعيّ السوفياتيّ). وكانت زوجته تتلقّى كلّ يوم تقارير عمّا يطاله من انتقادات «جافّة» في دعوات العشاء في القاهرة. كما كان يعلم أنّ خطوطه الهاتفيّة مراقَبة. وقد ساوره الشكّ حتّى بأنّ حياته في خطر، فاحتفظ بمسدّس بالقرب من سريره. وانتقلت جيهان التي أحسّت بالقلق الشديد إلى حجرة زوجها في الليل[19].

مساء 11 أيّار/مايو، سلّم ضابط شابّ في الشرطة السادات شريط تسجيل. فسمعه بعيدًا عن آذان الخدم، على شرفة منزله، بوجود زوجته والمسؤول عن أمنه. وبحسب جيهان، فقد احتوى التسجيل على محادثة هاتفيّة بين اثنين من قادة الحزب، يتناقشان فيه سبل القبض على الرئيس، وحتى اغتياله[20]. وفي مخابرة هاتفيّة مسجّلة أخرى، كان نائب الرئيس علي صبري، ووزير الداخليّة شعراوي جمعة، يتحدّثان عن الإطاحة بالرئيس. وقال الأوّل للثاني: «لا تقلق، إذا تمسّك بمنصبه، سنتكفّل بأن نلمّه[21]».

إقتنع السادات بأنّ ثمّة مَن يريد التخلّص منه، فألغى زيارة كان ينوي القيام بها في اليوم التالي إلى مديريّة التحرير، بذريعة المرض. وفي المساء أقال شعراوي جمعة من منصبه. وهو ما استتبع في الحال استقالات أذيعت عبر راديو القاهرة بغير علم الرئيس، وشملت ثلاثة

17 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 318.
18 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 272.
19 المرجع نفسه، ص. 272-274.
20 المرجع نفسه، ص. 286.
21 علي السمان، المرجع السابق، ص. 141.

وزراء، ورئيس مجلس الأمّة وعددًا من كبار المسؤولين في الحزب. يؤكّد السادات قائلًا: «كان المقصود بهذه الاستقالات أن يحدث انهيار دستوريّ في البلد. قبلتُها جميعًا وأعلنتها على الشعب في الحال، وحدّدتُ إقامة المستقيلين في بيوتهم[22]».

في اليوم نفسه، استدعى الفريق محمّد فوزي، القائد العامّ للقوّات المسلّحة، معاونيه وأخبرهم بأنّ السادات يبيع مصر للأميركيّين. وسأل الفريق صادق، رئيس الأركان، عمّا إذا كان مستعدًّا للسيطرة على القاهرة. لكنّ هذا الأخير أجاب بانفعال بأنّ الجيش لا شأن له بالسياسة، ولن يحرّك ساكنًا[23].

ومساء 14 أيّار/مايو، استدعى السادات اللواء الليثي ناصف، قائد الحرس الجمهوريّ، للتحادث في أمور شتّى. ولحظة وقف الضابط يستأذن رئيسه للانصراف، استمهله هذا الأخير وقال له: «في الواقع، هذه لائحة. قبل أن تعود إلى منزلك، أريد منك أن تذهب لتلمّ هؤلاء الرجال كلّهم من منازلهم، وتلقي بهم في السجن[24]». فهو لم ينسَ فعل «لمّ» الذي قيل في الشريط المسجّل[25].

ثورة ثانية

تضيف جيهان السادات في مذكّراتها إلى أحداث تلك الليلة الشهيرة تتمّة دراماتيكيّة. فبينما كانت فرق من الحرس الرئاسيّ تتّجه إلى منازل الرجال المذكورين في لائحة الرئيس لاعتقالهم، اقتربت الدبّابات من

---

22 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 326.

23 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 56-58.

24 علي السمان، المرجع السابق، ص. 142.

25 اللواء الليثي، الذي رُقّي لاحقًا ليشغل منصب سفير في اليونان، قضى في لندن في ظروف غامضة، العام 1973. أكان ذلك حادثًا أم انتحارًا أم اغتيالًا؟ وقد عُثر على جثّته في أسفل مبنى من خمس طبقات.

مقرّ الرئيس. فهرعت إلى الحمّام حيث كان زوجها يحلق ذقنه استعدادًا للخروج عند الفجر تستفسره، أجابها بأنّه لم يصدر إلى الجيش أمرًا كهذا، فذُعرت جيهان وأرادت أن تبعد أولادها، وأن تخفي عنهم الخطر الذي يتهدّدهم. لكنّها اكتشفت أنّ بناتها الثلاث، واللواتي تتراوح أعمارهنّ بين عشرة وستّة عشر عامًا، يدركن تمامًا حقيقة الوضع، وأنّ جمال، ابن الأربعة عشر عامًا، «في الخارج ومعه بندقيّة، يقوم بدوريّة حراسة في الحديقة منذ عدّة ليالٍ[26]». في هذا الوقت، علم الرئيس باتّصال هاتفيّ من قائد الحرس الجمهوريّ أنّ تلك الدبّابات أرسِلت لحمايته، وأنّ المتآمرين المفترضين قد اعتُقلوا جميعًا.

ذهب السادات، بعد أن حلق ذقنه وانتعش، إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون حيث ألقى خطابًا جيّاش العاطفة، ارتجل جزءًا كبيرًا منه، مستعيدًا الصورة التي استعملها أمام قادة الجيش: «أقول لكم جميعًا إنّني سأفرم أيّة قوّة تعمل ضدّ بلدي، وأيّ تهديد للحريّات الجديدة التي أمنحها لكم!». راجت الكلمة بين الجماهير، وشوهد المتظاهرون أمام مقرّ الرئاسة يحملون لافتات وملصقات تظهر عليها صور مفارم اللحم، صائحين: «إفرم يا سادات، إفرم!».

في 4 حزيران/يونيو، خُصّص المقال الأسبوعيّ الذي يكتبه محمّد حسنين هيكل، رئيس تحرير جريدة الأهرام للحديث عن... جلسات تحضير الأرواح التي زعم أنّ المتآمرين يشاركون فيها. كتب هيكل أنّ الفريق محمّد فوزي وشعراوي جمعة وسامي شرف استشاروا، بعد إزاحة علي صبري من منصبه، روح شيخ يدعى عبد الرحيم لمعرفة ما إذا كان سيُكتب لمؤامرتهم النجاح. لكنّ الرجل القدّيس، الذي تكلّم بلسان أستاذ جامعيّ، نصحهم بالعدول «عن أيّ عمل متسرّع»...

26 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 290-291.

يروي إريك رولو، المراسل الخاصّ لجريدة لوموند الفرنسيّة، قصّة محاكمة المتآمرين المفترَضين، حيث تحوّلت «هذه المحكمة الثوريّة» إلى سيرك للتهريج. ويقول: «ردّ المتّهمون بأنّهم غير مذنبين، واشتكوا بأنّهم لم يستلموا القرار الاتّهاميّ الذي يبلغ ألفي صفحة إلّا قبل ثمانٍ وأربعين ساعة من بدء المحاكمة، وأنّ الوقت لم يتسنّ لهم ولا للمحامين الذين يتولّون الدفاع عنهم لقراءته. كما ظهر الانزعاج بوضوح على وجه المدّعي العامّ الاشتراكيّ[27] وهو يتلو بصوت اتّسم بالتأتأة والارتباك قرارًا اتّهاميًّا لا نهاية له، ولم تُفهَم الغاية منه لأنّه لم يقدّم أيّ برهان جدّيّ على التهمة المنسوبة إليهم. ولتبرير الموقف، طالب بتطبيق عدالة سياسيّة مبهمة. لم يجد وكلاء الدفاع أيّة صعوبة في الهزء به، ما أثار نوبات من الضحك بين المتّهمين[28]».

صدرت على كلٍّ من علي صبري وشعراوي جمعة وسامي شرف أحكام بالإعدام، خُفِّفت إلى الأشغال الشاقّة. وحده علي صبري بقي قيد الاحتجاز طوال فترة رئاسة السادات ولم يخرج إلى الحريّة إلّا في عهد مبارك، في ربيع 1981.

لم يجد خلف عبد الناصر حرجًا في وصف هذا الكباش الذي انتصر فيه بـ«الثورة». وكتب في مذكّراته يقول: «كان ما حدث في 13 مايو سنة 1971 والأيّام التي تلته تصحيحًا لمسار ثورة 23 يوليو 1952. ولكنّه كان في نفس الوقت بمثابة اللبنة الأولى في بناء المجتمع الاشتراكيّ الذي نعيشه اليوم والذي يتّسم بالعدل الاجتماعيّ الحقيقيّ لا بالشعارات، وبالعمل الإيجابيّ والأهداف الساطعة في وضح النهار، لا التفسيرات الملتوية أو الفلسفات الدخيلة علينا، البعيدة عن قيمنا العربيّة، وعن إيمان هذا الشعب بالرسالات السماويّة وتمسّكه بتراث وتقاليد العائلة

27 استُحدث منصب المدّعي العامّ الاشتراكيّ أثناء الإصلاح الدستوريّ في العام 1971.

28 إريك رولو، المرجع السابق، ص. 326-327.

المصريّة الأصيلة[29]». قضت «الثورة التصحيحيّة بالتخلص من كابوس آثار مراكز القوّة» التي عانى منها سلفه. وأكّد السادات أنّ أولئك العناصر شوّهوا ثورة 1952، وتدخّلوا في حياة المواطنين الشخصيّة، وأعاقوا العدالة، «وأذاقوا الناس ألوان القهر والتعذيب، وحرموهم أهمّ مقوّمات الحياة وهي الحريّة».

بعد أن خلت الساحة للسادات من خصومه، اتّخذ بعض التدابير الاستعراضيّة. فأمر بإلغاء الرقابة السياسيّة والتجسّس على المواطنين، وبإحراق أشرطة تسجيل المحادثات الهاتفيّة أمام الكاميرات في باحة وزارة الداخليّة، كما أطلق سراح مئات المعتقلين السياسيّين – ومعظمهم من الإخوان المسلمين – وأغلق رسميًّا مراكز الاحتجاز الاحتياطيّ، ووجّه ضربة المعول الأولى لهدم سجن طرة المشؤوم. بفضل هذه التدابير التي روّجت لها كثيرًا وسائل الإعلام، كسب شعبيّة لا منازع عليها.

نجح السادات في تسديد ضربة معلّم. فقد شلّ وحده، في يوم واحد، حركة كلّ الذين كانوا يتحكّمون بمفاصل السلطة الأساسيّة، وبؤر المؤامرات السريّة، والشبكات الموازية، أي وزارات الحرب والداخليّة والإعلام وشؤون الرئاسة، ونائب رئيس الجمهوريّة، ورئيس مجلس الأمّة والأمين العامّ للحزب الأوحد وموظّفو أجهزته. كيف يمكن تفسير ذلك؟ لا شكّ بأنّ السبب في ذلك يعود جزئيًّا، وكما يشير إليه إريك رولو، إلى «القوّة الاستثنائيّة لصلاحيّات رئيس الدولة في بلد ذي مركزيّة شديدة، وحيث الاحترام شبه الدينيّ لسلطة الدولة يشكّل إحدى سمات الشخصيّة الوطنيّة[30]». لكنّنا نجد أيضًا براعة السادات وجرأته وخبرته، فهو قد أمضى في ظلّ عبد الناصر ثمانية عشر عامًا، جلس فيها في المقاعد المتقدّمة المتميّزة، ما أتاح له أن يراقب كلّ شيء عن كثب،

---

[29] أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 326.

[30] إريك رولو، جريدة **لوموند**، 15 أيّار/مايو 1971.

لكن في وظائف تمثيليّة لا تورّطه في أمور كبيرة. فتعلّم الكثير وفكّر كثيرًا في عملية ممارسة السلطة.

كما اكتشف فيه نجيب محفوظ «داهية محنّكًا[31]». وبدأ المصريّون ينظرون إلى رئيسهم نظرة مختلفة. فهذا الذي يُقال إنّ عبد الناصر وصفه يومًا بالحمار، يظهر بصورة جديدة تمامًا.

كانت جيهان السادات قد نذرت، إذا ما خرج زوجها منتصرًا من تلك المحنة، أن تصوم شهرًا كاملًا تعبيرًا عن عرفانها، وأن تحجّ إلى مكّة المكرّمة. وها هي الرياح تجري كما يشتهي أنور! تقول موضحة: «إستجاب الله لدعواتي، وجاء دوري لأفي بعهدي. وبعد أسبوعين من نجاح ثورة التصحيح سافرتُ إلى مكّة[32]».

---

[31] نجيب محفوظ، المرجع السابق، ص. 173.

[32] جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 292-293.

10

الرئيس المؤمن

بعد أسابيع قليلة من ثورة القصر التي قام بها السادات، قرّر أن يمنح مصر دستورًا جديدًا، رأى أنّه يجب أن يستوحي الروح القرويّة الغالية عليه. وقال ابن ميت أبو الكوم لنوّاب مجلس الأمّة شارحًا: «الناس في القرية متحّدون. فإذا مات أحد في حين تستعدّ عائلتان لإقامة حفلة زفاف، يتمّ تأجيل الحفلة من باب اللياقة! أريد دستورًا على شاكلة هذه التقاليد لكي تصبح مصر قرية كبيرة». في كلّ حال، استعادت مصر اسمها. فالجمهوريّة العربيّة المتّحدة التي وُلدت من الوحدة مع سوريا وكان مصيرها الفشل، أصبحت جمهوريّة مصر العربيّة.

ذلك الدستور الذي خضع للاستفتاء الشعبيّ وأعلن في 11 أيلول/ سبتمبر 1971، لم يحد عن الخطّ الناصريّ: «جمهوريّة مصر العربيّة دولة نظامها اشتراكيّ ديمقراطيّ يقوم على تحالف قوى الشعب العاملة». وإذا جرى التأكيد فيه على حقوق المواطن بطريقة أوضح، فإنّ رئيس الجمهوريّة قد احتفظ بسلطات كبيرة. لكنّ الأهمّ ظهر في المادّة الثانية من الدستور، التي نصّت على أنّ «مبادئ الشريعة الإسلاميّة هي المصدر الرئيسيّ للتشريع». كانت تلك المرّة الأولى التي يُدعى فيها القانون

المصريّ إلى الاستناد إلى الشرع الإسلاميّ. لم يسبق لأيّ من الدساتير السابقة، سواء في العهد الملكيّ أو الجمهوريّ أن أكّد على أمر كهذا، خصوصًا وأنّ ما يجعله محلّ اعتراض أكبر هو أنّ نسبة 10% على الأقلّ من المصريّين هم من المسيحيّين.

إنّ مقدّمة هذه المادّة قد سمحت أوّلًا لخليفة عبد الناصر بالتأكيد على شخصيّته كزعيم مسلم. ولم يعد اسمه أنور السادات بل محمّد أنور السادات، وبدأ يسري عليه لقب «الرئيس المؤمن» أو «الرئيس التقيّ». كما أنّ ارتياده المدرسة القرآنيّة في طفولته أتاح له الإلمام بسور القرآن الكريم تمامًا. وكان مثابرًا على صلواته اليوميّة، كما تشهد على ذلك زبيبة الصلاة السمراء التي ظهرت على جبينه، نتيجة الركعات الكثيرة جدًّا واحتكاك رأسه بالأرض. وكان التلفزيون يصوّره كلّ يوم جمعة مصلّيًا في مسجد مختلف. ودأب على استهلال خطاباته بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) – فيما كان عبد الناصر يستهلّها بعبارة «أيّها المواطنون» – وإنهائها باقتباس من القرآن الكريم.

كتب السادات يقول في مذكّراته: «السياسة هي فنّ بناء مجتمع نطبّق فيه مشيئة الله[1]». وقد اعتمد نظامه السياسيّ على ركنين، وهما الإيمان والعلم.

مغازلة الإسلاميّين

يشير جان نويل فيرييه إلى أنّ مصر عبد الناصر كانت أقلّ ليبراليّة من مصر السادات، لكنّها كانت تسمح بوجود مرجعيّات عدّة: القوميّة، والعروبة، والعالم ثالثيّة، والاشتراكيّة، والإسلام. وهو يقول: «كان التفاني في سبيل الوطن يحدّد أهليّة الشخص للاحترام، شأنه شأن احترامه

[1] أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 134.

الدين. وهكذا فقد كان ممكنًا للمرء أن يقدّم علنًا حجّته أو أن يدافع على الملأ عن هذا الرأي دون ذاك بالاستناد، بحسب مقتضى الحال، إلى المصلحة الوطنيّة أو إلى الاشتراكيّة[2]». أمّا في عهد السادات فقد سيطرت المرجعيّة الإسلاميّة. وشيئًا فشيئًا أخذت تحتل حيّزًا مفرطًا في المجال العامّ، فقد باتت هي المقياس لأهليّة المؤسّسات أو الأشخاص للاحترام. «فمن رغبة الجميع في الظهور بمظهر جدير بالاحترام، راحوا يتظاهرون باتّباع قواعد الشريعة الإسلاميّة ويغتاظون ممّن لا يتّبعها[3]».

كذلك، سمح إدخال الشريعة في الدستور للسادات بالفوز برضى الإسلاميّين. وقد تطوّرت علاقاته بهم مع السنين. لا ننسى الإعجاب الذي كان الضابط الشابّ يكنّه للشيخ حسن البنّا، مؤسّس تنظيم الإخوان المسلمين، ومرشدهم الأعلى في عهد الملكيّة. وبعد انقلاب 1952، ظلّ يرى فيه «رجلًا محترمًا كلّيًا لم يرضَ عن التجاوزات التي قام بها أتباعه». لكنّ القطيعة بين الضبّاط الأحرار والتنظيم كانت قد وقعت. فعبد الناصر الذي اتّهم الإخوان بالسعي لاغتياله في العام 1954 قمعهم بلا رحمة، اعتقالًا تعسّفيًّا وتعذيبًا وأحكامًا بالإعدام. وكان السادات يؤيّده في كتاباته، ويقول إنّ «التخلّص من تلك البدعة طهّرت البلد من الإرهاب[4]».

لكنّ هزيمة العام 1967 غيّرت المشهد تمامًا. فقد انهار الحلم بعالم عربيّ موحّد وقويّ، ليبرز محلّه مفهوم الأمّة الإسلاميّة. ودخلت المملكة العربيّة السعوديّة إلى المسرح بالبترودولار وعقيدتها الوهابيّة التي تدعو إلى التفسير الحرفيّ لتعاليم القرآن الكريم، وتطبيق الشريعة في المجالات كافّة وإلى إسلام دائم التوسّع. بحث عدد من المصريّين

---

2 جان نويل فيرييه، *L'Egypte entre démocratie et islamisme*، Autrement، 2008، ص. 24.

3 المرجع نفسه، ص. 21.

4 أنور السادات، *Révolte sur le Nil*، المرجع السابق، ص. 169 و175.

عن ملاذ في الدين. واستفاض عدد من الدعاة الأصوليّين في تحاليل تاريخيّة مزيّفة «للتذكير» بأنّ الأمبراطوريّات تنهار حين تبتعد عن الدين. وكان عبد الناصر قد قرّر، وهو على قمّة بلد مثخن بالجراح وتائه وعلى شفير الإفلاس، أن يأخذ ذلك في الحسبان، فأثار في العام 1969 مفاجأة كبرى بإصداره الأمر بإطلاق ألف من الإخوان المسلمين، كما شرع سرًّا في حوار مع قادتهم الذين لجأوا إلى الخارج، وذلك لتحقيق «الوحدة الوطنيّة». ويذكّر إريك رولو بأنّ الإذاعة والتلفزيون المصريّين تلقّيا الأمر عامذاك ببثّ آيات من القرآن الكريم بشكل دوريّ، وبإتاحة فرصة الكلام بأكبر قدر ممكن للدعاة المحافظين[5]. وتدفّقت الأموال السعوديّة على وادي النيل لتمويل بناء المساجد وتأسيس المدارس القرآنيّة والجمعيّات الدينيّة.

في المحصّلة يمكن القول إنّ «إعادة أسلمة» المجتمع بدأت قبل عهد السادات، إلّا أنها اكتسبت ومنذ العام 1971 قوّة جديدة، وبأهداف جديدة.

سعى عبد الناصر إلى السيطرة على مرجعيّات الإسلام الرسميّة الثلاث، أي جامع وجامعة الأزهر، المؤسّسة الأعلى مكانة في العالم السنّيّ، ومفتي الجمهوريّة الذي يسهر على مطابقة قرارات الدولة للشريعة الإسلاميّة، ووزارة الأوقاف الدينيّة التي تشرف على الدعاة وبناء المساجد والأعمال الخيريّة. سلك السادات الدرب عينها، وأضاف إلى تلك المرجعيّات مجلسًا لجمعيّات الطرق الصوفيّة مكلّفًا بإدارة كلّ الأنشطة الصوفيّة، سواء أكانت عامّة أو خاصّة. وهذا ما سمح له، كعبد الناصر، بالحصول على شرعيّة دينيّة لسياسته. على مضض، دعم علماء الدين سياسته الاقتصاديّة كما سياسته الخارجيّة. إلّا أنّهم نالوا في

5 إريك رولو، المرجع السابق، ص. 190.

المقابل حقّ الاطّلاع على مطابقة القوانين للشريعة الإسلاميّة، ومن ثمّ حقّ الرقابة على الكتب أو الأفلام. لكنّ دخول الوظيفة العامّة جعلهم يخسرون جزءًا من مصداقيّتهم في أعين الجمهور، فاستفاد من ذلك المبشّرون الإسلاميّون.

إذا كان السادات قد دعا إلى عودة القيم التقليديّة، وغازل الجمعيّات الأصوليّة، فلأنّه وضع نصب عينيه هدفًا سياسيًّا محدّدًا، وهو القضاء على الشيوعيّين والاشتراكيّين الناصريّين، ومعهم، الديمقراطيّون الليبراليّون. يقول جيل كيبيل: «عبر تشجيع الحراك الإسلاميّ، تخلّى السادات عن احتكار الدولة للإيديولوجيا، وعن محاولة السيطرة على رجال الدين، اللذين أوجدهما سلفه. فحيث كانت الدولة الناصريّة تعبّئ الجماهير بواسطة القوميّة، وتقمع كلّ فكرة منشقّة، عوّض خلفه عن الضعف العقائديّ لنظامه، بترك حريّة التعبير للّاعبين الدينيّين المستقلّين لكي يشلّوا حركة اليسار. وحدثت عمليّة إطلاق الحريّات النسبيّة للدين، بينما بقي المجال السياسيّ المحض تحت المراقبة الصارمة. لم يكن من وجود لحريّة صحافة حقيقيّة، ولا لسوق حرّة للأفكار، إلّا في داخل المساجد، من خلال خطاب دينيّ، عرف الإسلاميّون كيف يتلقّفونه لمصلحتهم[6]».

منذ وصوله إلى السلطة، أطلق السادات سراح إسلاميّين معتقلين، وسمح بعودة قادتهم الذين هربوا من القمع إلى الخارج. وبعد ذلك، أصدر قرارًا بالعفو عن كلّ الذين لا يزالون في السجون وقد صدرت بحقّهم أحكام قبل «ثورته التصحيحيّة». بعد تحريرهم، واصل الناشطون الإسلاميّون معركتهم بطرق مختلفة. فالأكبر سنًّا بينهم توصّلوا إلى مساومة مع النظام للدفاع علنًا عن أفكارهم. لكنّ جيلًا آخر، أصغر سنًّا،

[6] جيل كيبيل، *Djihad. Expansion et déclin de l'islamisme*، Gallimard، 2000، ص. 68.

اختار العنف، والعمل السريّ. وعلى نحو موازٍ، تولّى طلّاب، تدعمهم السلطات، مهمّة «تنظيف» الجامعة.

باسم الديمقراطيّة، وباسم حريّة التعبير سمح السادات بوجود مجموعات دينيّة في الجامعات. ومع بدء العام الجامعيّ 1972-1973 تأسّس تنظيم إسلاميّ في كلّية البوليتكنيك في القاهرة. كان تأثيره ضئيلًا آنذاك بين الماركسيّين، لكنّه استفاد من مساعدة جهاز المخابرات. وفي نهاية ذلك العام الجامعيّ أبصرت النور أولى المخيّمات الصيفيّة التي تقيمها الجماعات الإسلاميّة، حيث يتمّ تعليم القرآن الكريم، إضافة إلى تقنيّات التبشير الدينيّ، إن لم نقُل فنون القتال. وفي الصيف التالي ضمّ مخيّم جامعة القاهرة خمسمئة مشترك، وحضر السكرتير الأوّل للحزب الأوحد حفلة اختتام المخيّم. ومن جهته، افتتح عميد جامعة الأزهر مخيّم المنصورة.

مُنح الأصوليّون ضمانات. وفي حين كان صعبًا الحصول على إذن ببناء كنيسة، شُيِّدت الجوامع في كلّ مكان. وأقيمت المُصَلَّيات في الإدارات العامة أو في الطوابق السفليّة للمباني الفخمة. وبدأ الناس يرون ظهر أيّام الجمعة أشخاصًا يصلّون في الطرقات، ويعرقلون حركة السير. وباتت الإذاعة والتلفزيون يقطعان برامجهما خمس مرّات يوميًّا للدعوة إلى الصلاة. كما مُنع المصريّون غير المسلمين من شراء المشروبات الروحيّة واستهلاكها في شهر رمضان.

11

سنة اللاحسم

في خلال جنازة عبد الناصر، أسرّ أنور السادات في أذن الممثّل الرسميّ للولايات المتّحدة الأميركيّة، إليوت ريتشاردسون: «جرّبوني تجدوا رجلًا آخر[1]». مَن هو هذا الرجل؟ وأيّة لعبة يلعبها؟ في واشنطن، شعر القادة الأميركيّون بالحيرة. فما كاد الرئيس يصفّي معارضيه الموالين للسوفيات حتّى وقّع في 27 أيّار/مايو 1971 معاهدة صداقة وتحالف مع الاتّحاد السوفياتيّ. لقد حاذر ناصر نفسه بلوغ هذا الحدّ، فيما كان يتزوّد بالأسلحة من موسكو، وانتهى به الأمر باستقبال نحو خمسة عشر ألف مستشار عسكريّ سوفياتيّ.[2]

في 5 حزيران/يونيو 1971، أي في ذكرى حرب الأيّام الستّة الكارثيّة، أعلن السادات «سنة الحسم»، مؤكّدًا: «لن نسمح بمرور سنة 1971 من دون أن نقرّر حلًّا، سواء أكان بالسلم أو بالحرب، حتّى ولو اضطررنا إلى التضحية بمليون إنسان خلافًا لما يمكن توقّعه، لقي هذا الإعلان ترحيبًا

---

1 بيار ميريل، المرجع السابق، ص. 28.

2 كان المستشارون العسكريّون السوفيات يتألّفون من لواءين جوّيين ومن فرقة دفاع مضادّة للطائرات، قوامها مئة مقاتلة ميغ 21، وأربع طائرات استطلاع ميغ 25، وستّين بطاريّة صواريخ مضادّة للطائرات سام 2 وسام 3.

واسعًا، لأنّ معظم المصريّين لم يعودوا يتحمّلون حالة الشكّ السائدة منذ أربع سنوات. فالموازنة العسكريّة لمصر بلغت 1،6 مليار دولار، أي ما يوازي 21% من إجماليّ الناتج القوميّ، وكانت أعداد كبيرة من الشبّان تخضع لتجنيد إجباريّ لا ينتهي. كما بقي حجب أنوار المنازل والسيّارات ساري المفعول بشكل كامل في منطقة قناة السويس، حيث تواصلت الاشتباكات مع القوّات الإسرائيليّة. وحتّى في القاهرة، عاش الناس حالة من الترقّب، وبقيت أكياس الرمل على مداخل المباني لحمايتها. لذلك كان في «سنة الحسم» ما يحمل على الإعجاب، حتّى ولو ذكّر المشكّكون بأنّ عبد الناصر كان قد وصف الأعوام 1968 و1969 و1970 على التوالي بـ«سنة الحسم»...

لم يكتفِ السادات بأن «راح يشاهد بانتباه كامل» كلّ مساء أفلامًا عن الحرب السابقة في الطابق السفليّ من منزله الذي حوّله إلى صالة صغيرة للسينما كما تروي زوجته[3]. بل ضاعف لقاءاته مع مستشاريه العسكريّين. وفي 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1971، أعلن رسميًّا للقوّات المسلّحة: «حانت ساعة المعركة»، فحبست مصر أنفاسها. لكنّ العام الجديد بدأ ولم يحدث شيء. وفي 13 كانون الثاني/يناير التالي، شرح الرئيس في خطاب إذاعيّ إلى الأمّة أنّ «الضباب السياسيّ» الذي أحدثه الصراع بين الهند وباكستان، والذي تورّط فيه الاتّحاد السوفياتيّ مباشرة، أرغمه على تأجيل العمل العسكريّ المنتظَر. الضباب! سرّ مطلقو النكات بذلك سرورًا لا يوصف. ونسبوا إلى السادات من جملة ما نسبوه إليه نيّته أن يمدّد بقرار رئاسيّ السنة الجارية اثنَي عشر شهرًا...

لكنّ المزاح لم يكن شأن الجميع. فقد طالب طلّاب يساريّون بتلقيّ تدريب عسكريّ لتشكيل ميليشيا قادرة على مساعدة الجيش، وطلبوا

[3] جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 306.

من الرئيس المجيء إلى جامعة القاهرة لشرح موقفه لهم، واحتلوّها في انتظار مجيئه، فهاجمت قوّات الشرطة حرم الجامعة في 24 كانون الثاني/يناير واعتقلت 1500 شخص. ووقعت مواجهات بين الطلبة وقوّات الأمن في ميدان التحرير الذي تحوّل إلى ساحة معركة. لم يؤدّ ذلك إلّا إلى تصعيد الموقف الراديكاليّ للمعترضين، الذين رفضوا كلّ حلّ سلميّ للصراع العربيّ الإسرائيليّ، وطالبوا بخوض حرب تحرير.

طرد السوفيات

في خلال الأشهر السبعة الأولى التي أعقبت تولّي السادات الرئاسة، زار موسكو أربع مرّات للمطالبة بأسلحة وبعتاد عسكري. فكان الكرملين يزوّده إيّاها «بالقطّارة»، وتسلّمت مصر صواريخ سام وجزءًا من الذخائر الموعودة، لكنّها لم تتسلّم مقاتلات. فالسوفيات ارتابوا بهذا الحليف، القريب من القادة السعوديّين، وشكّوا في أنّه يتوجّه بأنظاره نحو أميركا. ولم يكونوا على خطأ، فخليفة عبد الناصر كان مقتنعًا بأن مفتاح العالم في يد الولايات المتّحدة الأميركيّة.

في 6 تمّوز/يوليو 1972، أبلغ السادات سفير الاتّحاد السوفياتيّ في القاهرة – الذي أصابه الذهول – بأنّه قرّر الاستغناء عن خدمات الخبراء السوفيات الخمسة عشر ألفًا الموجودين في مصر، وإعادتهم فورًا إلى بلدهم. وفي اليوم التالي استدعى وزير دفاعه الفريق صادق إلى مقرّ إقامته في استراحة القناطر، شمال القاهرة، وأبلغه قراره. لم يصدّق الضابط الرفيع أذنيه. وبرغم انتقاده الشديد للاتّحاد السوفياتي، فقد أشار إلى مخاطر اتخاذ خطوة كهذه: فالروس يسهمون إسهامًا فعّالًا في مسؤوليّة الدفاع الجويّ وفي أنظمة الكشف الإلكترونيّ. لكنّ السادات

قال له: «دعوتك لكي أخطرك بالقرار وليس لمناقشته[4]». وحين أعلن على الأمّة قراره بعد أيّام قليلة، لم يتكلّف عناء العثور على صيغة دبلوماسيّة لكلامه، بل قال: «قرّرتُ طرد الخبراء السوفيات».

هلّل معظم المصريّين لهذا القرار، فهم لم يحبّوا قطّ أولئك الملحدين الذين يجرحون بإيديولوجيّتهم الشيوعيّة مشاعر أبناء الشعب. كما أنّ الروس بعيدون، ويحتقرون المصريّين، ومشهورون بالبخل. وهم لا يشبهون في شيء الأميركيّين الذين يمثّلون الوجه الجديد للاستعمار، لكنّهم محلّ إعجاب ومصدر جاذبيّة. السوفيات سيرحلون؟ إلى بئس المصير!

إنّ أيّ شخص غير السادات كان ليحاذر في التصرّف مع حليف بأهمّية الاتحاد السوفياتيّ، فيفاوض مثلًا على انسحاب تدريجيّ للخبراء. لكنّ ذلك لم يكن أسلوب السادات السياسيّ. فهو، وكما أشار علي السمّان الذي عمل معه، يفضّل «الوثبات الكبيرة على الخطوات الصغيرة» ومستعدّ لاستخدام ما يدعوه «الصدمات الكهربائيّة لتحريك مياه الدبلوماسيّة الراكدة[5]».

في واشنطن، أثارت خطوة السادات الدهشة. لا شكّ بأنّ السادات قد اتّصل سرًّا بالبيت الأبيض في نيسان/أبريل، لكنّه لم يطلع الأميركيّين على مشروعه قطّ. يؤكّد كيسنجر في مذكّراته أنّ «المفاجأة كانت شاملة[6]». لماذا لم يفاوض الرئيس الأميركيّين على طرد الخبراء السوفيات؟ فقد قيل في واشنطن: «كنّا مستعدّين لدفع ثمن جيّد لذلك».

أقنعت تلك الخطوة الخاطفة للأبصار الجميع، أي الولايات المتّحدة، والاتّحاد السوفياتيّ وإسرائيل، أنّ السادات عدل عن شنّ الحرب.

---

4 حسبما روى الفريق سعد الدين الشاذلي، *La Traversée de Suez*، الجزائر، Société nationale d'édition et de diffusion، 1983، ص. 131.

5 علي السمان، المرجع السابق، ص. 151.

6 هنري كيسنجر، *A la Maison Blanche 1968-1973*، المرجع السابق، ص. 1351.

أليس كلّ عتاد مصر العسكريّ سوفياتيًّا، وبالتالي، ألا تعتمد القاهرة كلّيًا على موسكو لتزويدها بقطع الغيار والذخائر؟ هكذا، لم تؤخذ إيحاءات الرئيس بالحرب على محمل الجدّ. أمّا في مصر فقد تضاعفت الانتقادات، واضطرمت النفوس غضبًا. وفي 29 كانون الأوّل/ديسمبر، سارت مظاهرات اعتُقل على أثرها مئات الطلّاب والمثقّفين والعمّال.

في شهر شباط/فبراير من العام 1973، نُشر في الصحف اللبنانيّة بيان بعنوان «لا حرب ولا سلم»، كتبه توفيق الحكيم، وحمل تواقيع عدّة كتّاب أبرزهم نجيب محفوظ... استنكر البيان «الضريبة الفادحة من الموارد المصريّة الماليّة والإنسانيّة» التي تُبذل في سبيل معركة «تبدو إشكاليّة أكثر فأكثر»، ودعا بعبارات غير صريحة إلى حلّ الصراع العربيّ الإسرائيليّ بالمفاوضات. أثار ذلك البيان استياء السادات الشديد، فاتّهم توفيق الحكيم بأنّه يكتب «بقلم يقطر بالحقد الأسود الذي يملأ قلبه»، وأقال موقّعيه من كلّ وظائفهم، ومنع نشر أعمالهم. لكنّ هذه التدابير تمّت العودة عنها في 28 أيلول/سبتمبر، عشيّة حدث لم يتوقّعه أحد.

12

القائد العسكريّ

بقيت خسارة سيناء في حزيران/يونيو 1967 أصعب من أن يتحمّلها المصريّون. وكان السادات يفهم ذلك جيّدًا خصوصًا وأنّ جذوره فلّاحيّة، فالأرض بالنسبة إليه ترتبط ارتباطًا حميمًا بالشرف والكرامة. وقد قال: «الأرض هي أقدس ما منحنا الله إيّاه[1]». كما أنّ احتلال سيناء كان يؤلمه على نحو خاصّ، فتلك المنطقة كانت مركزًا لخدمته العسكريّة في بداية الخمسينيّات بعد إعادته إلى الجيش.

لم يكن الوقت في مصلحة مصر. فكلّما طال بقاء الوضع على ما هو عليه، كان العالم يعتاده أكثر فأكثر. كيف السبيل إلى الخروج من ذلك الطريق المسدود؟ أدرك السادات أنّ وقفًا دائمًا لإطلاق النار مع إسرائيل، ترافقه إعادة فتح قناة السويس، سيحظى برضى القوّتين العظميين اللتين شرعتا في عمليّة انفراج، لكنّه سيحرم مصر من أيّة فرصة في باسترجاع سيناء. من جهة أخرى، لاحظ عبء الإنفاق العسكريّ على اقتصاد منهار، والصبر الآخذ بالنفاد للمصريّين الذين لم يهضموا مذلّة العام 1967. ألم يقل هنري كيسنجر، المفكّر الاستراتيجيّ الأميركيّ الكبير، إنّ الصراعات

---

[1] مقابلة مع التلفزيون المصري، 25 كانون الأوّل/ديسمبر 1978.

الكبرى تُحَلّ «على نار حامية»؟ وبالتالي، ألن يكون مناسبًا «تسخين» الجبهة، لكن من دون التمادي بعيدًا، علمًا بأنّ للإسرائيليّين واحدًا من أفضل جيوش العالم، ومن المحتمل جدًّا أن يكونوا يمتلكون السلاح النوويّ؟

في 24 تشرين الأوّل/أكتوبر 1972، دعا السادات قادة القوّات المسلّحة إلى مقرّ إقامته في الجيزة، وشرح لهم في مداخلة طويلة جدًّا أنّ هجومًا عسكريًّا محدودًا سيسمح بتحريك الوضع الجامد. لن يكون الهدف منه تدمير إسرائيل، بل الوصول إلى الضفّة الثانية للقناة. حذّره كبار القادة من عمليّة لا يمكن السيطرة عليها، قد تؤدّي إلى حرب شاملة وتهدّد مصالح مصر. لكنّه أعادهم بفظاظة إلى حجمهم، قائلًا لهم: «كلّ واحد لازم يتكلّم في حدوده، لا تتدخّلوا في ما ليس في اختصاصكم. أنا لا أقبل من أحد أن يفهّمني واجبي[2]».

يروي السادات في مذكّراته قصّة هذا الاجتماع على طريقته: «قلت لهم: آسف، أنا جاي النهار ده وفاكر أنّكم جاهزين لتنفيذ أيّ خطّة نضعها. أقوم ألاقي الخطّة الدفاعيّة منهارة[3]؟». وإذا أردنا تصديق ما قاله، فبعد شهر «أصبحت الخطّة الدفاعيّة كاملة، وهم بصدد إعداد تجهيزات الهجوم». الواقع أنّ عبد الناصر كان قد ترك خلفه خطّة دفاعيّة في الأساس، وكلّف القادة العسكريّين تحويلها إلى خطّة هجوميّة.

غداة ذلك الاجتماع، أقال السادات الضبّاط الذين تجرّأوا على الردّ عليه، كما استبدل وزير الحرب الفريق محمّد صادق، ناعتًا إيّاه بالكاذب و«الانهزاميّ»، ليعيّن مكانه مدير جهاز المخابرات، الفريق أحمد اسماعيل علي. وقد قام بذلك برغم علمه أنّ بين هذا الأخير وبين رئيس

---

2 الفريق سعد الدين الشاذلي، المرجع السابق، ص. 145.

3 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 342-343.

الأركان العامّة، الفريق سعد الدين الشاذلي، الشابّ واللامع، تاريخًا طويلًا من العلاقات السيّئة.

منذ حرب الأيّام الستّة، قام السوفيات بتزويد مصر بعدّة أسلحة من الجيل الجديد، من بينها دبّابة ت 62، أو النسخة الأخيرة من الطائرة الحربيّة ميغ 21. يشرح الاختصاصيّ في الشؤون العسكريّة بيار رازو أنّ السادات يدرك مواطن قوّة الإسرائيليّين: «تفوّق جويّ غير منازَع، وخبرة ممتازة في عمليّات المدرّعات، وسيطرة تكنولوجيّة كبيرة، ومفهوم تعبئة فعّال، يرافقه تدريب صارم لجنود الاحتياط». لكنّه كان يراهن على نقاط ضعف خصمه: «طول خطوط اتّصاله الجديدة، وعدم قدرته على أن يتحمّل اقتصاديًّا صراعًا طويلًا، واستحالة تحمّله خسائر بشريّة كبيرة، وعقدة تفوّقه التي تعمي بصيرته[4]».

أقام الإسرائيليّون على الضفّة الشرقيّة لقناة السويس خطّ بارليف، الذي اشتُهر بأنّه مستحيل العبور. وأدرك السادات أنّ محاولة عبور الممرّ المائيّ ستصطدم بثلاث عقبات كبرى. أوّلًا، القناة عينها والتي يبلغ عرضها من 180 إلى 200 متر، وتحيط بها حافّتان إسمنتيّتان عاليتان، وقد تتحول إلى بحر من النيران إذا ما صبّ العدوّ فيها احتياطيّه من السوائل القابلة للاشتعال. ثانيًا، ساتر ترابيّ يرتفع عشرين مترًا أقيم على طول الضفّة لا تستطيع المتفجّرات اختراقه. وثالثًا، سلسلة من الدفاعات بينها مخابئ محصّنة ومواقع رماية للدبّابات، تحميها حقول ألغام وأشرطة شائكة. مع العلم أنّ خلف كلّ تلك التحصينات، أقام الإسرائيليّون خطّين دفاعيّين آخرين، معزّزين بتجمّعات للمدرّعات والمدفعيّة.

إلّا أنّ قادة جيش السادات وجدوا بعض الحلول. فالبحر المشتعل تتولّى أمره وحدات برمائيّة من السبّاحين، بملابس مقاومة للنيران،

4 بيار رازو، *La Guerre du Kippour d'octobre 1973*، Economica، 2011، ص. 33.

ومزوّدين بمطافئ كيميائيّة. أمّا الساتر الترابيّ، فتستطيع ثقبه 450 مضخّة مائيّة موضوعة على متن زوارق مطّاطيّة. ومن جهة أخرى يمكن الاعتماد على سلاحَي المدفعيّة والطيران اللذين يحظيان منذ عدّة سنوات بقدر كبير جدًّا من التعزيز والتحديث بمساعدة السوفيات، بالرغم من تذمّر الرئيس المتواصل بأنّ ما تمّ تقديمه من السوفيات حتى ذلك الحين غير كافٍ، ومطالباته المتكرّرة للكرملين.

عمليّة التعمية

بعدما قرّر السادات الحرب، جهد في إقناع الإسرائيليّين بعكس ذلك. وها هو قد لاحظ راضيًا أنّ طرد الخبراء السوفيات قد فُسّر على أنّه تخلٍّ عن الخيار العسكريّ. وكلّما زادت تهديداته وتلويحاته بالحرب، قلّ أخذه على محمل الجدّ. وفي الأوّل من نيسان/أبريل 1973 أكّد لمجلّة نيوزويك قائلًا: «أغلقت إسرائيل في وجهي وبمباركة من الأميركيّين، كلّ الأبواب التي فتحتُها». وأضاف يقول: «باتت العودة إلى الحرب أمرًا حتميًّا الآن، والبلد كلّه مستنفَر لهذه الغاية».

وإمعانًا في التضليل، أوهم السادات العالم في أيّار/مايو 1973 بأنّ الهجوم بات وشيكًا، بعدما أعلن نفسه قائدًا أعلى للقوّات المسلّحة (وكذلك رئيسًا للوزراء ورئيسًا للحزب الأوحد). وسرعان ما قرّر الإسرائيليّون استدعاء جنود الاحتياط وعزّزوا خطوط دفاعهم. لكنّهم لم يروا شيئًا يقترب ناحيتهم، سوى أنّ تلك الاستعدادات كلّفتهم ملايين الدولارات. أمّا في مصر فقد انطلقت ألسنة الظرفاء بالتعليقات: «غولدا مائير تجعلنا نموت خوفًا، أمّا أنور بك فيجعلنا نموت ضحكًا».

تواصلت عمليّة التضليل. فراحت الصحافة العربيّة التي تكفّلت «مصادر موثوقة» بتزويدها بالأخبار، تتحدّث بوتيرة منتظمة عن الصعوبات

التي تواجهها الجيوش المصريّة: حادث من هنا، وخلل من هناك، ونقص فادح في قطع الغيار في هذه القطعة العسكريّة، ثمّ في تلك...

في أيلول/سبتمبر، شارك السادات في قمّة عدم الانحياز في الجزائر، حيث ألقى خطابًا على قدر كبير من الضحالة، يتناقض مع مداخَلَتَي فيدل كاسترو ومعمّر القذّافي اللافتتين. كما أجرى المراسلون الخاصّون لجريدة لوموند الفرنسيّة مقابلة معه دامت ساعتين. ويتذكّر جان لاكوتور، فيقول: «لم نأخذ منه سوى القليل جدًّا، لدرجة أنّ إدارة لوموند تردّدت في الصباح التالي في نشر الحديث المتّسم بالبلادة لذلك المتقاعد المنهَك القوى. لم يسبق قطّ لرجل أن عرف كيف يغذّي بهذا القدر تفاهته الواضحة للعيان[5]».

إتّفق السادات سرًّا مع حافظ الأسد على أن تشترك القوّات السوريّة والمصريّة بشنّ هجوم في 6 تشرين الأوّل/أكتوبر. واختير هذا التاريخ لأسباب كثيرة، ففيه يقع عيد الغفران اليهوديّ، وهو يوم صيام في إسرائيل حيث تتوقّف حركة النقل؛ ويشرق البدر فيه مكتملًا حتّى انتصاف الليل، ما يسهّل بناء الجسور، يلي ذلك ظلام دامس يسمح بعبور القناة بشكل آمن تمامًا؛ كما أنّ سرعة التيّار ومعدّل المدّ سيكونان مثاليّين. حُدِّد موعد بداية الهجوم عند الساعة الثانية بعد الظهر، وهو أمر غير مألوف، لأنّه كان يجب التوفيق بين رغبات الحليفين. فالمصريّون كانوا يفضّلون انتظار مغيب الشمس لإزعاج الطائرات العدوّة، فيما أراد السوريّون الهجوم عند الفجر لكي تكون الشمس في عيون الإسرائيليّين. فتمّ الاتّفاق على حلّ وسطيّ.

في الأسابيع التي سبقت الهجوم، كانت كلّ الوسائل مقبولة لخداع العدوّ. فقد أرسِل عدّة وزراء مصريّين في مهامّ إلى الخارج. واستعدّت

---

[5] جان وسيمون لاكوتور، «Portrait de Sadate»، *Jeune Afrique*، 16 أيلول/سبتمبر 1981.

السلطات لاستقبال الأميرة مارغريت في زيارتها المتوقّعة يوم 7 تشرين الأوّل/أكتوبر. وأعلن وزير الحرب على الملأ عن منح إجازات للعسكريّين الراغبين في قضاء مناسك العمرة في مكّة المكرّمة. وامتنع السادات عن أيّ ظهور علنيّ، وأشيع أنّه مريض وربّما يتلقّى العلاج في أوروبّا. وأُعلِن عن إجراء مناورة عسكريّة – جديدة – في منطقة القناة. وجرى استدعاء جنود الاحتياط، ثمّ تسريحهم...

أطلع السادات الملك الأردنيّ حسين والملك السعوديّ فيصل على نيّته شنّ حرب، من دون أن يحدّد لهما تاريخها. وكذلك فاتح بالأمر شاه إيران، في خلال لقاء سرّي في طهران[6]. وفي 3 تشرين الأوّل/أكتوبر علم السوفيات بالأمر، فقاموا يومَي 4 و5 تشرين الأوّل/أكتوبر، بإجلاء موظّفيهم مجازفين بلفت انتباه الإسرائيليّين. وضع هؤلاء جيشهم في حالة تأهّب، من دون أن يصدّقوا فعلًا احتمال وقوع حرب. وقد أبلغهم العميل المزدوج أشرف مروان، صهر عبد الناصر[7]، بأنّ هجومًا وشيكًا سيقع. لكنّه ذكر لهم أنّ موعد الهجوم هو عند السادسة مساء، وتلك معلومة إمّا أنّها نتيجة خطأ في التفسير أو تلاعب متقَن، – فالموعد المقرّر لبدء الأعمال الحربيّة هو قبل ذلك بأربع ساعات. وتضاعفت الرسائل المتناقضة. أمّا عامل التضليل الأهمّ، فكان في استرخاء عدد كبير من الجنود المصريّين على الضفّة الغربيّة للقناة، وهم «يمصّون

---

6 هوشانغ نهوندي وإيف بوماتي، *Mohammad Réza Pahlavi, le dernier shah (1919-1980)*، Perrin، 2013، ص. 394.

7 في العام 1978 قلّد السادات أشرف مروان وسامًا، ونعته بالبطل الوطنيّ. لكنّ الرجل الذي خاض عالم الأعمال وحقّق الثراء الواسع لقي حتفه في 27 حزيران يونيو 2007 في لندن، بعدما سقط لسبب مجهول من شقّته الواقعة في الطابق الخامس. وكان يوشك آنذاك على نشر مذكّراته. وتلك الحادثة تعيد إلى الأذهان، على نحو مثير للقلق، حادثة موت اللواء الليثي في العام 1973.

قصب السكّر» وكأنّهم في إجازة. وبعد كثير من المماطلة والاضطراب، قرّرت إسرائيل إعلان التعبئة العامّة في نهاية الصباح.

عشيّة 6 تشرين الأوّل/أكتوبر، طلب السادات من زوجته أن تحزم له ملابسه العسكريّة لأنّه سيقضي الليلة التالية خارج المنزل. وقد أدركت السبب طبعًا. أما ترامى إلى سمعها ما قاله قبل أيّام لوزير الدفاع: «أريد أن يسجَّل كلّ هذا على فيلم ليكون تاريخيًّا؟». ويوم 5 تشرين الأوّل/أكتوبر، بادرته إلى القول وهما يتنزّهان في حديقة منزلهما: «إذا ذهبتَ إلى الحرب وفشلتَ، فلن يدينك أحد». لكنّه توقّف فجأة، ونظر في عينيها وقال: «إنّني على يقين بأنّني سوف أنتصر[8]». وفجر اليوم التالي، سألته بعد الانتهاء من حزم حقيبته: «هل أدع الأولاد يذهبون إلى المدرسة اليوم؟». أجابها: «بالطبع، ولمَ لا[9]؟».

نتيجة تتجاوز كلّ الآمال

يوم السادس من تشرين الأوّل/أكتوبر، عند الساعة الواحدة والنصف ظهرًا، وصل أنور السادات بالزيّ العسكريّ يرافقه وزير الحرب إلى غرفة العمليّات. وهناك، طغى رنين الهاتف وضجيج أجهزة التلكس على أحاديث الضبّاط الموجودين. في ذلك العام، صودف أن جاء عيد الغفران اليهوديّ... في شهر رمضان. سبق أن صدرت التعليمات، بعد موافقة السلطات الدينيّة، بألّا يصوم الجنود المصريّون، لكنّ ذلك لم يكن بالأمر السهل. فطلب السادات الشاي وأشعل غليونه، ليحضّ الآخرين على أن يحذوا حذوه. الواقع أنّ هدوءه لم يكن سوى ظاهريّ، فبمجابهته

---

8 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 312-313.

9 المرجع نفسه، ص. 314.

أفضل جيش في الشرق الأوسط، الجيش الذي ألحق بالعرب الهزيمة تلو الهزيمة، كان يدرك أنّه يراهن لا بمنصبه فقط، بل بمستقبل مصر.

أُطلِق على العمليّة اسم بـدر، تيمّنًا باسم المنطقة الواقعة بين المدينة المنوّرة ومكّة المكرّمة، حيث انتصر النبيّ محمّد على أعدائه في العام 624 (م). وكما في 6 تشرين الأوّل/أكتوبر 1973، وقعت تلك المعركة خلال شهر رمضان. كما أنّ للتسمية دلالة اكتمال البدر...

عند تمام الساعة الثانية بعد الظهر أعطى السادات الأمر بالهجوم، فتحرّكت آلة هائلة. وأطلق ألفا مدفع مصريّ وابلًا من النيران على الضفّة الثانية للقناة، فيما قامت طائرات ميغ وميراج بقصف المواقع العدوّة، وانطلقت مئات الزوارق المطاطيّة على دويّ هتافات «الله أكبر» التي صدحت من مكبّرات الصوت. وفي الوقت عينه شنّت ثلاثة فرق من الجيش السوريّ هجومًا في الجولان.

إعتمد السادات على عنصر المفاجأة، لا على الخلل في منظومة الدفاع الإسرائيليّة. فالواقع أنّ حالة تكاد تصل إلى مرتبة الهلع سيطرت على جارته القويّة. وحين اندفعت أولى دبّابات الجيش الإسرائيليّ نحو الجبهة وسط سحابات من الغبار، كانت موجة الهجوم الأولى قد بلغت الساتر الترابيّ، وبدأ تركيب المضخّات المائيّة لاختراقه. وقام جنود من المشاة المصريّين يحملون على ظهورهم صواريخ سوفياتيّة جديدة مضادّة للدبّابات بتسلّق الساتر، ثمّ تجاوزوا التحصينات راكضين لقصف المدرّعات والمدافع الإسرائيليّة. لم يستطع الإسرائيليّون حتّى إضرام النيران في مياه القناة، لأنّ جنود سلاح الهندسة المصريّ تولّوا سدّ أنابيب السائل الملتهب في الليلة السابقة. أمّا مقاتلات ميراج وسكايهوك الإسرائيليّة التي انطلقت من بين كثبان الرمل في سيناء، فقد اصطدمت لا فقط بمنصّات الصواريخ المنصوبة على طول الضفّة الغربيّة للقناة، بل

أيضًا بمظلّة فولاذيّة غير منتظَرة، شكّلتها صواريخ سام 6 المنصوبة على عربات، وصواريخ سام 7 التي حملها وأطلقها جنود المشاة العاديّون.

في غرفة العمليّات، بات بوسع أنور السادات أن يهلّل فرحًا، وهو يتابع بنظره الخرائط الجداريّة حيث يتواصل وميض الإشارات المضيئة. عند الساعة الثالثة والربع، كانت عشرون كتيبة من المشاة قد عبرت القناة ووصلت إلى الضفّة الثانية. وفي المساء، وبعد فتح ستّين ثغرة في الساتر الترابيّ، تمّ تركيب اثنَي عشر جسرًا سمحت لأعداد لا تحصى من الدبّابات والعربات المدرّعة والمعدّيات بعبور القناة. وبعد أربع وعشرين ساعة على بدء الهجوم، كان مئة ألف رجل قد تمركزوا على الضفّة المقابلة. في اليوم التالي، وبرغم الهجمات الإسرائيليّة المضادّة، احتلّت القوّات المصريّة قطاعًا عرضه خمسة عشر كيلومترًا على طول الممرّ المائيّ.

ملأت عمليّة بدر قلب السادات فرحًا. وآنذاك أطلعته جيهان على ما أُخفيَ عنه ليومين، وهو أنّ طائرة ميراج التي يقودها شقيقه الصغير عاطف، وهو طيّار عسكريّ، قد أُسقِطت في خلال الدقائق الأولى للمعركة. كان فرق العمر بينهما تسعة وعشرين عامًا، ممّا جعل أنور يرى فيه ابنًا لا شقيقًا. وتروي جيهان قائلة: «رأيتُ الدموع تملأ عينيه، وذلك للمرّة الثانية في حياتي. لقد بكى أنور مرّة واحدة من قبل عندما ماتت أمّه بين ذراعيه[10]».

الهجوم الإسرائيليّ المضادّ

تلقّى المعسكران التعزيزات، فالمغرب بعث إلى مصر بلواء من المشاة، كما أرسلت يوغوسلافيا دبّابات، فيما أرسلت الجزائر دبّابات أيضًا،

---

[10] المرجع نفسه، ص. 318-319.

إضافة إلى ثلاثة أسراب من المطاردات القاذفات. وقدّم إليه شاه إيران نصف مليون طنّ من البترول، فيما قام السوفيات (الذين سُمح لطائراتهم باستخدام المجال الجويّ الإيرانيّ) بتزويده بالأسلحة والذخائر. من جهتها، ولتعويض خسائرها، استفادت إسرائيل من جسر جويّ هائل أقامته الولايات المتّحدة. لم تكن أيّة من القوّتين العظيمتين قادرة على القبول بأن تخسر زبونتها وحليفتها هذه المنازلة. أبعد من الاعتبارات الجيوسياسيّة، كانت موثوقيّة عتادها على المحكّ.

إستعاد الإسرائيليّون توازنهم وبدأوا بشنّ هجمات مضادّة خطرة. وألحّ السوريّون الذين يواجهون مصاعب في الجولان على السادات بمواصلة هجومه شرقًا لتخفيف العبء عن جبهتهم. لقي هذا الطلب دعمًا شديدًا من السفير السوفياتيّ في القاهرة الذي لم يبارح مقرّ الرئاسة المصريّة. إعترض الفريق الشاذلي على توسيع القتال على هذا النحو، من دون تغطية جويّة كافية، لكنّه امتثل على مضض بناءً على أوامر السادات. واجتاز جزء من احتياط المدرّعات المصريّة القناة في 12 تشرين الأوّل/أكتوبر. وفي اليوم التالي دارت أكبر معركة دبّابات شهدها العالم منذ الحرب العالميّة الثانية، وانكفأ المصريّون بعد الظهر بعدما تكبّدوا خسائر فادحة.

مع هبوط الظلام مساء 15 تشرين الأوّل/أكتوبر، نجحت فرقة إسرائيليّة بقيادة أرييل شارون في الوصول إلى قناة السويس، ثمّ في عبورها، بمواجهة الدفرسوار. في اليوم التالي، لم يكن السادات قد اطّلع على ذلك بعد حين استُقبل استقبال الأبطال في مجلس الشعب[11] ليلقي خطابًا. كان الفريق الشاذلي يرغب في إعادة جزء من القوّات المصريّة إلى الضفّة الشرقيّة، لكنّه اصطدم بمعارضة وزير الحرب والرئيس. فهذا الأخير لم يرد أن يرى

[11] الاسم الجديد الذي أطلقه السادات على مجلس الأمّة اعتبارًا من أيّار/مايو 1971.

جنديًّا مصريًّا واحدًا يغادر سيناء. وقال لرئيس أركان القوّات المسلّحة: «أنت لا تفهم منطق هذه الحرب[12]». وهدّده بالمحاكمة. سيؤكّد الشاذلي لاحقًا: «كان في ثورة عارمة ولا يريد أن يسمع».

وفي 18 تشرين الأوّل/أكتوبر، حين طُبِّقت خطّة الشاذلي جزئيًّا، كان الأوان قد فات، فقد حوصر الجيش المصريّ الثالث. أشار رئيس الأركان لاحقًا إلى «عدم الكفاءة العسكريّة للسادات»، واتّهمه بـ«التسبّب بخسارة أقوى جيش أنشأته مصر في تاريخها». لكنّ السادات ألقى بمسؤوليّة الهزيمة على عاتق رئيس الأركان، مؤكّدًا أنّ هذا الأخير لو كان نفّذ الأوامر التي صدرت إليه، لَسَهُل القضاء على القوّات الإسرائيليّة التي عبرت القناة...

عُزل الشاذلي من منصبه. ووافق السادات على وقف النار الذي جرى التفاوض عليه بين القوّتين العظميين، لكنّ الإسرائيليّين الذين وصلوا إلى أبواب مدينة الإسماعيليّة، أرادوا مواصلة تفوّقهم. في 22 تشرين الأوّل/أكتوبر، دعا مجلس الأمن الدوليّ إلى وقف عاجل لإطلاق النار، يسري مفعوله بعد اثنتَي عشرة ساعة. لكنّ ذلك لم يمنع الإسرائيليّين من التقدّم أكثر في اتّجاه القاهرة. ولم يتوقّف دويّ المدافع نهائيًّا إلّا في 25 تشرين الأوّل/أكتوبر.

أبرق السادات إلى الرئيس السوريّ يقول: «قبلتُ وقلبي ينزف دمًا وقف إطلاق النار، لأنّني مستعدّ أن أحارب إسرائيل مهما طال الوقت، لكنّني غير مستعدّ على الإطلاق لمحاربة أميركا». وقال إنّ المعركة غير متكافئة: «أميركا وإسرائيل في مواجهتي، والاتّحاد السوفياتيّ في يده الخنجر ويقبع خلف ظهري ليطعنني[13]». وأكّدت زوجته: «بدا حزينًا

---

[12] الفريق سعد الدين الشاذلي، المرجع السابق، ص. 203.

[13] أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 381.

وهو يرى أحلامه باستعادة سيناء تذهب بعيدًا أو تضمحلّ[14]». فقد شهيته للطعام، واكتفى بعصير الفواكه. وفي الأسابيع التي تلت وقف إطلاق النار، خالط الدم بوله.

في 31 تشرين الأوّل/أكتوبر 1973، وفي أثناء مؤتمر صحفيّ، انفجر السادات غاضبًا، فشبّه «العمليّة الميئوس منها في الدفرسوار» بـ«العمليّة الانتحاريّة الألمانيّة في الأردين» فيما كان مصير الحرب العالميّة الثانية قد حُسم. وأكّد أنّ «الإسرائيليّين قلّدوا أساليب النازيّن وطرق غوبلز. كان موضوع الدفرسوار في البداية ثغرة صغيرة، ولا أنفي أنّنا أخطأنا. لكنّ هدفهم الأساسيّ كان القيام بعمليّة نفسيّة كبيرة، ليحّولوها إلى نصر عسكريّ».

على طريقة رمسيس الثاني

ظهر في عدد 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1973 من جريدة لوفيغارو الفرنسيّة، مقال لريمون آرون بعنوان «هزيمة المنتصر». وكان المشهد الذي رسمه المقال عبارة عن لوحة على درجة من الغرابة.

كانت أرقام الخسائر في غير مصلحة المصريّين. فقد سقط لهم 6000 قتيل و12000 جريح، أي ثلاثة أضعاف ما تكبّده الإسرائيليّون على الجبهة الجنوبيّة. كما خسرت مصر 1100 دبّابة و450 مدرّعة، أي ما يوازي ضعفَي خسائر عدوّتها، وما يقارب أربعة أضعاف خسائر الإسرائيليّين من الطائرات (223). أمّا مساحة الأرض التي استُعيدت على الضفّة الشرقيّة لقناة السويس، فكانت أقلّ من مساحة الأرض التي فُقدت على ضفّتها الغربيّة. ووصل العدوّ إلى مسافة مئة كيلومتر من القاهرة، وتحديدًا إلى نقطة الكيلومتر 101.

---

14 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 321-322.

لكنّ هذا لا يمنع أنّ إسرائيل تعرّضت وللمرّة الأولى لضربة مؤلمة على يد جيش عربيّ. كانت 1973 ردًّا على 1967 ولو أنّ سيناء لم تُسترجَع في الوقت الراهن. ويقول الصحفيّ صلاح الدين البيطار إنّ «إسرائيل خسرت الحرب لأنّها لم تحقّق فيها انتصارًا واضحًا؛ كما أنّ العرب ربحوها لأنّهم لم يخسروها[15]». هل بقيت تلك الحرب مباراة بدون أهداف؟ في الحقيقة لا. فالسادات بلغ أهدافه السياسيّة حتّى ولو أظهر حدود قدراته كمخطّط استراتيجيّ عسكريّ.

حين شنّ تلك الحرب لم يكن يدري، ولا شكّ، بأنّه سيتسبّب بهزّة في الاقتصاد العالميّ. طلب السادات في 8 تشرين الأوّل/أكتوبر من منظّمة الدول العربيّة المصدّرة للنفط باتّخاذ خطوات لدعم الهجوم المصريّ السوريّ المشترك. فاستخدم العرب وللمرّة الأولى بطريقة فعّالة السلاح الذي يملكونه. وفي 16 تشرين الأوّل/أكتوبر قرّروا خفض إنتاجهم بنسبة 10% ورفع سعر البرميل من 3 دولارات إلى أكثر من 5 دولارات. وبعد أربعة أيّام قرّرت السعوديّة فرض حظر شامل على تصدير النفط إلى الولايات المتّحدة. وتتالى في الأسابيع اللاحقة خفض الإنتاج ورفع الأسعار. انتهى سعر البرميل بأن بلغ 13 دولارًا في ربيع 1974. لقد أحدثت عمليّة بدر الصدمة النفطيّة الأولى.

والواقع أنّ أنور السادات، بطل العبور الشهير، قد حوّل إلى ملحمة الانتصار العسكريّ الذي حقّقه في بداية المعركة وكاد ينقلب لاحقًا إلى كارثة[16]. وقد فعل ذلك تقريبًا على طريقة رمسيس الثاني، سلفه العظيم، الذي أمضى عهده كلّه في الاحتفال بنصف الهزيمة التي مُني بها أمام الحثّيين في قادش... حتّى أنّ الرئيس أراد استبدال 23 تمّوز/يوليو

---

[15] نقلًا عن جاك ديروجي وهيسي كارمل، *Le Siècle d'Israël. Les secrets d'une épopée 1895-1995*، Fayard، 1994، ص. 219.

[16] في سوريا لُقّب حافظ الأسد، والذي لم ينجح في استعادة الجولان، بـ«أسد تشرين الأوّل».

(تاريخ انقلاب 1952) بـ6 تشرين الأوّل/أكتوبر (بداية عمليّة بدر) ليجعل منه عيدًا وطنيًّا. لكنّ النصائح التي وُجِّهت إليه نجحت في إقناعه بالعدول عن ذلك، فأصبح 6 تشرين الأوّل/أكتوبر عيدًا للجيش، يُحتَفَل به بكثير من مظاهر العظمة في كلّ عام[17]. وحمل عدد من الإنجازات، بدءًا بالمدن الجديدة، أسماء على صلة بالعبور المجيد لقناة السويس: 6 أكتوبر، العبور، العاشر من رمضان... كما كان السادات، وهو من كبار هواة السينما الأميركيّة، مفتونًا بفيلم «اليوم الأطول[18]». وقد اقترح مرارًا إنتاج فيلم شبيه به حول 6 تشرين الأوّل/أكتوبر 1973، لكنّ أيّ منتج لم يجازف بذلك.

تجرّأ السادات على شنّ الحرب، بعكس عبد الناصر الذي راهن في 1956 و1967 على تجنّبها، وخسر الرهان. وجازف بأن دفع إلى مهاجمة خطّ بارليف قادة عسكريّين متردّدين في أغلب الأحيان، لا يزالون تحت تأثير صدمة الهزيمة الماضية. سمحت له حرب أكتوبر تلك، والتي يُفترَض بها أنّها غسلت عار مصر، بإسكات منتقديه ووضع نفسه في دائرة الضوء، فتخلّص من ظلّ سلفه الذي بات من الممكن أخيرًا نزع صوره. لقد بات السادات سيّد مصر بلا منازع.

17 أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص. 146.

18 *Le jour le plus long*.

13

عزيزي هنري

كان أنور السادات مقتنعًا بأنّ جمال عبد الناصر ألحق الإفلاس بمصر لأنّه عارض الغرب. فالقوّة الأميركيّة تسحره، مثلما سحرته في الماضي قوّة هتلر، واقتنع بأنّ مصير العالم عمومًا والشرق الأوسط خصوصًا يتقرّر في واشنطن. كان «بطل العبور» بحاجة إلى الاتّحاد السوفياتيّ ليصنع الحرب؛ وبات الآن بحاجة إلى الولايات المتّحدة ليصنع السلام. بهذه القناعة استقبل في القاهرة في 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1973 وزير الخارجيّة الأميركيّ هنري كيسنجر. وقد قال: «أعتقد أنّه لو رآنا أحد بعد الساعة الأولى من اجتماعنا بقصر الطاهرة لاعتقد أنّنا أصدقاء منذ سنوات وسنوات[1]». الواقع أنّ تيّارًا من الودّ سرى في الحال بين تينك الشخصيّتين اللتين يفرّق بينهما كلّ شيء، ونجح كلّ منهما في اجتذاب الآخر.

كان كيسنجر في ذروة المجد. فهو المعاون الأساسيّ للرئيس نيكسون، وصانع التقارب بين الولايات المتّحدة والصين والانفراج مع الاتّحاد السوفياتيّ. كما مُنح قبل وقت قصير جائزة نوبل للسلام

---

[1] أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 422.

لمساهمته في وضع حدّ لحرب فييتنام، ولا شأن له بفضيحة ووترغيت التي لوّثت سمعة رئيسه، بل إنّها جاءت لتعزّز موقع الوزير الأميركيّ.

قبل شهر، كان كيسنجر قد نعت السادات بـ«المجنون[2]» أمام معاونيه، وذلك لأنّه شنّ حربًا على إسرائيل. أمّا الآن فقد بات الدبلوماسيّ الأبرز في العالم مأخوذًا ببراعة الرئيس المصريّ، بعد أن لاحظ أنّه يتّبع في المفاوضات تكتيكًا يقضي بألّا يطيل الوقت أبدًا في التفاصيل، بل بأن يخلق جوًّا يصبح معه كلّ خلاف مستحيلًا من الناحية النفسيّة. وقد اعترف في مذكّراته بأنّه أخطأ تمامًا في شأن مَن نعته بالبهلول: «إكتشفتُ في السادات واحدًا من الزعماء الاستثنائيّين الذين تسنّت لي مقابلتهم. كان يملك مزيج بُعد النظر والشجاعة الذي يتميّز به كبار رجال الدولة[3]». وأضاف مُغدقًا بالثناء: «الرجال العظماء نادرون جدًّا لدرجة أنّنا بحاجة إلى بعض الوقت لاعتياد وجودهم[4]».

من جملة ما كان السادات يقدّره في كيسنجر هو أنّه يهوديّ. ألا يضعه ذلك في موقع أفضل من الآخرين لإسماع إسرائيل صوت العقل؟

دشّن وزير الخارجيّة الأميركيّ «دبلوماسيّة الخطوات الصغيرة» بجولات مكّوكيّة لا تتوقّف بين القاهرة والقدس لتحقيق تقدّم تدريجيّ. وبات الرئيس المصريّ يتحدّث في كلّ خطاباته عن «صديقي كيسنجر»، حتّى تحوّلت العبارة إلى نكتة وراح المصريّون يتبادلون السلام بالقول: «مرحبًا يا صديقي كيسنجر!».

---

2 ويليام كواندت، *The Legacy of Camp David, 1979-2009*، ندوة The Middle East Institute Viewpoints، واشنطن، 2009.

3 هنري كيسنجر، *A la Maison Blanche 1968-1973*، المرجع السابق، ص. 1349-1350.

4 المرجع نفسه، ص. 1354.

واصل السادات إظهار تشدّده نحو إسرائيل، وقال: «لن أقبل بنصف حلّ. لم أرفض حالة اللاحرب واللاسلم، لأنغلق في حالة نصف حرب ونصف سلم». لكنّ الواقع هو أنّه بات ينظر إلى الأمور بطريقة مختلفة، كما يقول شيمون بيريز: شكّلت له حرب أكتوبر نجاحًا كافيًا للسماح له بالمفاوضة على تسوية، لكنّها وجّهت له صفعة كافية ليفهم أنّ بلده لا يستطيع فرض إرادته بالوسائل العسكريّة[5]. لقد بات الرجل الذي يتكلّم شخصًا مختلفًا، فهو أكثر براغماتيّة واعتدالًا، ويسدي إلى الزعماء العرب الآخرين نصائح في الواقعيّة. وتوقّف عن شتم الصهيونيّة. وعلى خلاف الذين ظلّوا يأبون الاعتراف بوجود الدولة اليهوديّة، كان يؤكّد علنًا: «أقول وأكرّر إنّ إسرائيل هي واقع».

أعيدت في 7 تشرين الثاني/نوفمبر 1973 العلاقات الدبلوماسيّة بين القاهرة وواشنطن، والتي كانت مقطوعة منذ العام 1967. كان هدف السادات يتجاوز إتمام معاهدة سلام مع إسرائيل – وهو ما يجب إتمامه على مراحل – فقد كان يبحث عن علاقة مميّزة مع الولايات المتّحدة، وعن إعادة تموضع لمصر تسمح له بالاستفادة من مساعدة أميركيّة كبيرة. من الآن فصاعدًا، لن يكون الأخ السوفياتيّ الأكبر هو مَن يزوّده بالسلاح، بل العمّ سام. كانت تلك استدارة من 180 درجة. لقد انتقل بطل العبور من الشرق إلى الغرب.

في كانون الأوّل/ديسمبر 1973 تفاوضت مصر وإسرائيل حول فكّ اشتباك عسكريّ بواسطة كيسنجر، وأرسل السادات إلى حكومة غولدا مائير الرسالة التالية: «عليكم أن تأخذوا ما أقوله على محمل الجدّ. حين

---

[5] شمعون بيريز، *Combat pour la paix*، Fayard، 1995، ص. 343.

شرعتُ بمبادرة سلام في العام 1971، كنت جادًّا. وحين أتحدّث عن السلام الآن، فأنا جادّ[6]».

في خلال نقاش دار بينه وبين كيسنجر في فندق أولد كاتاراكت في أسوان، تصرّف السادات بأريحيّة واسعة. فبعدما قبل ألّا يترك في سيناء سوى ثلاثين دبّابة، أبلغ مفاوضه بالموافقة، في مبادرة حسن نيّة، على سحب تلك الدبّابات حتّى. يروي هيكل هذه الحادثة التي كان شاهدًا عليها: «ذهل الجمسي[7] وهو يسمع هذه المعلومات. وقال: لا يُعقل، كيف تنسحب كلّ الدبّابات من الشرق، ولا يبقى غير ثلاثين؟ لو يعلم الناس مقدار الجهد والعناء والعذاب الذي اقتضاه عبور هذه الدبّابات إلى الشرق... بدا التأثّر واضحًا على الجمسي إلى درجة أنّه اقترب من نافذة وأخرج من جيبه منديلًا، وكان واضحًا لبقيّة الواقفين أنّ هذا الجنديّ المنضبط لم يتمالك دموعه. وأحسّ كيسنجر – السعيد بانتزاع هذا التنازل – أنّ الأمور ليست على ما يُرام... وتحرّك صوب الجمسي وسأله: ما هو الأمر يا جنرال؟ وردّ الجمسي: لا شيء يا سيّدي الوزير، بالنسبة لنا فإنّ الأوامر هي الأوامر[8]».

وُقِّع اتّفاق فكّ الاشتباك في 18 كانون الثاني/يناير في نقطة الكيلومتر 101 الواقعة على الطريق بين القاهرة والسويس. وبموجبه انسحب الإسرائيليّون حتّى مسافة تبعد عن القناة 30 كيلومترًا. هكذا، سيكون باستطاعة المصريّين السيطرة على ضفّتَي القناة، لكن بعد أن يفكّكوا جزءًا من مواقع إطلاق الصواريخ، على أن تقيم قوّات الأمم المتّحدة المعروفة بالقبّعات الزرقاء مناطق فصل بين المتحاربين.

---

6 هنري كيسنجر، *Les Années orageuses*، الجزء الأوّل 1973-1974، Fayard، 1982، ص. 1026.

7 عُيّن عبد الغنيّ الجمسي رئيس أركان حرب للقوّات المسلّحة المصريّة في خلال الحرب، بدلًا من الفريق الشاذلي. وفي كانون الأوّل 1974 أصبح وزيرًا للحرب.

8 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 87.

في خلال جولة له على الشرق الأوسط في حزيران/يونيو 1974، استُقبل الرئيس نيكسون استقبال الأبطال في القاهرة، واستطاع أن يدرك مقدار افتتان المصريّين بأميركا. فلم يسبق قطّ لأيّ زعيم سوفياتيّ أن حظي بهذا النوع من الترحيب! بذل السادات جهودًا كبيرة للاحتفاء بضيفه، لكنّ الرئيس الأميركيّ الذي أطاحت به فضيحة ووترغيت لم يلبث أن خرج من المشهد، وكان خلفه جيرالد فورد هو مَن استقبل الرئيس المصريّ في واشنطن في تشرين الأوّل/أكتوبر من العام التالي.

في مقابلة أجراها السادات مع مجلّة روز اليوسف المصريّة، رسم الخطوط العريضة للوضع كما يراه، أو كما أراد لشعبه أن يراه، فقال: «شنّت علينا إسرائيل أربع حروب (1948، 1956، 1967، 1973)، فانتصرَت في ثلاث، وخسرَت الرابعة. لقد غيّرت هذه الهزيمة كلّ القواعد التي استندت إليها الحروب الثلاث السابقة. قبل حرب أكتوبر، لم تكن الولايات المتّحدة تسمعنا حتّى. لكنّ الجنديّ المصريّ عبر القناة ودمّر خطّ بارليف، وأطاح بالنظرة السائدة إلى أمن إسرائيل، وتنبّه الأميركيّون إلى التهديدات التي تحيط بمصالحهم النفطيّة، وهذا ما أرغمهم على إعادة النظر بسياستهم. علينا أن نستفيد من ذلك[9]».

كان السادات يقول بلا تردّد: «أنا مصريّ قبل أن أكون عربيًّا». وفي كلّ حال، كانت مبادراته تثير استياء أكثر من زعيم عربيّ. وفي خلال العام 1975، عرفت المخابرات الإسرائيليّة أنّ العراقيّين يخططون لقتله، فأوصلوا إليه الرسالة بواسطة كيسنجر[10]. ولم يكن ذلك الإنذار الأوّل من نوعه في فترة رئاسته.

من 27 إلى 29 كانون الثاني/يناير 1975، ذهب السادات إلى باريس ليتسوّق. كان الهدف الأساسيّ من زيارته الرسميّة إلى فرنسا

---

9 مقابلة مع عبد الستار طويلة، روز اليوسف، 23 أيلول/سبتمبر 1974.

10 عزرا وايزمان، *La Bataille pour la paix*، Hachette، 1981، ص. 90.

شراء أسلحة للتعويض جزئيًا عن خسائر مصر في حرب أكتوبر. لم يكن الاتّحاد السوفياتيّ يزوّده بكلّ ما يطلبه، وسعى إلى تنويع مصادره من الأسلحة. إستُقبل بكلّ مظاهر التكريم، وتذكّر محطّته في مطار أورلي قبل خمسة عشر عامًا، حيث توقّف في طريق عودته من غينيا، التي زارها للمشاركة في مؤتمر حزب سيكو توري. آنذاك كان الخصام على أشدّه بين فرنسا ومصر. وبرغم كونه رئيسًا لمجلس الأمّة ويحمل جواز سفر دبلوماسيًّا، فقد مُنع من مغادرة المطار[11]. لكنّ قضيّة قناة السويس لم تعد سوى ذكرى سيّئة الآن. فقد أعاد البلدان العلاقات الدبلوماسيّة بينهما، وواصل الرئيس جيسكار ديستان السياسة التي بدأها الجنرال ديغول نحو البلاد العربيّة. حظي الرئيس المصريّ بوليمة عشاء في قصر الإليزيه، انتهت بحفلة موسيقيّة عزفت خلالها فرقة صغيرة أمامه مقطوعات كلاسيكيّة. لم تكن مقطوعات موزار تناسب ذوقه الموسيقي، لكنّه استطاع شراء بضع عشرات من طائرات ميراج ف 1.

وبدوره، استُقبل جيسكار ديستان في القاهرة في 10 كانون الأوّل/ديسمبر التالي. وفي أثناء هذه الزيارة وافق السادات، وبرغم اعتراض مسؤولي متحف القاهرة، على أن تُنقل مومياء الفرعون رمسيس الثاني إلى فرنسا «للمعالجة»، بعدما ظهرت عليها علامات تدهور خطير. وفعلًا، سافر أشهر فرعون في التاريخ بالطائرة في 26 أيلول/سبتمبر 1976، ليستقبله الحرس الجمهوريّ الفرنسيّ استقبال رؤساء الدول في مطار بورجيه. وبعد ثمانية أشهر عاد إلى بلده وقد تعافى، محاطًا بمظاهر التكريم عينها...

---

[11] أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص. 97.

إعادة فتح قناة السويس

في 5 حزيران/يونيو 1975، أعيد فتح قناة السويس التي أغلِقت أمام حركة الملاحة منذ حرب الأيّام الستّة. رئس السادات، مرتديًا أبهى ما لديه من أزياء الأميرالات، حفلة إعادة الافتتاح أمام عدد كبير من الوفود الأجنبيّة. قبل قرن من ذلك التاريخ، افتتح الخديوي إسماعيل هذا الممرّ المائيّ، بحضور الأمبراطورة أوجني وألف مدعوّ أتوا من أقطار العالم كافّة. حرص خصوم السادات على تشبيهه بذلك الباشا المتألّق الذي صرّح آنذاك: «لم يعد بلدي في إفريقيا، نحن جزء من أوروبّا». لكنّ أوجه الشبه بين الرجلين اقتصرت على رغبتهما المشتركة في إغراء الغربيّين. في القرن التاسع عشر لم يكن قلب إسماعيل يهتف لغير باريس ولندن اللتين كانتا قلب العالم آنذاك. وفي سبعينيّات القرن العشرين، كانت واشنطن هي قلب العالم.

إستطاعت مصر إعادة فتح القناة بفضل المساعدة الأميركيّة. واستجابةً من كيسنجر لطلب «صديقه» السادات، وصلت في ثمانٍ وأربعين ساعة حاملة مروحيّات تابعة للأسطول السادس الأميركيّ، مزوّدة بالمعدّات المناسبة لإزالة العوائق من القناة. لم يكن توقيع اتّفاقيّة بين الحكومتين المصريّة والأميركيّة ضروريًّا حتّى. إقتضى الأمر فقط إصدار التعليمات لمدفعيّة السواحل المصريّة بعدم إطلاق النيران على تلك السفينة التي ما زالت حتّى تاريخه تنتمي إلى المعسكر العدوّ... وبناءً على أوامر الرئيس، حظيت في بور سعيد باستقبال على درجة استثنائيّة من الحفاوة.

لكنّ إعادة قناة السويس إلى العمل بعد ثمانية أعوام من الإغلاق لم تكن كافية. فالتجارة العالميّة شهدت تطوّرًا كبيرًا في تلك الفترة، وبات جزء كبير من نقل الوقود يتمّ بواسطة خطوط الأنابيب أو ناقلات

النفط العملاقة. ولم تعد القناة صالحة لمرور ثلثَي أسطول ناقلات النفط العالميّة. فانطلقت ورشة أعمال باهظة الكلفة، لكنّها ضروريّة، بمساعدة البنك الدولي للإنشاء والتعمير وبمساهمة عدّة مؤسّسات أميركيّة، ويابانيّة، وبريطانيّة، وفرنسيّة. وبين العامين 1975 و1980 جرى توسيع القناة على 40% من طولها للسماح للسفن بأن تتقاطع في مرورها عبرها، وتعميقها من 38 إلى 53 قدمًا لاستقبال السفن التي تزيد حمولتها الكاملة على 150 ألف طنّ[12].

هكذا، عادت مصر إلى الاستفادة من عائدات قناة السويس، ولو أنّ هذه الأخيرة انخفضت بنسبة النصف عمّا كانت عليه في العام 1966. وقد كانت مصر بحاجة ماسّة إلى تلك العائدات، بعد أن أنهكت الحرب موازنتها. ظلّ الإنفاق العسكريّ يمثّل أكثر من ثلث إجماليّ الناتج القوميّ، ولم تكن المساعدة الماليّة من الدول العربيّة الغنيّة على المستوى الذي يرجوه السادات. «لقد قاتلنا من أجلكم»، قال بمرارة لزعماء البلدان الشقيقة. وعلى عاتق مصر يقع منذ سنوات، العبء الأكبر الناتج عن الصراع العربيّ الإسرائيليّ ماليًّا، وبشريًّا. فبالإضافة إلى القتلى والجرحى، اضطرّ نحو 700 ألف مصريّ إلى الفرار من برزخ السويس بسبب الحروب المتوالية. كان «الشهداء» يستحقّون شيئًا من أموال البترودولار... لكنّ «صديق كيسنجر» بات محلّ شبهة في أنّه لا يسعى إلّا إلى استرجاع سيناء عبر سلام منفرد مع إسرائيل.

---

[12] كارولين بيكيه، *Histoire du canal de Suez*، Perrin، 2009، ص. 288-290.

14

الانفتاح

بعدما تحرّر «بطل العبور» من شبح عبد الناصر، استطاع أن يطبّق من دون أيّ عُقدٍ نفسية تُذكَر، سياسة اقتصاديّة تلائم ذوقه، دُعيت «سياسة الانفتاح». قال إنّ مصر تغلّبت على إسرائيل عسكريًّا، وبات بوسعها التغلّب على مصاعبها الاقتصاديّة. وراحت مجلّة جديدة، تُدعى «أكتوبر» ويديرها الكاتب والصحفيّ الموهوب أنيس منصور، تكرّر هذا الشعار وتطوّره عددًا بعد آخر. وقد كتب فيها السادات شخصيًّا مقالات بين تشرين الأوّل/أكتوبر 1976 وكانون الأوّل/ديسمبر 1977.

بعد أشهر قليلة من وصوله إلى السلطة، كان السادات قد عدّل سياسة عبد الناصر الاقتصاديّة، مواصلًا في الوقت عينه ادّعاء الاشتراكيّة وامتداح عبقريّة خلفه. تمّ تسهيل الاستثمارات الخاصّة، وتحصين الملّاكين ضدّ خطر التأميم. أما في العام 1973 وغداة حرب أكتوبر، فقد بات السادات طليق اليدين على نحو أكبر بكثير.

سمح له الاختراق العسكريّ الذي حقّقه شرقًا بتحقيق اختراق اقتصاديّ غربًا، كما ذكر غالي شكري، أحد مثقّفي اليسار، والشديد المعارضة لسياسته: «سمحت تلك الحرب للرئيس السادات بتحويل

انقلابه إلى نظام شرعيّ يستطيع ولفترة طويلة امتصاص الغضب الشعبيّ، كما ويستطيع أن يُعلن على الملأ الأسس الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة لنظامه[1]».

تجنّبت «وثيقة أكتوبر» التي كشفت الإيديولوجيا الاقتصاديّة الجديدة، الظهور بمثابة قطيعة راديكاليّة مع النظام الناصريّ. فبدأ السير نحو الليبراليّة... باسم الاشتراكيّة، لتصحيح أخطاء الإدارة المركزيّة التي تتولّاها الدولة. وهذا تقريبًا ما فعله لاحقًا في الصين خليفة ماو، دينغ زياو بينغ، والذي استعارت إصلاحاته الاقتصاديّة ذات الطبيعة الرأسماليّة بلاغة شيوعيّة. إلّا أنّ السادات، وفي مذكّراته بعد ثلاث سنوات، أسقط من مفرداته كلّ تلك التحفّظات، فقال: «كانت التركة التي ورثتها اقتصاديًّا أسوأ بكثير من التركة السياسيّة... كنّا قد نقلنا بغباء شديد النمط السوفياتيّ، ونحن نسير على الخطّ الاشتراكيّ، رغم أنّنا كنّا نفتقر إلى الموارد والإمكانيّات وتراكم رأس المال[2]». وفي مجالسه الخاصّة، كان ينعت الاشتراكيّة الناصريّة بأنّها «إعادة توزيع للفقر».

قال السادات شارحًا إنّ الاقتصادات العالميّة مترابطة وتعتمد واحدتها على الأخرى، وإنّ مصر لا يمكنها أن تنعزل، كما أنّ ذلك ليس في طبيعتها. وعاد بالتاريخ إلى عهد الفراعنة لمحاولة إثبات ذلك (في حين أنّ وادي النيل المحاط بالصحارى، عرف دائمًا ما يشبه الشعور بالاكتفاء الذاتيّ). وفي مقاربة تاريخيّة ملموسة أكثر، ذكّر بأنّ محمّد علي، مؤسّس الدولة الحديثة، أرسل بعثات مدرسيّة إلى أوروبّا في بداية القرن التاسع عشر وفتح أبواب مصر أمام أصحاب المشاريع الأجانب[3].

1 غالي شكري، *Egypte, contre-révolution*، Le Sycomore، 1979، ص. 195.

2 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 310-311.

3 أنور السادات، وصيّتي، القاهرة، المكتب المصري الحديث، 1982، ص. 195-197.

تمّ الانفتاح على مراحل. فغداة حرب أكتوبر ليّن السادات من نظام صرف العملات، وخفّض التعرفات الجمركيّة، وأنشأ مناطق حرّة. واعتبارًا من العام 1975 بات بوسع مستثمري القطاع الخاصّ، سواء أكانوا مصريّين أو أجانب، الاستفادة من التسهيلات الضريبيّة، والدخول في رأسمال المؤسّسات العامّة، واستيراد منتجات كثيرة بحريّة وإعادة تصدير الأرباح. وباتت المؤسّسات الجديدة بمنأى عن التأميم، حتّى أنّها استُثنيت من أحكام قانون العمل. أمل السادات أن يجتذب بهذه الطريقة الشركات الغربيّة وأموال البترودولار. أسّس دايفيد روكفيلر، رئيس سيتي بنك، فرعًا للمصرف في القاهرة يتاجر بالعملات الأجنبيّة؛ ثمّ تبعته أميركان إكسبرس، وبنك ناسيونال دي باري، وباري-با... لكنّ المصريّين على وجه الخصوص هم من قاموا بالاستثمار وأسّسوا أعمالًا درّت أرباحًا وفيرة. وحملوا ألقابًا كثيرة، مثل «تجّار شنطة»، و«القطط السّمان»، و«الانفتاحيّين»، و«البيوميّين» (على اسم مقاول بناء عديم الذمّة اعتاد تشييد أبنية لا تلبث أن تنهار).

لم يعد الخروج من مصر يخضع لأنظمة صارمة. بل على العكس، بدأ تشجيع المصريّين، وهم الشعب الراسخ في أرضه منذ التاريخ القديم، على البحث عن عمل في الخارج. وعند الحاجة، تتكفّل الدولة نفسها بتنظيم الهجرة، فترسل آلاف المدرّسين إلى أفريقيا والبلدان العربيّة. كان الهدف من ذلك تخفيف أعداد العاطلين عن العمل، وأيضًا إبعاد المعارضين وتخفيف التوتّرات الاجتماعيّة. إلّا أنّ هذه الهجرة حرمت البلد اليد العاملة المتخصّصة في قطاعات استراتيجيّة شتّى، وأعفت الدولة من وضع سياسة طموحة للوظائف. كما كانت لها نتائج اجتماعيّة عدّة على المدى المتوسّط، إيجابيّة وسلبيّة في آن واحد. حين يرحل

الرجل وحيدًا إلى الخارج، تتحمّل زوجته مسؤوليّات جديدة تساهم في تطوير المرأة. أمّا حين تلحق به إلى إحدى دول النفط مثل المملكة العربيّة السعوديّة، فإنّ نقيض ذلك هو ما قد يحدث. فبعد سنوات عدّة من الاغتراب، يعود المهاجرون المتواضعو الحال إلى مصر ومعهم المال، وزوجة منقّبة، وأفكار وسلوكيّات مستوحاة من الإسلام الوهابيّ. فيساهم هؤلاء الأثرياء الجدد في تحويل المجتمع المصريّ بإعادته عقودًا إلى الوراء.

اصطدم الانفتاح بجمود بيروقراطيّة لم تتوقّف عن التنامي منذ العام 1952[4]. فالخصخصة لم تحُل دون إبقاء القطاع العامّ على حاله، بل حتّى على حال أسوأ ممّا كان عليه، لأنّ كبار الموظّفين الأكفّاء اجتذبتهم وظائف البنوك أو الشركات الغربيّة. كما أحبطت التعقيدات الإداريّة والفساد من عزيمة الكثير من المستثمرين الأجانب. ولاحظ أحد المراقبين البارعين لتلك الفترة أنّ الدولة الليبراليّة تغذّت من عيوب الدولة الناصريّة، فقال: «كانت الدولة الناصريّة دولة راعية تتولّى تنظيم كلّ شيء. أمّا الدولة النيوليبراليّة فلم تقرّر شيئًا، بل سلّمت المستقبل إلى المبادرة الفرديّة والمصلحة الخاصّة. كما لم تقم بأيّ خطيط أو تنسيق، بل تركت الحبل على الغارب، ولم تثق إلّا بالتنظيم الذاتيّ للاقتصاد. فشجّعته عبر الامتناع عن التدخّل فيه، من غير أن تطبّق إصلاحًا حقيقيًّا على الإدارة العامّة ولا على القطاع العامّ[5]».

أدّت سياسة السادات إلى اقتصاد ريعيّ يعتمد اعتمادًا مطّردًا على التدفّقات الماليّة الخارجيّة التي تؤمّنها السياحة، وحقوق المرور في

---

4 كان في مصر مليونا موظّف حكوميّ في العام 1980، مقابل 370 ألفًا في العام 1952، في حين لم تتعدّ الزيادة في عدد سكّان البلد في الفترة عينها سوى الضعفين، حيث ارتفع عدد المصريّين من 21 مليونًا إلى 42 مليونًا.

5 بيار ميريل، المرجع السابق، ص. 145-149.

قناة السويس، وتحويلات أموال العمّال المهاجرين، وعائدات النفط، والمساعدات الاقتصاديّة الخارجيّة. وقام رجال الأعمال باستثمارات في قطاعات البناء أو التجارة أو الفنادق. أمّا الصناعة المحليّة التي كانت شبه محتكِرة للسوق المحليّ، فقد تعرّضت للمنافسة بفعل عمليّات استيراد واسعة للمنتجات الأجنبيّة. وبدأت المصانع بصرف العمّال وتكدّست البضائع في مخازنها، كما سُجّلت فيها حالات إفلاس كثيرة. فيما شهدت الزراعة، التي عادت إليها الرأسماليّة بقوّة، ابتعادًا عن المنتوجات الأساسيّة كالقمح والأرزّ، لمصلحة الزراعات التجاريّة كالخضر أو الفاكهة أو الأعلاف، سعيًا إلى تحقيق عائدات على الأمد القصير. فكانت النتيجة تزايدًا لاعتماد مصر الغذائيّ على الخارج.

«عَثْمَنَة» مصر

بمقدار ما راحت الدولة تتخلّى عن مسؤوليّاتها، كان عدم المساواة الاجتماعيّة يزداد سوءًا. ففي حين كان البعض يزدادون ثراءً على نحو مشين، تدهورت ظروف عيش الكثيرين من المصريّين، وترسّخ الفساد.

لاحظ الكاتب نجيب محفوظ أنّ «الانفتاحِ تحوّل إلى أسلوب خاطئ للحياة، وأصبح شاغل الناس هو جمع المال بأيّ طريقة وفي أسرع وقت دون النظر إلى أيّ قيمة أو مبدأ أخلاقيّ. فظهرت طبقة جديدة من أصحاب الملايين تنظر للثقافة الحرّة نظرة عدائيّة، لدرجة أنّ أكبر مكتبتين في القاهرة تحوّلتا إلى محلّين لبيع الأحذية[6]!».

إحتاج السادات إلى مكاتب قريبة من مقرّ إقامته، فاستولى على قصر محمود خليل باشا، الرئيس السابق للبرلمان. كان خليل الذي توفّاه الله، محبًّا لفرنسا وهاوي تحف فنّية، جمع في ذلك القصر أعمالًا كبيرة،

6 نجيب محفوظ، المرجع السابق، ص. 182.

من بينها على وجه الخصوص مجموعة رائعة من اللوحات الانطباعيّة والاستشراقيّة. وطبقًا لوصيّة أرملته، حوّلت الدولة المصريّة القصر إلى متحف افتُتح في العام 1962. لكنّ الرئيس السادات كانت له رغبات أخرى، فقد نُقلت كنوز الباشا إلى فيلا في الزمالك لتخزينها، وعُبِّد بالأسفلت جزء من حديقة القصر لتحويله إلى مهبط للمروحيّة الرئاسيّة[7].

دأب السادات، في 25 كانون الأوّل/ديسمبر من كلّ عام، أي في ذكرى مولده، على أن يظهر في مسقط رأسه بجلابيّة أنيقة، ليجري معه التلفزيون المصريّ مقابلة مطوّلة. وكان يسعده دائمًا التذكير بأصوله المتواضعة. لكنّ هذا لم يمنعه من أن يكون بين أصدقائه المقرّبين عثمان أحمد عثمان، الرجل الواسع الثراء ورئيس مجلس إدارة مجموعة «المقاولون العرب». بات عثمان الذي وُلد فقيرًا شخصيّة ترمز إلى حقبة الانفتاح، وغالبًا ما كان السادات يمارس معه رياضة المشي اليوميّة. حتّى أنّ صلة مصاهرة جمعت بينهما، فالابن البكر لرجل الأعمال اقترن بصغرى بنات الرئيس.

كان عثمان أحمد عثمان يشاطر السادات آراءه الاقتصاديّة تمامًا، وهذا حين لا يكون هو مَن يوحي بها. وقد عُهد إليه بإعادة بناء مدن برزخ السويس، ما عنى أنّ الحرب انتهت إلى غير رجعة. وقال رئيس مجلس إدارة «المقاولون العرب»: «مع عبد الناصر، عرفنا الدمار، أمّا مع السادات، فنحن نبني». لم يتردّد السادات في مبادلته الجميل، فقدّم «الجنرال عثمان وجيشه من العمّال» نماذج لكلّ المصريّين. ودشّن بكثير من المظاهر الاستعراضيّة إنجازين كبيرين لصديقه: جسر 6 أكتوبر في القاهرة (1978) والمشروع الزراعي في الصالحيّة الجديدة (1980)، الذي نُظر إليه على أنّه «أكتوبر جديد»، حيث تحقّق الانتصار

---

[7] في العام 1993، أي بعد اثني عشر عامًا على موت السادات، عاد منزل محمود خليل ليكون متحفًا.

على الصحراء في موقع يبعد ثلاثين كيلومترًا إلى الغرب من الإسماعيليّة. رأى السادات في ذلك مشروع «ثورة خضراء»، وأعلن يوم 29 كانون الثاني/يناير، الذي دُشّن فيه مشروع الصالحيّة، عيدًا سنويًّا للاحتفال بالثورة الخضراء.

كان عثمان أحمد عثمان يمقت عبد الناصر، الذي عهد إليه بمشاريع كبيرة قبل أن يؤمّم مؤسّسته. ونشر لنفسه سيرة ذاتيّة انتقد فيها الرئيس المصريّ السابق بحدّة، وهو ما أحرج السادات الذي أقصى صديقه لفترة قصيرة جدًّا.

أصبح رئيس مجلس إدارة «المقاولون العرب»، والذي يعمل لديه أكثر من خمسين ألف شخص، حاضرًا في معظم قطاعات الأعمال. وزادت قيمة مؤسّسته من 16.5 مليون جنيه مصريّ في العام 1972 إلى 190 مليونًا في العام 1981. وفي آذار/مارس من ذلك العام، كُلِّف بالقيام بأربعة أخماس الأشغال العامّة الكبرى. يبدو ذلك صادمًا أكثر بعد حين نعرف أنّه تولّى وظائف أساسيّة على مستوى القمّة في الدولة، فكان رئيسًا للحزب الحاكم، ووزيرًا للتعمير في العام 1974، ثمّ نائبًا لرئيس الوزراء من كانون الثاني/يناير وحتّى أيّار/مايو 1981. وفي تلاعب على الألفاظ، انتقد المعارضون «عَثْمَنَة» مصر، التي كانت لقرون ولاية تابعة للسلطنة العثمانيّة.

15

قناع من الديمقراطية

الأقوال تمرّ، والرجال يتغيّرون... في العام 1952، طالب عبد الناصر بنظام ديمقراطيّ، وطالب السادات بالدكتاتوريّة. لكنّ عبد الناصر تحوّل إلى شبه دكتاتور، فيما السادات بات يصوّر نفسه على أنّه نصير الحريّات. وفي مذكّراته كان قاسيًا جدًّا في حكمه على جوّ الرعب الذي أقامه سلفه[1]، فأدان جيل «الحقد الذي بناه عبد الناصر على كلّ المستويات، حتّى على مستوى الأسرة الواحدة، حيث كان يمكن للابن أن يتجسّس على أبيه أو أخيه كما كان يحدث في الأنظمة الفاشيّة».

تراجع بوضوح الطابع البوليسيّ للنظام في بداية عهد السادات، فأُطلق سراح السجناء السياسيّين وأغلِقت معسكرات الاعتقال. وبات يمكن التعبير عن الرأي بحريّة، بدون خشية من «زوّار الفجر»، ولو أنّ أجهزة المخابرات المثيرة للخوف بقيت تراقب المصريّين. نصّ دستور العام 1971 على أنّ «حقّ اللجوء إلى التقاضي مصون ومكفول لكلّ الناس». واستعادت المحكمة الدستورية العليا ومجلس الشورى دوريهما. ولم

[1] أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 304-306.

يعد ممكنًا صرف موظّفي القطاع العامّ إلّا لأسباب تأديبيّة أو إداريّة. كما أعيد توظيف أولئك الذين فقدوا وظائفهم لأسباب سياسيّة.

ومع ذلك فقد منح دستور العام 1971 سلطات واسعة جدًّا لرئيس الجمهوريّة، الذي لم يمتنع عن ممارستها. فكان ينشر كيفما يشاء، مراسيم لها قوّة القوانين، ويعيّن بكلّ حريّة أعضاء الحكومة، من دون أن يكون هو نفسه مسؤولًا أمام مجلس الشعب.

بعدما أزاح السادات خصومه، شرع في تكوين طبقة سياسيّة جديدة، لم تتألّف من ضبّاط كبار سابقين، كما في عهد عبد الناصر، ولا من كبار ملّاكي الأراضي القدماء، بل من صناعيّين ورجال أعمال يدينون له كليّا بدخولهم إلى دوائر السلطة.

لذّة إثارة المفاجآت

تغيّر الأسلوب الرئاسيّ. فعبد الناصر الواقف أمام الميكروفون كان يلهب حماسة الجماهير؛ أمّا السادات الجالس في أغلب الأحيان فهو راوٍ للقصص أفضل منه خطيبًا[2]. وكان يمكن لخطبه أن تمتدّ ثلاث أو أربع ساعات، فهو يأخذ وقته، مكرّرًا جمله، متأنيًا في لفظ المقاطع الصوتيّة، باحثًا بين أوراقه عن اقتباس، وحين لا يجده، يرتجل شيئًا ما، ويتخلّى عن الفصحى ليتكلّم بالعامية، ثمّ يبدأ برواية القصص، التي تهدف إلى إثارة إعجاب المستمعين أو ضحكهم. وكان لديه من القصص معين لا ينضب. ينسب إليه صديقه أنيس منصور أنّه صاحب ذاكرة قويّة جدًّا. كما كان السادات نفسه يتباهى بأنّه يتذكّر لون قميص أو سروال شخص التقاه قبل ثلاثين أو أربعين عامًا[3]. وهو يزعم أنّه اعتنى بهذه الموهبة في

2 إريك رولو، المرجع السابق، ص. 374.

3 أنيس منصور، المرجع السابق، ص. 470.

السجن، بواسطة تمارين ذاكرة، محاولًا حفظ أرقام الهواتف أو لوحات تسجيل العربات.

قام الباحث المصريّ عماد عبد اللطيف بدراسة تفصيليّة لخطابات أنور السادات ومداخلاته أمام الجمهور في أثناء فترة رئاسته[4]. وجاء بنتيجة تلك الدراسة أنّ متوسّط الخطابات بلغ 101 في العام، مقابل 75 لعبد الناصر. لمساعدته على كتابة خطاباته، كان السادات يستعين بصحفيّين كبار من الجرائد الحكوميّة، وخصوصًا موسى صبري رئيس تحرير الأخبار، وأحمد بهاء الدين، الذي أدار جريدة الأهرام لبعض الوقت، قبل أن يبتعد عن الرئيس ويسافر ليمارس الصحافة في الكويت. لم يكن السادات يكتفي بإعطاء التعليمات إلى كتبة خطاباته، بل كان يحبّ مناقشتهم ومناظرتهم، حتّى منتصف الليل أحيانًا، من دون أن ينال دائمًا ما يريده تمامًا.

وقد روى بنفسه قصّة صراع وقع في بداية عهده بينه وبين محمّد حسنين هيكل، الذي لم يكن آنذاك قد أصبح أحد خصومه[5]. كان على الكاتم السابق لأسرار عبد الناصر أن يعدّ له خطاب الأوّل من أيّار/مايو 1971. فقال له السادات، موضحًا بدقّة: «أريد في نهاية خطابي أن أهدّد الذين يتآمرون عليّ بالفرم، وأريد قول ذلك بأوضح عبارات ممكنة». إلّا أنّ هذه الفكرة لم ترد في النصّ الذي سلّمه إيّاه هيكل عشيّة يوم الخطاب، وهو ما أثار تعجّب السادات. قال الصحفيّ إنّه لا يستطيع كتابة كلمة كهذه، ورجا الرئيس إضافتها بنفسه. لكنّ هذا الأخير احتجّ قائلًا: «لكنّها التاسعة مساءً!». ردّ هيكل: «أرجوك يا سيادة الرئيس». ويؤكّد

---

4 عماد عبد اللطيف، **استراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسيّ**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012، ص. 35-36.

5 رواية السادات لموسى صبري، **السادات: الحقيقة والأسطورة**، المرجع السابق، ص. 251.

السادات قائلًا: «اضطررتُ للسهر حتّى وقت متأخّر من مساء ذلك اليوم لأكتب بنفسي تلك الفقرة، والتي قرأتُها في اليوم التالي».

في بداية عهد السادات الرئاسيّ، وحرصًا منه على عدم إعطاء الانطباع بأنّه يخون عبد الناصر، كان يلتزم بحرفيّة النصّ المكتوب في خطابه. لكنّه راح مع السنوات، وبمقدار ما كان يتحرّر من هالة سلفه، يزيد من نسبة الارتجال في خطاباته. وانتهى به الأمر في بعض الحالات أن اكتفى من النصّ الذي أُعِدَّ بناء على تعليماته، بقراءة المقدّمة والخاتمة، ليرتجل كلّ ما تبقّى بالمصريّة العامّية. في تلك الحالات، كان يُسمع له تلعثم معبِّر، يتكرّر فيه صوتان وهما «إيه» أو «إممم». لم يكن ذلك نتيجة لإعاقة جسديّة، بل عادة لاواعية، يلجأ إليها لأسباب عدّة، منها التعبير عن التردّد ليبدو أكثر جدّية، أو لمنح نفسه الوقت ليجد كلماته، أو للانتقال من العربية الفصحى إلى العاميّة[6]، حيث يستطيع الفوز بقلوب مستمعيه بعبارة عذبة، أو بتعليق ساخر، أو بتهكّم.

كثيرًا ما صُوِّر أنور السادات على أنّه مقامر. لكنّه، وعلى عكس ما تشي به المظاهر، لم تكن تصرّفاته وليدة انفعالاته، وكانت قراراته تأتي نتيجة حسابات طويلة. يقول هيكل: «بعد أن يتّخذ قراره، كان يتصرّف منفردًا، محتفظًا بسرّه لنفسه، راغبًا في نسبة كلّ شيء إليه وحده. إنّ ميله الطبيعيّ هذا إلى الأسرار هو ما كان يثير انطباعًا خاطئًا بأنّه يتصرّف مدفوعًا بانفعالاته[7]».

كان السادات يحبّ إثارة المفاجآت. وقد رأى المثقّف اليساريّ الذي يمقته، غالي شكري، في ذلك إشارات إلى «تفكير انقلابيّ مقترن بروح التآمر، مع كلّ ما يتضمّنه ذلك من طبع غامض وماكر ومشبوه». ويؤكّد شكري أنّ مشاركة خليفة عبد الناصر في شبابه في أعمال إرهابيّة

---

6 عماد عبد اللطيف، المرجع السابق، ص. 107.

7 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 81.

لم تأتِ من قبيل الصدفة، فيقول «من سياسة المفاجأة وُلدت رغبة جامحة في اختصار الوقت عبر اللجوء إلى تغييرات متسرّعة[8]».

أحزاب بلا سلطة

في نيسان/أبريل من العام 1975، عيّن السادات في منصب نائب رئيس الجمهوريّة الفريق حسني مبارك، قائد سلاح الجوّ، والذي كلّفه عبد الناصر بإعادة بناء القوّات الجويّة المصريّة بعد هزيمة 1967. سمح له ذلك بأن يضمن دعم العسكريّين له، وفي الوقت عينه إزاحة صاحب هذا المنصب، حسين الشافعي، أحد آخر الضبّاط الأحرار في السلطة. لم يستجب الشافعي في الحال، لكنّه لم يكن يملك الخيار، وفي النهاية قدّم استقالته.

كان الفريق مبارك والسادات يتحدّران من المحافظة نفسها، وهي «جمهوريّة المنوفيّة المتّحدة»، كما يصفها الأخير مازحًا. كان عمره ستّة وأربعين عامًا، ويتمتّع بميزة الانتماء إلى جيل آخر وبكونه أحد أبطال «العبور» المجيد في تشرين الأوّل/أكتوبر 1973. فالسادات قد أوضح أنّه يسعى إلى ضمان خلافته، فهو لن يبقى رئيسًا مدى الحياة.

راقب الرئيس الجرائد عن كثب. وكان يتّصل دوريًّا برؤساء التحرير للاستعلام عن مقال سيصدر... أو لينصحهم بالعدول عن نشر مقال قيد التحرير، فقد كان له في الجرائد والمجلّات مخبرين. وكان هؤلاء ينتمون إلى الدولة، شأنهم في عهد عبد الناصر. رفض السادات، وهو المدير السابق لجريدة الجمهوريّة، فكرة وسائل الإعلام الخاصّة لأنّها «قد تعتمد تمامًا على المخبرين، وتكون بالتالي خاضعة للتأثير»، وهو ما يجعل

8 غالي شكري، المرجع السابق، ص. 53.

منها «أدوات خطرة جدًّا[9]». لكنّه تراجع عن موقفه، فسمح بولادة جرائد أسبوعيّة اتّسمت بالجرأة الشديدة، مثل الأهالي (اليساريّة)، والشعب (اليمينيّة)، قبل أن يحاربها أو يسحب رخصة صدورها.

ألا يجب على تحرير الاقتصاد أن يؤدّي إلى ليبراليّة سياسيّة، كما هي الحال في إسبانيا أو في البرتغال؟ لحظت «وثيقة أكتوبر» إصلاحًا للمؤسّسات. لكنّ السادات، وإن كان قد أدان نظام الحزب الوحيد الذي «يفرض على الشعب وصايته»، فهو قد رفض التعدّدية الحزبيّة التي «تقسّم الشعب تقسيمًا مصطنعًا»، فكانت الصيغة التي نشأت حلًا وسطًا: «يجب أن يصبح الاتّحاد الاشتراكيّ العربيّ بوتقة تنصهر فيها وجهات النظر المختلفة». أمّا في الواقع فضمّت تلك الصيغة ثلاثة تيّارات منظّمة دُعيت «منابر»، ومثّلت اليمين الليبراليّ، والوسط الحكوميّ، واليسار الماركسيّ. دافع كلّ من تلك المنابر عن برنامجه في الانتخابات التشريعيّة التي أجريت في تشرين الثاني/نوفمبر 1976. أتت النتيجة كما توقّعها الجميع، فقد فاز منبر الوسط، أي المنتدى الاشتراكيّ العربيّ، بالأغلبيّة الساحقة للمقاعد (81.1%). ومع ذلك فقد كانت تلك المرّة الأولى التي تُقدَّم فيها للمقترعين خيارات عدّة منذ الإطاحة بالملكيّة.

وبعد تلك الانتخابات خطا السادات خطوة إضافيّة، فقرّر تحويل المنابر إلى أحزاب سياسيّة كاملة الحقوق. أتى قراره ذلك وليد انفعال مفاجئ، فطلب إلى الصحفيّ أحمد بهاء الدين، وهو أحد أهمّ كتبة خطاباته، أن يأتي على ذكر الأمر في خطاب ينوي إلقاءه. لفته بهاء الدين إلى أنّ الدستور لا ينصّ على ذلك، زعم السادات عكس ذلك وطلب نصّ الدستور، لكنّه لم ينجح في إقناع محاوره. طال النقاش حتّى وقت

[9] مارك ويلم بليس وكونراد ر. مولر، *Anwar Sadat, the Last Hundred Days*، لندن، Thames and Hudson، 1981، ص. 11-12.

متأخّر من ذلك المساء، وفي النهاية قال السادات: «أحمد، يُفترض بك أن تعرف طريقتي. وطريقتي هي أنّني أعلن قراراتي، وبعد ذلك نرى. فإذا كان من داع للتعديل، نقوم بالتعديل. وإذا كان من داع لقوانين جديدة، نضع قوانين جديدة. لو أنّني أمضيت وقتي في دراسة النصوص، لما قرّرتُ شيئًا. كفى! أذكر الأحزاب في الدستور، وبعد ذلك نرى ما يقتضيه الوضع[10]». وسواء أكان الأمر منصوصًا عليه في الدستور أم لا، فقد نشأت ثلاثة تنظيمات سياسيّة مرخّص لها: حزب التجمّع الوطنيّ التقدّميّ الوحدويّ (اليسار)، برئاسة خالد محيي الدين وهو أحد قدامى الضبّاط الأحرار؛ وحزب الأحرار الديمقراطيّين الدستوريّ، بقيادة مصطفى كامل مراد؛ والحزب الرئاسيّ الذي سُمّي في البداية «مصر»، وأوكلت رئاسته إلى ممدوح سالم، رئيس الوزراء، ليُستبدَل لاحقًا بالحزب الوطنيّ الديمقراطيّ، الذي رئسه السادات نفسه. ثمّ نشأ تنظيم رابع، وهو حزب العمل الاشتراكيّ، الذي أراده الرئيس لتكوين «معارضة بنّاءة».

قرّر «الوفد»، وهو الحزب الوطنيّ الكبير الذي لمع نجمه في فترة ما بين الحربين العالميّتين، أن يعيد بناء نفسه في آب/أغسطس من العام 1977، متشجّعًا بهذا الاتّجاه نحو الليبراليّة، ومن دون الحصول على إذن السادات. غضب هذا الأخير، لكنّه سمح بذلك. في النهاية، أليس هذا دليلًا إضافيًّا إلى أنّ المناخ قد تغيّر؟ كان «الوفد» برئاسة فؤاد سراج الدين الذي تولّى وزارة الداخليّة في نهاية عهد فاروق. لكنّ الحزب قرّر بعد أقلّ من عام تجميد نشاطه بعدما رأى أنّ استمراره مستحيل.

الواقع أنّ التصويت الذي دعا السادات المصريّين إليه بقي محصورًا في إطار التدابير التي تقيّد بقوّة نظام الأحزاب. فمن جهة، لا يمكن لأيّ تنظيم سياسيّ القيام «على أساس دينيّ أو طبقيّ» (قانون 2 يوليو

---

10 أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص. 105-107.

1977)، وهذا ما استثنى بطبيعة الحال الماركسيّين والإسلاميّين. ومن جهة أخرى، فإنّ كلّ شخص شارك في «إفساد الحياة السياسيّة قبل ثورة العام 1952» (قانون 2 يونيو 1978)، مُنع من النضال السياسيّ، وهذا ما أبعد فؤاد سراج الدين...

في انتخابات حزيران/يونيو 1979، حصد الحزب الوطنيّ الديمقراطيّ نحو 90% من المقاعد، ولم يدَع للتنظيمات الأخرى سوى الفضلات. يقول بيار ميريل ملاحظًا: «سلطة من دون أحزاب؟ لعلّ هذا كان الحلم السرّي للسادات الذي بالكاد سمح بوجود أحزاب من دون سلطة[11]». أمّا تلك التعدّدية الخادعة، فلم تكن فقط مجرّد متنفَّس، أو مخرج يسمح لشعب أُخرِس طويلًا بالتعبير عن نفسه ضمن حدود معيّنة، بل كانت أيضًا واجهة ديمقراطيّة، الهدف منها إثارة انطباع إيجابيّ لدى الغرب، الشريك الجديد لمصر.

[11] بيار ميريل، المرجع السابق، ص. 202.

16

إنتفاضة الخبز

في 17 أيلول/سبتمبر 1976، أعيد انتخاب أنور السادات رئيسًا للجمهوريّة بنسبة... 99.939% من الأصوات. بالرغم من فوزه بشيء من الشعبيّة في ساحة المعركة، فإنّ تلك النتيجة السخيفة لم تُثر انطباع أحد. ألم يُشر هو نفسه قبل ستّة أشهر وأمام اللجنة المركزيّة للاتّحاد الاشتراكيّ العربيّ، إلى غياب الإجماع، محذّرًا من «بعض العناصر اليساريّين الذين يحاولون خلق الفوضى والدفع إلى إضرابات مطلبيّة من دون أن يأخذوا بالاعتبار الوضع الاقتصاديّ السيّئ للبلاد؟». إلّا أنّ الجزء الأخير من جملته كان، على الأقلّ، مطابقًا للواقع، فالخزينة الوطنيّة فارغة. واجهت مصر صعوبة في هضم كلفة الحرب، التي قُدّرت بخمسة عشر مليار دولار. ولا يزال جزء ضخم من موازنتها مخصّصًا، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، للإنفاق العسكريّ. وفي ثلاثة أعوام تضاعف الدين الخارجيّ المصريّ بما كاد يبلغ أضعافًا ثلاثة.

كانت البنى التحتيّة شبه معطّلة، فلا شيء يعمل: لا الهاتف ولا النقل ولا أنظمة الصرف الصحيّ. بعد أيّام قليلة من وقف إطلاق النار أحرق ركّاب غاضبون حافلتَي تراموای في القاهرة. وفي خلال شهر كانون

الثاني/يناير من العام 1975، وفيما الاحتفالات بـ«النصر» لا تزال تُقام هنا وهناك، تحوّلت مظاهرات سُيِّرَت ضدّ غلاء المعيشة إلى انتفاضة شعبيّة في مدينة حلوان الصناعيّة، على مداخل العاصمة. وبعد ثلاثة أشهر، اشتعلت المحلّة الكبرى، عاصمة النسيج، وأطلق الجيش النيران على العمّال موقعًا عدّة قتلى.

كانت الأرقام تقضّ مضجع السادات. فهو لا يجهل أنّ طفلًا جديدًا يولد في مصر كلّ خمس وعشرين ثانية، وأنّ عدد السكّان بلغ ثمانية وثلاثين مليونًا، أي نحو ضعفَي عددهم قبل ربع قرن، حين تسلّم الضبّاط الأحرار السلطة. كان القطاع العامّ بمثابة إسفنجة لامتصاص البطالة، بعد أن تعهّد عبد الناصر بتأمين وظيفة في الإدارة العامّة لكلّ خرّيج جامعيّ يرغب في ذلك.

وعلى مسار موازٍ، كانت الأراضي الزراعيّة تتراجع باستمرار أمام النموّ العمرانيّ. وباتت مصر العاجزة عن إطعام سكّانها، على وشك أن تصبح أوّل بلد مستورد للطحين والقمح في العالم الثالث، بينما عملتها الأساسيّة – أي القطن الطويل التيلة – فقدت كثيرًا من قيمتها في السوق العالميّ. فلم يعد طنّ القطن يساوي أكثر من عشرة أطنان من القمح المستورد، أي أقلّ مرّتين ممّا كان عليه في العام 1960.

أكّد السادات قائلًا: «يجب القيام بعمليّة نقل دم من أجل النهوض بالاقتصاد». فالقطيعة مع الاتّحاد السوفياتي التي رسّخها في العام 1976 إلغاء معاهدة الصداقة والتعاون بين البلدين، لم تتبعها مساعدة كبيرة أميركيّة أو عربيّة. الكونغرس الأميركيّ لم يصوّت على مساعدة المليارَي دولار الموعودة من الرئيس الأميركيّ نيكسون، والدول النفطيّة التي زادت ثرواتها زيادة كبيرة بعد ارتفاع أسعار الذهب الأسود على

أثر حرب أكتوبر[1] لم تفِ إلّا بقدر قليل من التزاماتها، وطالبت بإصلاح مسبق للاقتصاد المصريّ، وهذا كان أيضًا الشرط الذي وضعه صندوق النقد الدوليّ لمنح مصر قرضًا.

«جيهان يا جيهان، الشعب جوعان»

أُعلن في القاهرة عن خطّة تقشّف، ولكن مع وعد بعدم المسّ بالدعم الحكوميّ للسلع الأساسيّة. وأكّد السادات قائلًا: «سنأخذ من الأغنياء لنعطي الفقراء». كان هذا الدعم الذي يثقل كاهل موازنة الدولة، يسمح للمواطنين بالحصول، لقاء أسعار متدنّية، على سلع كالخبز، أو الزيت، أو السكّر، أو العدس، أو اللحوم، أو النفط للاستعمال المنزليّ. ولولا هذا الدعم، لما استطاعت عائلات كثيرة العيش.

لكن، وفي بداية العام 1977، وبضغط من صندوق النقد الدوليّ، والبنك الدوليّ، ومن دائني مصر العرب، والوزير الجديد للاقتصاد عبد المنعم القيسوني، قرّر السادات فجأة إعادة النظر بهذه السياسة الاجتماعيّة. فأُلغي الدعم على بعض السلع (كالشاي مثلًا)، وخُفِّض على بعض السلع الأخرى (الخبز الأوروبّي، والأرزّ، والسكّر، والسجائر، وقوارير الغاز...)، فاشتعلت مصر. في 18 كانون الثاني/يناير، نزلت الحشود الغاضبة إلى الشوارع، في الإسكندريّة أوّلًا ثمّ في القاهرة. ودوّت هتافات: «جيهان يا جيهان، الشعب جوعان». وسُئل الرئيس: «يا بطل العبور، فين الفطور؟» كما رُفعت لافتات تحمل إهانات واضحة: «فليسقط الخديوي!».

[1] ارتفعت عائدات النفط العربيّ من 2.1 مليار دولار في العام 1965 إلى 51.5 مليار دولار في العام 1970، لتبلغ 204 مليار دولار في العام 1980.

في القاهرة، هاجم المحتجّون بالحجارة الواجهات الزجاجيّة الكبيرة لفندق شيبهردز، فحطّموها. وأضرم آخرون النيران في الملاهي الليليّة في شارع الهرم. كان ذلك يعيد إلى الأذهان وعلى نحو مثير للقلق، أحداثًا وقعت قبل خمسة وعشرين عامًا، وهي أحداث «السبت الأسود» في كانون الثاني/يناير 1952، قبل أشهر قليلة من الإطاحة بالملكيّة، حين نُهبت أو أُحرقت مؤسّسات كثيرة في الحيّ الأوروبيّ.

كان السادات في مقرّ إقامته بأسوان، بانتظار الماريشال تيتو (الذي اضطرّ في اللحظة الأخيرة إلى تأجيل زيارته). إتّصلت به زوجته من القاهرة لتحذيره من ضخامة الاحتجاجات التي بلغت مصر العليا. ففي أسوان، اعتدى المنتفضون على أفراد من الحرس الجمهوريّ. واتّجهت الحشود إلى مقرّ الرئاسة وهي تطلق الشعارات، بعدما أحرقت أقواس نصر كانت معدّة لزيارة تيتو. لم يتسنّ للسادات سوى القليل من الوقت للقفز في مروحيّة ومغادرة المدينة...

في القاهرة، هاجم أفراد الشرطة المتظاهرين الذين يتّجهون إلى ضريح عبد النصر وهم يهتفون باسمه، بهدف تفريقهم. ونُظّمت في الوقت عينه مسيرات ضدّ رموز الثروة أو السلطة كالفنادق الكبرى، أو منازل كبرى شخصيّات النظام، أو مراكز الشرطة، أو مقرّات الحزب الحاكم. وعلى جسر أبو العلا، الذي يصل بين حيّ الزمالك الغنيّ وحيّ البولاق الشعبيّ، أقيمت محكمة لمحاكمة الممثّل فؤاد المهندس. وسأله المحتجّون، وهم يشيرون إلى سيّارته الليموزين الفخمة: «من أين لك هذا؟».

لم تكتف الحشود بطرح الأسئلة، بل حطّمت واجهات وأحرقت أبنية. كما احتلّ مراهقون ميدان التحرير وأقاموا فيه متاريس مرتجلة. وأحرقت مستودعات مجموعة «أخبار اليوم» الصحفيّة. ومرّة جديدة، تبدّدت الأوهام الشائعة القديمة عن خنوع مصر واستسلامها للواقع.

عجزت الشرطة عن مواجهة الواقع، فاستدعى السادات الجيش الذي قسّم العاصمة إلى مناطق نشر فيها وحداته، وفرض منع التجوّل وأصدر الأمر بإطلاق النار على «المحرّضين». لكنّ عدّة مدن مصريّة أخرى كانت تشهد حالة الغليان نفسها، بدءًا بالإسكندريّة. ولم يعد الوضع إلى الهدوء إلّا بانقضاء ثمانٍ وأربعين ساعة، بعد إلغاء زيادات الأسعار والإعلان عن زيادة لرواتب موظّفي القطاع العامّ بنسبة عشرة بالمئة.

أمّا حصيلة «انتفاضة الجوع» (التي سُمّيت كذلك «انتفاضة الخبز»، مع أنّ الخبز البلديّ، وهو الغذاء الرئيسيّ لغالبيّة المصريّين، لم يُمسّ) فقد كانت كبيرة: 79 قتيلًا ونحو 800 جريح. كما اعتُقل مناضلون سياسيّون كثيرون، وعدّة صحفيّين. وأكّد وزير الداخليّة إفشال مؤامرة قام بها «شيوعيّون متحالفون مع ناصريّين مزعومين» كانت تستهدف إحراق القاهرة.

وقد هاجم السادات نفسه وبعنف القادة المفترضين لتلك الاحتجاجات. فكان يصفهم، دونما خشية من أن يناقض نفسه، تارة بـ«السارقين»، وطورًا بـ«الشيوعيّين» الذين يحرّكهم الاتّحاد السوفياتيّ. وفي لقاء علنيّ نقله التلفزيون مباشرة، طالب مرّات عدّة أحد النوّاب بأن يجيبه: «هل هذه انتفاضة شعبيّة أو انتفاضة حراميّة؟» فلزم النائب الصمت. وعاود السادات هجومه مرّة أولى، فثانية، وكأنّما الإجابة ليست في السؤال: «انتفاضة شعبيّة أو انتفاضة حراميّة؟».

لاستعادة السيطرة، لجأ السادات إلى طريقة تقليديّة: الاستفتاء. وفي 10 شباط/فبراير، نال الموافقة (بنسبة 99.42 من الناخبين) على قانون في غاية الصرامة دُعي «حماية أمن الوطن والمواطنين». نصّ هذا القانون على إنزال عقوبة الأشغال الشاقّة المؤبّدة بكلّ «مَن يشارك في تجمهر يؤدّي إلى إثارة الجماهير بدعوتهم إلى تعطيل تنفيذ القوانين»،

وبكلّ «العاملين الذين يضربون عن عملهم عمدًا إذا كان من شأن هذا الإضراب تهديد الاقتصاد القوميّ».

منذ اندلاع الأحداث، لم يهدأ غضب السادات. كان يستدعي رؤساء تحرير الجرائد المختلفة ويقول لهم: «هل أنا في إجازة؟ لماذا لا تنقلون ما أفعله؟ أو لعلّكم تظنّون أنّني لا أعمل...» فكان محاوروه يتبادلون النظرات مرتبكين. وأخذت الصحف المصريّة، شأنها في عهد عبد الناصر – وكما ستفعل لاحقًا في عهد مبارك – تكرّس بوتيرة شبه يوميّة عنوانًا عريضًا لأعمال الرئيس وحركاته.

لم يؤثر شيء في السادات أكثر ممّا أثّرت فيه تلك الانتفاضة، كما يؤكّد أحد المؤتمنين على أسراره. فمنذ ذلك الحين، بدأ يمقت العاصمة، ويصفها باحتقار بـ«مدينة الأفنديات» – الغرباء، بحسب قوله، عن روح مصر العميقة –، ويسعى للهروب منها، كلّما أتيح له ذلك، إلى أحد مقرّات إقامته في الدلتا، أو في سيناء، أو على شاطئ البحر الأبيض المتوسّط، أو في مصر العليا[2]. لكنّ ذلك لم يمنعه من استغلال تلك الانتفاضة لمحاولة إقناع المملكة العربيّة السعوديّة والولايات المتّحدة بأنّ مصر تواجه أخطارًا كبيرة، وبأنّه يجب تقديم دعم أوسع لاقتصادها، والضغط على إسرائيل لتحقيق سلام مقبول.

[2] أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص. 133.

17

غدًا في القدس

كان هاجسٌ واحد يستبدّ بالسادات: استرجاع سيناء. ولتحقيق ذلك، كان يعتمد على الأميركيّين، خصوصًا وأنّ علاقاته بالاتّحاد السوفياتيّ تتدهور باطّراد. فهو قد اتّهم السوفيات على وجه الخصوص بدعم العقيد القذّافي، الذي ضاعف من استفزازاته له. وقال للصحفيّ الأميركيّ سايروس سولزبرغر، عندما استقبله في 5 كانون الثاني/يناير 1977: «نحن المصريّين والإسرائيليّين لا يثق كلّ منّا بالآخر. لكنّ كلينا يثق بالولايات المتّحدة[1]».

إلّا أنّ محاوريه الأميركيّين، ولسوء حظّه، قد غابوا. فالرئيس نيكسون طُرد من البيت الأبيض بسبب فضيحة ووترغيت، أمّا خلفه جيرالد فورد فقد هزمه في تشرين الثاني/نوفمبر 1976 الديمقراطيّ جيمي كارتر. ولم يعد «العزيز هنري» (كيسنجر)، والذي كان يتّفق معه جيّدًا ويعلّق عليه آمالًا كثيرة، على رأس الدبلوماسيّة الأميركيّة.

ومع ذلك فإنّ مفاجأة سارّة كانت تنتظر السادات، الذي قام بزيارة الشاغل الجديد للمكتب البيضويّ في نيسان/أبريل من العام 1977.

---

[1] مقالة «Le Sadate que j'ai connu»، **الإكسبرس**، 16 تشرين الأوّل/أكتوبر 1981.

فبعد محادثات الوفدين والمأدبة الرسميّة، أخذه جيمي كارتر إلى مقرّه الشخصيّ، في الطابق الثاني من البيت الأبيض. ويروي كارتر فيقول: «كانت ابنتنا الصغيرة إيمي نائمة. فأيقظتُها وقلت لها: إيمي، أريد أن أعرّفك بصديق جديد. ثمّ جلسنا على أريكة، وبدأتُ أشرح للسادات أحلامي بالسلام في الشرق الأوسط. فوجدتُ لديه تقبُّلًا على نحو لم أعهده قطّ. وبدأتُ أكتشف فيه الصفات التي ستجعل منه رجلًا عظيمًا. كان هادئًا ومفعمًا بالثقة، ويملك وعيًا بعيد البصيرة في العلاقات الدوليّة. كما كان جسورًا ولا يفتقر إلى الجرأة السياسيّة. إستكشفنا بعض الاحتمالات. وقال لي إنّ بوسعنا أن نرى في أحد الأيّام سفنًا إسرائيليّة تمرّ عبر قناة السويس، لكن لن يتمّ أبدًا تبادل للسفراء بين البلدين[2]».

عاد السادات إلى القاهرة وهو يقول في نفسه إنّ كارتر يوازي نيكسون، وإنّه قد ربح فيه صديقًا حتّى. لكنّ خبرًا سيّئًا ما عتّم أن أتى من إسرائيل، فقد فاز حزب الليكود (اليمينيّ) وللمرّة الأولى بالانتخابات التشريعيّة. وبات البلد اعتبارًا من حزيران/يناير 1977 بقيادة أحد الصقور، وهو مناحيم بيغين، الذي اختار لوزارة الخارجيّة موشي دايان، الجنرال الأعور، الذي يكرهه العرب، والذي جسّد النصر الإسرائيليّ العسكريّ قبل عشر سنوات.

ومع ذلك فقد لقي السادات من الرئيس تشاوشيسكو، وفي أثناء زيارة له إلى بوخارست، تشجيعًا على الاتّصال بتلك الحكومة الجديدة. كانت رومانيا البلد الشيوعيّ الوحيد الذي يقيم علاقات دبلوماسيّة بإسرائيل. وبيغين، بحسب الرئيس الرومانيّ، هو شخص يمكن محاورته. فثقة الإسرائيليّين بأنّه لن يفرّط يومًا بالأراضي المحتلّة بأثمان بخسة،

---

2 مداخلة جيمي كارتر في الندوة التي نظمتها جامعة ماريلاند، في 25 تشرين الأوّل/أكتوبر 1998، لمناسبة الذكرى العشرين لاتّفاقية كامب دايفيد.

يجعله أفضل موقعًا من العمّاليّين لتقديم التنازلات. ألم يُثبَت في السياسة، ومنذ التاريخ القديم، أنّ الصقور هم أفضل الحمائم؟

مصافحة بيغين؟

هكذا، تقرّر عقد لقاء سرّي في المغرب في 16 أيلول/سبتمبر 1977، برعاية الملك الحسن الثاني. لم يضمّ ذلك اللقاء بيغين والسادات، بل الجنرال دايان ونائب رئيس الوزراء المصريّ، حسن التهامي. وكان العاهل المغربيّ قد رتّب قبل أسابيع قليلة لقاءً سرّيًّا آخر، في قصره في إفران، بين التهامي نفسه، يرافقه الفريق كمال حسن علي، رئيس جهاز المخابرات العامّة المصريّة، والجنرال إسحاق حوفي، رئيس الموساد، جهاز التجسّس الإسرائيليّ.

كان على دايان أن يتنكّر للسفر من دون أن يتعرّف عليه أحد (بشعر مستعار، وشاربين، ونظّارة سوداء كبيرة...). أمّا التهامي، فهو يزور بلدًا شقيقًا ولا حاجة به إلى إخفاء لحيته البيضاء المشذّبة بعناية. كان التهامي شخصًا غريب الأطوار، له شطحات في الصوفيّة والروحانيات، ممّا يدعو إلى التساؤل عن السبب الذي دفع بالسادات إلى تكليفه تلك المهمّة البالغة الأهمّية. هذا الضابط القديم الذي أصبح سفيرًا في النمسا، يتكلّم بإنكليزيّة أدبيّة جدًّا. وقد أفصح أمام دايان عن كلّ ما يظنّه بعبد الناصر من سوء، ونعته بـ«المجنون الذي قاد مصر إلى حافّة الانهيار[3]». حتّى أنّه سأله عمّا إذا كان الرئيس المصريّ السابق متواطئًا مع الإسرائيليّين لشنّ حرب الأيّام الستّة! ألم يرسل عبد الناصر بمعرفة منه المشير عامر لتفقّد سيناء على متن طائرة، صباح الخامس من حزيران/يونيو 1967، مانعًا بذلك سلاح الدفاع الجويّ المصريّ من أيّ تدخّل؟

---

[3] موشي دايان، *Paix dans le désert*، Fayard، 1981، ص. 72-73.

تركت أقوال التهامي دايان في حيرة من أمره. إلّا أنّ التهامي لم يُكلَّف شتم عبد الناصر. بل كانت مهمّته أن يقول لرئيس الدبلوماسيّة الإسرائيليّة إنّ مصر مستعدّة للبدء بمحادثات سلام، غير أنّ «السادات لن يصافح بيغين قبل أن تتعهّد إسرائيل بالانسحاب من كلّ الأراضي العربيّة» التي احتلّتها في العام 1967[4]. لكنّ الإسرائيليّين ما كانوا ينوون أبدًا الالتزام بأمر كهذا، ما اضطرّ الحسن الثاني إلى الاعتراف بأنّ الخلافات بين الطرفين لا تزال شاسعة.

في محاولة للوصول إلى حلّ شامل للصراع العربيّ الإسرائيليّ، ارتأت الولايات المتّحدة، بالتنسيق مع الاتّحاد السوفياتيّ، عقد مؤتمر دوليّ في جنيف. لكنّ السادات لا يثق بالسوريّين، ولا بالفلسطينيّين، المدعوّين إلى المشاركة في المؤتمر. وكان يخشى المساومات التي لا تنتهي، والتي قد لا تسمح له باسترجاع سيناء.

آنذاك راحت فكرة تعتمل في داخله، فيها من الجرأة ما يصل إلى حدّ الجنون. من الصعب تحديد الوقت الذي بدأت فيه تلك الفكرة تتكوّن في ذهنه. هل أتته وهو على متن الطائرة، في الطريق إلى زيارة شاه إيران؟ أم في المملكة العربيّة السعوديّة حيث توقّف في طريق عودته من إيران؟ أم في خلال الرحلة التي أعادته إلى القاهرة، كما أكّد في أحد الأيّام، مبرّرًا بذلك أنّه لم ينبس بكلمة واحدة حول الأمر للعاهل السعوديّ؟[5] لا شكّ بأنّه لم يكن في مصلحته أن يكشف النقاب عن مشاريعه. لأنّ الفكرة كانت كافية لتصعق العالم كلّه، وتثير عاصفة: لماذا

---

4 أرشيف الدولة الإسرائيليّة، التي شمح بنشرها في العام 2012. *Documents on the Background to Sadat's Visit and the Raphael Israeli. The Public Diary of President Sadat Government's Reaction*. «Highlights from meeting of September 16, 1977, 21.00».

5 ردّ السادات على موشي دايان، كما نقله بطرس غالي، *Le Chemin de Jérusalem*، Fayard، 1999، ص. 299.

لا يقوم بمبادرة استعراضيّة يزور فيها القدس، تلك المدينة الرمز، وقِبلة الديانات السماويّة الثلاث، والتي يتعنّت الإسرائيليّون في اعتبارها عاصمتهم؟ ستكون تلك طريقة لخلط الأوراق، وقلب الطاولة، ومباغتة الخصم وإحراجه؟

عندما فاتح السادات وزير خارجيّته اسماعيل فهمي بالأمر، فوجئ هذا الأخير: «إلى إسرائيل؟ أتريد الذهاب إلى إسرائيل يا سيادة الرئيس؟». لم يصدّق الوزير أذنيه وأعاد طرح السؤال، فأجابه السادات: «نعم، لكنّ الفكرة قابلة للنقاش. فكّر فيها، وأعطِني رأيك[6]».

بعد استشارة اثنين من معاونيه، عاد إسماعيل فهمي بالاقتراح التالي: «لندعُ إلى القاهرة الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن (الولايات المتّحدة، والاتّحاد السوفياتيّ، والصين، وفرنسا، والمملكة المتّحدة) لمناقشة المسألة بجدّية وعن كثب». وافق السادات على رفع الاقتراح إلى جيمي كارتر، الذي قابلها بفتور، بسبب عدم رغبته في انضمام أولئك الشركاء إلى عمليّة سلام ينوي إحكام قبضته عليها.

«إنّي مستعدّ للذهاب إلى آخر العالم»

عاد السادات إلى فكرته، التي راحت تبدو له بديهيّة أكثر فأكثر. زيارة إلى القدس... كان عليه أن يلقي في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 1977 أمام مجلس الشعب خطابًا، رأى أنّه قد يشكّل فرصة مناسبة لإطلاق بالون اختبار. لكنّ مستشاريه كانوا حازمين في نصحه بالامتناع عن ذلك. وبالفعل، فإنّ شيئًا من ذلك لم يرد في الخطاب الذي كُتب للمناسبة.

كان ياسر عرفات، رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة، ضيف الشرف في جلسة البرلمان تلك. وقد أرسل السادات طائرة عسكريّة لإحضاره

[6] موسى صبري، المرجع السابق، ص. 415-416.

من طرابلس الغرب التي كان يزورها. وفي 9 تشرين الثاني/نوفمبر، جلس الزعيم الفلسطينيّ بارتياح في مقعده الوثير في الصفّ الأماميّ، بابتسامته العريضة، ينتظر شطحات الرئيس المصريّ الاعتياديّة. وفي خلال الخطاب، شاهد هذا الأخير يتّقد حماسة، ويحرّك يديه بقوّة مثيرًا الانطباع بأنّه يضرب الطاولة بقبضته، وسمعه يصيح: «إنّي مستعدّ للذهاب إلى آخر العالم إذا كان ذلك سيحول دون قتل أو جرح مجرّد جنديّ واحد أو ضابط واحد من أولادي. أقولها الآن إنّني مستعدّ للذهاب إلى آخر العالم. سوف تندهش إسرائيل عندما تسمعني الآن أمامكم. أنا مستعدّ للذهاب إليهم في عقر دارهم، إلى الكنيست نفسه للتحدّث إليهم». لم يُعر الحاضرون في البرلمان تلك الأقوال اهتمامًا كبيرًا، وصفّقوا جميعًا، بمَن فيهم عرفات، شأنهم دائمًا كلّما استرسل السادات في مبالغة خطابيّة.

بعد خطاب الرئيس، طلبت الحكومة من الجرائد عدم إبراز تلك العبارة في العناوين، أو حتى حذفها. وزعم اسماعيل فهمي وزير الخارجيّة أنّ السادات قال له: «كانت تلك زلّة لسان يا اسماعيل. أطلبْ حذف العبارة[7]». لكنّ السادات قدّم رواية أخرى، فقال: «تصوّر البعض أنّها زلّة لسان، ولم يعلموا أنّ وراءها تفكيرًا طويلًا عميقًا[8]». وقد قال لموسى صبري، المكلَّف كتابة ذاك الخطاب: «ستكون هناك مفاجأة كبيرة. إحفظ لها مكانًا في النصّ. سأقول لك ما الأمر حين تسلّمني الخطاب». لكنّ كاتب الخطاب يوضح أنّ السادات احتفظ بالمفاجأة لنفسه[9].

---

7 إسماعيل فهمي، *Negotiating for Peace in the Middle East*، Taylor and Francis، 1983، ص. 267.

8 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 445.

9 موسى صبري، مرجع سابق، القاهرة، المكتب المصري الحديث، 1985، ص. 417.

حين اطّلع السادات على الطبعات الأولى لجرائد القاهرة، استشاط غضبًا، وأمر بأن تعدّل الجرائد صفحاتها الأولى لإبراز تلك العبارة بوضوح. بدوره، استبدّ الغضب بعرفات الذي رأى أنّ فخًّا نُصب له. ولم يعد لزيارة مصر قطّ حتّى لقي السادات مصرعه[10].

أمّا القادة الإسرائيليّون فقد رأوا في ما قيل عبارةً سحريّةً ممجوجة، هذا إن لم تكن مناورة. ومع ذلك فقد أعلنوا أنّ الرئيس المصريّ «أكثر من مرحّب به هنا»، إذا ما قرّر فعلًا القدوم إلى إسرائيل. وفي 11 تشرين الثاني/نوفمبر، توجّه رئيس الوزراء الإسرائيليّ مناحيم بيغين للمرّة الأولى إلى «المواطنين المصريّين»، فقال لهم بالإنكليزيّة في رسالة بُثّت عبر الإذاعة: «سيكون من دواعي سرورنا استقبال رئيسكم بالحفاوة التقليديّة التي ورثناها، نحن وأنتم، عن ابراهيم أبينا جميعًا. ومن جهتي، سأكون مستعدًّا طبعًا لزيارة القاهرة من أجل الغاية نفسها: لا حرب بعد اليوم، بل السلام، السلام الحقيقيّ، وإلى الأبد».

في القدس، لم يكن أحد ليصدّق ذلك فعلًا. ولكن، في 14 تشرين الثاني/نوفمبر، بثّت محطّة سي.بي.أس التلفزيونيّة الأميركيّة مقابلة مزدوجة مع السادات وبيغين، أجراها من نيويورك صحفيّها الشهير والتر كرونكايت. سأل كرونكايت الرئيس المصريّ في البداية عمّا إذا كان مستعدًّا حقًّا لزيارة إسرائيل، فأجابه: «أنتظر دعوة رسميّة». وحين سُئل عن كيفيّة إيصال الدعوة إليه، ولا علاقات دبلوماسيّة بين البلدين، أجاب الرئيس المصريّ: «لماذا لا يتمّ ذلك بواسطة الأميركيّين، أصدقائنا المشتركين؟». سأله كرونكايت عمّا إذا كان يضع شروطًا لتلك الزيارة. فأجاب السادات: «الشرط الوحيد هو أنّني أريد التناقش في مجمل الوضع مع أعضاء الكنيست المئة والعشرين، وعرض وجهة

---

[10] محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 115.

نظرنا بالتفصيل». وبشأن ردّات الفعل التي قد تثيرها مبادرته في العالم العربيّ، أكّد السادات قائلًا: «لم أستشر أحدًا. مسؤوليّتي كرئيس لمصر تقضي بأن أحاول بكلّ الطرق الوصول إلى السلام. كنت أعلم أنّ البعض سيقفون ضدّ هذا القرار، لكنّني مقتنع بأنّه الطريق الصحيح، وبأنّ شعبي يدعمني».

بعد ذلك اتّصل كرونكايت ببيغين، وأطلعه على أقوال السادات. بشأن الدعوة الرسميّة، سارع رئيس الوزراء الإسرائيليّ إلى الإجابة: «سأطلب إلى صديقي، السفير الأميركيّ في إسرائيل الاتّصال بالسفير الأميركيّ في مصر...». أخبره الصحفيّ بأنّ الرئيس المصريّ مستعدّ للقدوم إلى القدس في الأسبوع التالي. فليكن! قال بيغين: «يمكنني تأجيل الزيارة التي عليّ القيام بها الأسبوع المقبل إلى بريطانيا العظمى، بناءً على دعوة رئيس وزرائها كالاهان...».

في اليوم التالي، وبعد إبلاغ البرلمان الإسرائيليّ، عاجل بيغين بإرسال دعوة رسميّة إلى السادات. لكنّ رئيس أركان الجيش الإسرائيليّ الجنرال موردخاي غور أثار المخاوف بتصريحه لصحيفة إسرائيليّة: «يجب أن يدرك الرئيس السادات بوضوح أنّه، وإذا كان ينوي خداعنا من جديد، كما في حرب يوم الغفران، فهو مخطئ، لأنّنا نعرف نواياه تمامًا. نحن على علم بأنّ الجيش المصريّ يستعدّ لشنّ عدوان على إسرائيل العام المقبل، بالرغم من إعلان الرئيس السادات استعداده للقدوم إلى إسرائيل[11]». لكنّ أحدًا لم يكلّف الجنرال الإسرائيليّ قول ذلك. فهو عبّر عن رأيه الشخصيّ بدون موافقة وزير الدفاع، وحتّى بدون إبلاغه.

[11] جريدة يديعوت أحرونوت، 15 تشرين الثاني/نوفمبر 1977.

من دون مقابل

يوم الخميس في 17 تشرين الثاني/نوفمبر، تأكّد ما لم يكن ليرد في ذهن أحد. فقد أبلغ بيغين وسائل الإعلام بأنّ السادات سيصل بعد يومين، بين السابعة والنصف والثامنة مساء، بعد انتهاء السبت اليهوديّ. لم يأتِ اختيار الرئيس المصريّ للتاريخ من باب الصدفة. ففي ذلك الأحد، أي يوم 20 تشرين الثاني/نوفمبر، يقع عيد الأضحى عند المسلمين، وهو ذكرى تضحية النبيّ ابراهيم، الذي تعترف به الديانات التوحيديّة الثلاث.

في القدس، علت قرقعة محمومة. فلم يسبق قطّ أن جرت الاستعدادات لاستقبال رئيس دولة بهذا القدر من العجلة وعدم اليقين! يروي المدير السابق لمكتب مناحيم بيغين، فيقول: «كيف السبيل إلى الاستعداد؟ كان ذلك كمحاولة الذهاب إلى القمر. كنّا مستعدّين لاستقبال السادات بصفته رئيس دولة صديقة، فيما إسرائيل ومصر لا تزالان في حالة حرب[12]». طُلب إلى فرقة أوركسترا الجيش الإسرائيليّ، التي تجهل النشيد الوطنيّ المصريّ، الاستعداد لعزفه في الحال، على أساس شريط مسجّل من راديو القاهرة. لم يكن بيغين يعلم حتّى بأيّة لغة سيلقي السادات خطابه أمام الكنيست. وقال: «إذا ألقى خطابه بالإنكليزيّة، فسألقي خطابي بالإنكليزيّة أيضًا، أمّا إذا ألقاه بالعربيّة، فسأفعل ذلك بالعبريّة». حتّى أنّ البعض سار خطوات كثيرة إلى الأمام. فقد صنع برمان، صانع الأعلام الشهير في شارع هيليني هامالكا في القدس، أعلامًا مصريّة بكلّ القياسات، بدون انتظار التأكيد الرسميّ لنبأ الزيارة.

---

12 كلمة إلياهو بن إليسار في ندوة بعنوان *Sadate and His Legacy, Egypt and the World 1977-1997* في معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، 1988.

وأعلن صحفيّون من أنحاء العالم كلّه أنّهم سيصلون إلى القدس، فجرى تحويل مسرح المدينة على عجل إلى مركز صحفيّ.

في 18 تشرين الثاني/نوفمبر، تمّ إيقاف حركة الملاحة الجويّة لمدّة ساعة. وللمرّة الأولى، حطّت طائرة مصريّة على الأرض الإسرائيليّة. وكان على متنها الوزير المصريّ لشؤون الرئاسة، ومسؤول المراسم، وحاجب السادات، ومساعده، وطاهيه الخاصّ، ورجال أمن، واختصاصيّو اتّصالات، وعدد من أمناء السرّ والموظّفين. ونزل الجميع في «فندق الملك داوود» في القدس، حيث حُجزت مئة غرفة.

في العالم العربيّ، حلّ الغضب محلّ الذهول. ووقعت اعتداءات ضدّ سفارتَي مصر في أثينا وبيروت. كما أُحرقت سفارة مصر في طرابلس الغرب على أيدي متظاهرين، تلقّوا الأمر من القذّافي بلا شكّ. سافر السادات إلى دمشق لشرح مبادرته لحافظ الأسد، لكنّه لم يتوصّل إلى إقناعه قطّ. وأعلنت سوريا «يوم حداد وطنيّ». أمّا الملك السعوديّ فهد، وبرغم أنّه مقرّب من الولايات المتّحدة، فقد «ابتهل إلى الله بأن تسقط الطائرة التي تقلّ السادات إلى القدس وتتحطّم قبل أن يصل إليها[13]».

في مصر، كاد الأمر يبلغ حدّ الأزمة السياسيّة. فوزير الخارجيّة اسماعيل فهمي قدّم استقالته في اليوم نفسه الذي أعلِن فيه عن الزيارة، برغم أنّه كان من المعتدلين، ومن أبرز مهندسي التقارب مع الولايات المتّحدة. وقد قال لأحد الصحفيّين الأميركيّين موضحًا: «قلتُ للرئيس: إذا أردتَ لقاء مناحيم بيغين، فتلك ليست بمشكلة. سأرتّب لك هذا اللقاء في أيّ مكان في العالم. لكن لا تذهب إلى إسرائيل[14]». وبدقّة أكبر، قال: «إذا استقلّيتَ الطائرة وذهبت إلى القدس، فأنت

---

13 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 116.

14 دورين كايز، *Frogs and Scorpions - Egypt, Sadat and the Media*، لندن، Frederick Muller Limited، 1984، ص. 13.

تعترف تلقائيًا بإسرائيل، وتضع حدًّا لحالة الحرب. وبذلك أنت تستخدم ورقتينا الأساسيّتين من دون أن تربح شيئًا. أمّا إسرائيل فتربح كلّ شيء، وتتضاعف قدرتها التفاوضيّة[15]».

لقد قام السادات من جديد، وكما حين طرد الخبراء السوفيات، بخطوة من جانب واحد، من دون أن يطلب شيئًا في المقابل. فقد ظنّ أنّ رحلته إلى القدس ستسمح بكسر حاجز نفسيّ يحول دون قيام أيّ سلام في المنطقة. وراهن على الطابع الاستعراضيّ لمبادرته لإنهاء حرب عمرها ثلاثون عامًا. كان كفلّاح من مصر العليا يرغب في وضع حدٍّ لتاريخ ثأرٍ لا تنتهي فصوله، فيذهب إلى عدوّه باسطًا قماش عمامته على ذراعه – قماش بحجم كفن. فإذا ما أوصِد في وجهه الباب، لا يبقى أمامه إلّا أن ينتحر. أمّا إذا فُتح، فيمكنه أن يحلّ فورًا خلافًا قديمًا جدًّا، ويعقد مصالحة نهائيّة، يعزّزها إتمام زيجة أو أكثر بين أفراد العائلتين...

إستُبدل اسماعيل فهمي بمساعده، محمّد رياض، الذي استقال بدوره بعد عدّة ساعات. هل يجب العدول عن الزيارة؟ هذا غير وارد. إتّجه السادات نحو رجل ثالث، بطرس بطرس غالي، وهو خبير موهوب في علم السياسة، واختصاصيّ في القانون الدوليّ، عُيِّن قبل ثلاثة أسابيع وزير دولة لدى رئاسة الوزراء، من دون حقيبة محدّدة. لكنّه هذه المرّة لم يُمنح منصبًا لا وزن له، فقد قال له نائب الرئيس حسني مبارك: «بقرار رئاسيّ، تمّ منذ قليل تعيينك وزير دولة للشؤون الخارجيّة، ووزير خارجيّة بالوكالة. وبهذه الصفة، ستنضمّ إلى الوفد الذي سيرافق الرئيس إلى إسرائيل غدًا السبت[16]».

كان بطرس غالي يعرف منذ عدّة أيّام أنّ تلك الزيارة ستتمّ، فقد طُلب منه في سرّية مطلقة أن يحضّر الخطوط العريضة للخطاب الذي

15 إسماعيل فهمي، المرجع السابق، ص. 257.
16 بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 28-29.

سيلقيه السادات في الكنيست. وفي الحال، انعزل في مكتبته لمراجعة عدد هائل من الوثائق. كان يجب كتابة الخطاب بالإنكليزيّة، لكنّ لغة شكسبير تحلّ في المرتبة الثالثة لدى هذا القانونيّ، بعد العربيّة والفرنسيّة. فحظي بمساعدة صديق له، وهو مجدي وهبة، أستاذ الأدب الإنكليزيّ في جامعة القاهرة... لقد كان بطرس غالي مطّلعًا على الأسرار، لكنّه لم يتوقّع أن يُدفع بين ليلة وضحاها إلى رأس الدبلوماسيّة المصريّة! هذا البورجوازيّ القبطيّ الكبير البالغ من العمر خمسة وخمسين عامًا، هو حفيد رئيس للوزراء اغتيل في العام 1910. وقد فسّر بعض الجرائد العربيّة الأمر بمكر: «لمّا لم يقبل أيّ مسلم بمرافقة السادات إلى القدس، تمّ اختيار مسيحيّ متزوّج بيهوديّة[17]».

عاشت إسرائيل حالة من النشوة. وخصّصت الصحف صفحات بكاملها لـ«الرجل الشجاع» الذي دأبت حتّى ذلك الحين على تصويره بصورة السياسيّ المرائي، والساعي إلى الحرب، والمؤيّد القديم للنازيّة. وأخذت إذاعة الجيش الإسرائيليّ تبثّ أغاني لأمّ كلثوم. وسُلّمت بواسطة إنترفلورا باقة فخمة من الزهور، طلبتها من تل أبيب جمعيّة بائعي الزهور الإسرائيليّين، إلى مقرّ إقامة السادات، أُرفِقت ببطاقة تتمنّى للرئيس المصريّ رحلة سعيدة. كان الأمر وكأنّ التوقيع على السلام قد تمّ!

[17] كانت الزوجة الثانية لبطرس غالي هي ليا نادلر، يهوديّة مصريّة من الإسكندريّة.

18

شالوم

مع اقتراب الموعد، كان أنور السادات يحسب قوة الزلزال الذي يطلقه. هذه المرّة هو لا يكتفي بإحداث مفاجأة، بل يثير الذهول، معطيًا الانطباع بأنّه يغيّر مسار التاريخ. كان ابن ميت أبو الكوم الذي حلم في نهاية مراهقته بأن يصبح ممثّلًا، يستعدّ للصعود إلى أكبر خشبة في العالم. وقد قال له الرئيس كارتر عبر الهاتف: «عيون العالم عليك».

كتبت جريدة بريطانيّة «الرجل الذي يقوم بمجازفة كهذه مرشّح ليتلقّى، في آنٍ واحد، جائزة نوبل للسلام ورصاصات يطلقها عليه إرهابيّ». وقد ثبتت صحّة هذا التعليق في كلا شقّيه في الأعوام التالية. «كنت مقتنعة بأنّ زوجي لن يعود من القدس حيًّا»، تؤكّد من جهتها جيهان السادات[1]، وقد رجته أن يرتدي سترة واقية للرصاص لكنّه رفض.

عشيّة الزيارة، كان أفراد العائلة كلّهم مجتمعين في الإسماعيليّة. وراحوا يأخذون الصور العائليّة الواحدة بعد الأخرى، وكأنّها المرّة الأخيرة التي يتقابلون فيها. كان أنور يلاعب حفيده شريف، لكنّ جرس الهاتف لم يكفّ عن الرنين، فبرنامج الإقامة في إسرائيل يجري تعديله باستمرار.

---

[1] جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 410.

نهاية بعد ظهر السبت 19 تشرين الثاني/نوفمبر، أتت مروحيّة لتقلّه إلى قاعدة أبو صوير العسكريّة. وجلس في طائرة بوينغ 707 الرئاسيّة مساعدوه، وصحفيّون مصريّون ونجوم محطّات التلفزة الأميركيّة الأساسيّة الثلاث: والتر كرونكايت (سي.بي.أس)، وباربارا والترز (إيه. بي.سي)، وجون تشانسلور (أن.بي.سي).

في خلال الرحلة حافظ السادات، وهو يدخّن غليونه، على هدوء كبير. وراح يدردش مع صديقه، الثريّ عثمان أحمد عثمان، ويضحك ملء فمه لدعاباته. أمّا بطرس غالي، الذي كان يشعر بالانزعاج، شأنه شأن معظم المسؤولين المصريّين، فلم يكن يصدّق، وكتب قائلًا: «كيف يمكن القيام بتلك الرحلة المدهشة من دون تأثّر؟[2]». آنذاك كان «بطل العبور»، إذا جاز التعبير، فوق سحابة. لم تدم الرحلة جوًّا سوى أربعين دقيقة، وما كادت الطائرة تدخل المجال الجويّ الإسرائيليّ حتّى بدأت الاستعداد للهبوط.

في مطار بن غوريون في اللدّ، كانت الانفعالات أقوى من أن تصفها الكلمات. فكلّ أفراد الطبقة السياسيّة الإسرائيليّة، والدبلوماسيّين، والسلطات الروحيّة، إضافة إلى ألفَي صحفيّ ومصوّر من أنحاء العالم كلّه حبسوا أنفاسهم. كانت الساعة الثامنة، والظلام قد حلّ. توقّفت الطائرة على المدرج، فاتّجه نحوها درج هبوط لشركة طيران إلعال، تضيئه الكشّافات.

لم تشأ أجهزة الأمن الإسرائيليّة المجازفة، فوضعت قنّاصة على أسطح المطار. لعلّ الحكاية كلّها ليست سوى عمليّة لذرّ الرماد في العيون، حيث قد تخرج من الطائرة المصريّة فرقة كوماندوس لتصفية

---

[2] بطرس بطرس غالي، *Le Chemin de Jérusalem*، المرجع السابق، ص. 31.

كلّ القادة السياسيّين الإسرائيليّين[3]. حتّى أنّ جنرالات إسرائيليّين تمنّوا استنفار جنود الاحتياط، لكنّ أحدًا لم يُصغ إليهم.

«هل أرييل شارون هنا؟»

حين فُتح الباب، لم يكن السادات أوّل مَن ظهر، بل امرأة، تلاها أشخاص آخرون، وأخيرًا... ظهر هو. وفي أصقاع العالم كلّها، أحسّ المشاهدون وكأنّهم يتفرّجون على وصول الإنسان الأوّل إلى سطح القمر. كان يرتدي بزّة رماديّة مشرقة اللون، ويبتسم ابتسامة خفيفة. ويروي بطرس غالي قائلًا: «من جديد لاحظتُ الهدوء الذي ينبعث من السادات. لم يبدُ عليه ما يشير إلى أنّ هذه اللحظة غير عاديّة. ولم تظهر على الرئيس أدنى إشارة إلى العصبيّة أو الشعور بالإثارة. كان واقفًا، يسبح في ضوء يعمي الأبصار... كان حضوره أشبه برؤى الكتاب المقدّس[4]». لم تظهر عليه أيّة إشارة إلى العصبيّة؟ حقًّا! لاحقًا قال السادات لأحد المؤتمنين على أسراره: «في أعلى درج الهبوط، كنت بحال قريبة من الدوار والإحساس بالإغماء. نزلت الدرجات وكأنّني لا أحسّ بالعالم من حولي[5]». وقال لزوجته: «عندما وطئت قدمي لأوّل مرّة التراب الإسرائيليّ شعرت أنّني لست من هذا العالم، شعرت كأنّني الطير[6]».

احتفاء بوصوله، عُزفت الأبواق وأطلقت المدافع إحدى وعشرين طلقة. وعلت لافتات ترحيب كبيرة كُتب عليها بالعربيّة والعبريّة «أهلًا

---

3 شارل أندرلين، *Paix ou guerres: les secrets des négociations israélo-arabes, 1917-1997*، Stock، 1997، ص. 401.

4 بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 31.

5 أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص. 155.

6 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 412.

بك في إسرائيل يا سيادة الرئيس». ورفرف علما البلدين جنبًا إلى جنب، وهو أمر لا سابقة له أبدًا.

يروي إسحاق رابين[7] قائلًا: «حين ظهر الرئيس السادات، وبدأ بنزول درجات السلّم، بلغ الانفعال الذي تملّكنا ذروته. وشعرتُ بأنّني أعيش حلمًا[8]».

كان البروتوكول الإسرائيليّ يقضي بعدم تقديم الأسلحة تكريمًا للضيوف بعد مغيب الشمس. لكنّ أهمّية ذلك الحدث كانت تستحقّ خرق قواعد البروتوكول! بعد الإصغاء إلى النشيد الوطنيّ المصريّ، تلاه النشيد الوطنيّ الإسرائيليّ، استعرض السادات حرس الشرف، يرافقه بيغين، فسأل هذا الأخير: «هل أرييل شارون هنا؟». إقترب المنتصر في معركة الدفرسوار، فقال له الرئيس المصريّ وهو يصافحه بسعادة: «كنت آمل القبض عليك في العام 1973. إذا أتيتَ مرّة أخرى إلى الضفّة الغربيّة للقناة مجدّدًا، فسيكون السجن في انتظارك!». أجاب شارون مبتسمًا: «أبدًا، أنا حاليًّا وزير للزراعة». وحين قدّم إليه بيغين أبا إيبان، الذي كان وزير خارجيّة إسرائيل من 1966 وحتّى 1974، أجاب السادات: «نعم، أعلم. لديّ تلفزيون». ثمّ قال بمكر لإيبان، المتزوّج من امرأة مولودة في الإسماعيليّة: «لنتحادث بالعربيّة لكي لا يفهمنا رئيس وزرائك». وهو ما فعلاه لبعض الوقت[9].

وحين أدّى رئيس الأركان الإسرائيليّ موردخاي غور التحيّة العسكريّة للسادات، قال له هذا الأخير باسمًا: «أترى؟ هذه ليست خدعة، لقد أتيتُ!». كان الأمر أشبه بلقاء السادات أصدقاء قديمي العهد. فقد نادى

---

7 كان إسحاق رابين وهو من حزب العمل رئيسًا للوزراء من حزيران/يونيو 1974 وحتّى أيّار/مايو 1977، ثمّ عاد ليتولّى ذلك المنصب بين العامين 1992 و1995.

8 إسحاق رابين، المرجع السابق، ص. 244.

9 أبا إيبان، *Autobiographie*، Buchet-Chastel، 1979، ص. 472.

بدون كلفة دايان، الرجل ذا العصبة السوداء، والشيطان في نظر العرب، قائلًا له: «هالو، موشي!» وكاد يعانق غولدا مائير، رئيسة الوزراء السابقة، المُلقّبة بـ«جدّة إسرائيل»، التي اختصرت زيارة للولايات المتّحدة لتعود إلى تل أبيب على وجه السرعة، وقال لها: «أرغب منذ وقت طويل في معرفتك».

أثار ارتياح السادات انطباع إسحاق رابين، الذي قال: «كان يصافح أعداء الأمس، واحدًا بعد الآخر، ويجد طريقة ليقول لكلّ منهم الكلمة المناسبة تمامًا. وهذا ما يثبت أنّه إمّا استعدّ للأمر استعدادًا مدهشًا قبل سفره، أو أنّه موهوب على نحو استثنائيّ لهذا النوع من اللقاءات[10]».

تسمّر معظم الإسرائيليّن أمام أجهزة التلفزيون. وبرغم كلّ شيء، وقف في الطريق إلى القدس أشخاص كثيرون أتوا للهتاف لهذا الرجل الآتي من كوكب آخر. ورأى السادات بكثير من التأثّر نساء يمددن أذرعهنّ نحوه حاملاتٍ أطفالهنّ. كان يجهل أنّ برنامج الرحلة قد تمّ تعديله قبل نصف ساعة من هبوط طائرته، بناءً على طلب بيغين. فقد لاحظ هذا الأخير الذي وصل إلى المطار عبر الطريق الدوليّ الجديد، غياب الأسفلت تحت جسر بن شيمين، فهتف قائلًا: «ماذا سيظنّ السادات؟ أنّه ليس لدينا طرق معبّدة في إسرائيل؟» وبلمح البصر أعادت الشرطة نشر أشرطة تنظيم السير على طريق القدس القديم، عبر الرملة[11]...

لقاء شخصيّ في فندق الملك داوود

تولّى عشرة آلاف جنديّ وشرطيّ الأمنَ في المدينة المقدّسة التي جعل منها الإسرائيليّون، بالرغم من أنف الجميع، عاصمة لهم. وأمام باب

10 إسحاق رابين، المرجع السابق، ص. 244.

11 إلياهو بن إليسار، *Désespoirs de paix. Les mémoires d'un ambassadeur d'Israël*، Ramsay، 2001، ص. 100-101.

«فندق الملك داوود»، استقبلت الرئيس المصريّ فتيات يرقصن على ألحان الأكورديون. كان لهذا القصر الفخم مكان بين فصول التراجيديا الدامية في الشرق الأوسط. فبعدما بنته في العام 1928 عائلة موسيري، وهي عائلة من اليهود المصريّين، أصبح مركزًا لأجهزة الإدارة والجيش البريطانيّة في فلسطين خلال حقبة الانتداب. وتعرّض في 22 تمّوز/يوليو 1946 لهجوم قام به أفراد من عصابة الإرغون متنكّرين بملابس عربيّة، ما أدّى إلى تدمير جناح بكامله ومقتل أكثر من تسعين شخصًا. ولم يكن قائد الإرغون سوى مناحيم بيغين نفسه.

ما كاد السادات يستقرّ في جناحه، في الطابق السادس من فندق «الملك داوود»، حتّى كان له لقاء برئيس الوزراء الإسرائيليّ، على انفراد، دام ساعة. كانت نقاط عدّة تجمع بين الرجلين: فكلاهما قوميّ شرس، ولم يتردّدا في صباهما في قتال المحتلّ البريطانيّ بالوسائل كافّة. ولاحقًا، لم يكن أيّ منهما يتخيّل أنّه سيصل إلى قمّة الحكم في بلده. كما أنّ كليهما يكنّ عداوة شديدة للشيوعيّة. أمّا في الواقع، فقد كان بيغين والسادات يتشابهان تشابه الليل والنهار. فالأوّل يهوديّ بولونيّ، يحمل شهادة في الحقوق، ومجاز في الأدب الكلاسيكيّ، ومنظّر عنيد للصهيونيّة. أمّا الثاني، فابن النيل، ذو ثقافة هزيلة، وبراغماتيّة تسمح له بتغيير آرائه.

بدأ لقاؤهما بتبادل الحديث حول... مشاكل القلب الصحية التي يعاني منها كلّ منهما[12]، قبل أن ينتقلا إلى المسائل الجوهريّة. وبحسب إلياهو بن إليسار، مدير مكتب بيغين، وسفير إسرائيل في مصر لاحقًا، فإنّ هذا اللقاء الأوّل كان حاسمًا، وهو يقول: «في ذلك المساء، قرّر الرجلان أنّ تُحَلّ الخلافات التي قد تطرأ بين بلديهما، ومهما كانت، بالوسائل

---

12 أمنون كابليوك، «De l'affrontement à la convergence»، *Le Monde diplomatique*، كانون الأوّل/ديسمبر 1997.

السلميّة[13]». نجهل مَن منهما بادر إلى استعمل عبارة: «لا حرب بعد اليوم. لا سفك دماء بعد اليوم». لكنّ كليهما كان قد تبنّاها في اليوم التالي. فقد راح بيغين يردّد «لا حرب بعد اليوم. لا سفك دماء بعد اليوم»، فيما جعل السادات منها قولًا مسجّعًا، خاصًّا به: No more war after the October war (لا حرب بعد حرب أكتوبر أبدًا).

«لا بدّ أن نستعدّ للحرب»

بدأ اليوم التالي بداية جيّدة للرئيس المصريّ الذي استيقظ مع الفجر، ليتبلّغ أنّ ابنته نهى ولدت في الليل طفلة دعتها جيهان. مازح زوجته بالهاتف قائلًا: «إذا كانت داكنة مثلي، فلا بد أن تكون حسنة المظهر حقًّا[14]».

صباح 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1977، في ذلك الأحد الذي احتفل فيه المسلمون بعيد الأضحى، ذهب السادات للصلاة في المسجد الأقصى، ثالث الأماكن المقدّسة في الإسلام، بعد مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، والمكان الذي عرج النبيّ محمّد إلى السماء كما جاء في الحديث النبويّ الشريف. لكنّ أحدًا لم ينسَ أنّه في الأقصى أيضًا، وقبل ستّة وعشرين عامًا، اغتيل الملك الأردنيّ عبدالله، الذي شرع في مفاوضات سلام مع إسرائيل[15]... جلس السادات أرضًا، وبيده سبحته، مستمعًا إلى خطبة ملتهبة يلقيها إمام المسجد دفاعًا عن حقوق الفلسطينيّين. وعند

---

13 مقابلة إلياهو بن إليسار مع جريدة جيروزاليم بوست، 28 تشرين الثاني/نوفمبر 1997.

14 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 211-417.

15 بعدما كان ملكًا على الضفّة الشرقيّة لنهر الأردن (1946)، أصبح عبدالله الأوّل ملكًا على الأردن (1949)، بعد عقده اتّفاقًا سرّيًا مع غولدا مائير سمح له بالسيطرة على الضفّة الغربيّة لنهر الأردن أثناء الحرب الأولى التي وقعت بين إسرائيل والدول العربيّة. وفي 20 تمّوز/يوليو 1951، وفيما كان يصلّي في المسجد الأقصى، اغتيل برصاص شابّ فلسطينيّ له من العمر واحد وعشرون عامًا.

خروجه من المسجد، صاح به شبّان فلسطينيّون بنبرة لوم: «فلسطين، فلسطين يا سادات!».

وبعد وقت قصير، وأمام كنيسة القيامة، رحّب به ممثّلو الكنائس المسيحيّة المختلفة. وهناك واجهه متظاهرون أشدّ عدائيّة هتفوا ضدّه «خائن!»، «عميل!»، قبل أن تفرّقهم قوّات النظام.

بعد ذلك، كان عليه زيارة «ياد فاشيم»، بناء على رغبة مناحيم بيغين. ولدى دخوله النصب التذكاريّ المخصّص لضحايا المحرقة اليهوديّة الستة ملايين، رفض السادات القلنسوة اليهوديّة التي قُدِّمت إليه. ولنا أن نتخيّل أيّ تأثير كان ليكون على العالم العربيّ لو شوهد السادات معتمرًا تلك القلنسوة... وفي السجلّ الذهبيّ، كتب بالعربيّة والإنكليزيّة: «سدّد الله خطانا على درب السلام لتنتهي إلى الأبد عذابات البشريّة كلّها».

وفي خلال الغداء الذي تلا ذلك في «فندق الملك داوود»، اقترح بيغين مدّ خطّ هاتفيّ مباشر بين القاهرة وتل أبيب، فلم يعقّب الرئيس المصريّ. وعند الساعة الرابعة، وبعدما انحنى أمام نصب الجنديّ المجهول، ووضع عليه إكليلًا من الزهور، وصل إلى الكنيست. كانت تلك اللحظة الأكثر انتظارًا في الزيارة إلى إسرائيل. ومع أنّ التصفيق ممنوع في المبدأ بداخل الكنيست، فقد شمح به استثنائيًّا لتلك المناسبة. وقف النوّاب والوزراء الإسرائيليّون احترامًا للسادات. وحده وزير الدفاع عزرا وايزمان بقي جالسًا في كرسيّ متحرّك، فقد تعرّض قبل فترة قصيرة إلى حادث سير سبّب له كسورًا في إحدى ساقيه، وفي عدّة أضلاع، لكنّه أصرّ على الحضور، برغم اعتراض أطبّائه الذين أرادوا منعه من مغادرة المستشفى، وانتهى بهم الأمر بأن رافقوه.

جلس أنور السادات في مقاعد الشخصيّات، وزُوّد بسمّاعة تسمح له بسماع كلمة ترحيب بالعبريّة ألقاها إسحاق شامير، رئيس الكنيست.

وحين نهض لإلقاء كلمته، تحت صورة تيودور هرتزل، مؤسّس الحركة الصهيونيّة، علا التصفيق مجدّدًا.

بسم الله... ألقى السادات خطابه بالعربيّة، متوقّفًا بعد كلّ كلمة من كلماته، وكأنّه مدرّس يستكتب طلّابه إملاءً. لكنّ الخطاب ما عتّم أن تسارع ليبلغ وتيرته الطبيعيّة:

«قد جئت إليكم اليوم على قَدَمَيْن ثابتَتَيْن، لكي نبني حياة جديدة، لكي نُقِيم السلام. وكلّنا على هذه الأرض، أرض الله، كلّنا، مسلمين ومسيحيين ويهود، نعبد الله. وتعاليم الله ووصاياه، هي حبّ وصدق وطهارة وسلام. إنني لم أجئ إليكم لكي أعقد اتفاقًا منفردًا بين مصر وإسرائيل (...) لقد جئت إليكم لكي نبني معًا السلام الدائم، العادل، حتى لا تُراق نقطة دم واحدة من جسد عربيّ أو إسرائيليّ (...) الحقّ أقول لكم، إنّ السلام لن يكون اسمًا على مسمّى ما لم يكن قائمًا على العدالة، وليس على احتلال أرض الغير. ولا يَسُوغ أن تطلبوا لأنفسكم ما تنكرونه على غيركم. وبكلّ صراحة، وبالروح التي حدت بي على القُدوم إليكم اليوم، فإني أقول لكم إنّ عليكم أن تتخلّوا، نهائيًا، عن أحلام الغزو، وأن تتخلّوا، أيضًا، عن الاعتقاد بأنّ القوّة هي خير وسيلة للتعامل مع العرب. إنّ عليكم أن تستوعبوا جيدًا دروس المواجهة بيننا وبينكم، فلن يجديكم التوسع شيئًا (...)

أرضنا لا تقبل المساومة، وليست غُرضة للجدل. إنّ التراب الوطنيّ والقوميّ، يعتبر لدينا في منزلة الوادي المقدس طُوى، الذي كلّم فيه الله موسى – عليه السلام. ولا يملك أي منّا، ولا يقبل، أن يتنازل عن شبر واحد منه، أو أن يقبل مبدأ الجدل والمساومة عليه (...) ما هو السلام بالنسبة إلى إسرائيل؟ أن تعيش في حدودها، مع جيرانها العرب، في أمن واطمئنان. هذا منطق أقول له نعم. أن تحصل إسرائيل على كل أنواع

الضمانات، التي تؤمّن لها هَاتَيْن الحقيقتين. هذا مطلب أقول له نعم (...) هناك أرض عربيّة احتلّتها، ولا تزال تحتلّها إسرائيل بالقوّة المسلّحة، ونحن نصرّ على تحقيق الانسحاب الكامل منها، بما فيها القدس العربيّة. القدس التي حضرت إليها باعتبارها مدينة السلام، والتي كانت، وسوف تظلّ على الدوام، التجسيد الحيّ للتعايش بين المؤمنين بالديانات الثلاث. وليس من المقبول أن يفكّر أحد في الوضع الخاصّ لمدينة القدس، في إطار الضمّ أو التوسّع. وإنّما يجب أن تكون مدينة حرّة، مفتوحة لجميع المؤمنين. وأهمّ من كلّ هذا، فإن تلك المدينة، يجب ألّا تُفصل عن هؤلاء الذين اختاروها مقرًّا ومقامًا لعدة قرون (...) وإذا كنتم قد وجدتم المبرّر، القانونيّ والأخلاقيّ، لإقامة وطن قوميّ على أرضٍ لم تكن ملكًا لكم، فأولى بكم أن تتفهّموا إصرار شعب فلسطين على إقامة دولته من جديد في وطنه».

لم يكن الجنرال وايزمان الذي يتقن العربيّة، بحاجة إلى ترجمة الخطاب إلى العبريّة، فكتب على ورقة كلمة صغيرة مرّرها إلى بيغين ودايان، جاء فيها «لا بدّ أن نستعدّ للحرب». أومأ زميلاه برأسيهما علامة الموافقة. الحرب؟ ربّما لا، لكنّ السادات لم يكن يضع قواعد السلام الذي كان منتظرًا. بالنسبة إلى العرب الذين تعلّقوا بشفتَي السادات على شاشاتهم، كان هذا الخطاب شبه كامل. عيبه الوحيد هو أنّه قاله في أرض عدوّة. لا في إسرائيل فقط، بل في القدس، المدينة المقدّسة لدى الديانات الثلاث والتي زعم الصهاينة أنّهم جعلوا منها عاصمتهم.

لم يجد بطرس غالي في ذاك الخطاب كلمة واحدة من النصّ الذي طُلب منه كتابته. ومع ذلك، فحين سمح لنفسه في الطائرة بسؤال الرئيس المصريّ عن رأيه في عمله، أجابه الأخير: «عظيم، عظيم[16]». علم لاحقًا

[16] بطرس بطرس غالي، ص. 73.

أنّ كاتبين آخرين كُلِّفا المساهمة في كتابة الخطاب: رئيس تحرير جريدة الأخبار موسى صبري (وهو قبطيّ مثل بطرس غالي، سبق للسادات أن عرفه في السجن في عهد الملك فاروق)، ودبلوماسيّ شابّ يدعى أسامة الباز (أصبح فيما بعد مستشارًا دبلوماسيًّا لحسني مبارك). إستُدعي صبري للكتابة قبل الزيارة بثمانٍ وأربعين ساعة، فأَعجب نصّه السادات الذي طلب منه توحيده مع نصّ أسامة الباز[17]. وفي فندق الملك داوود ترجم النصّ النهائيّ للخطاب إلى الإنكليزيّة سامي رزق الله، وهو قبطيّ آخر وعضو في الوفد الرئاسيّ. إضطرّ سامي في خلال الليل إلى مراجعة العهد القديم بالإنكليزيّة. فذهبت إحدى موظّفات الفندق، التي أخذ منها التأثّر الشديد، إلى منزلها لتأتيه بنسخة منه[18].

بعدما اقتبس السادات أقوالًا من النبيّين داوود وزكريّا، أنهى خطابه بآية من القرآن الكريم. ثمّ عاد إلى مقعده وسط التصفيق، ومسح جبينه بمنديل، فيما استعدّ رئيس الوزراء الإسرائيليّ للردّ عليه بالعبريّة. إرتجل بيغين قسمًا من كلمته أخذ فيه بالاعتبار أقوال الرئيس المصريّ. فحيّا شجاعة الرجل الذي تجرّأ على اجتياز «المسافة التي تكاد لا تنتهي بين القاهرة والقدس»، وأكّد على أنّ إسرائيل تريد «سلامًا شاملًا وحقيقيًّا، في إطار مصالحة كاملة بين الشعبين اليهوديّ والعربيّ». لكنّه لم يأتِ قطّ على ذكر الانسحاب من الأراضي المحتلّة أو حقوق الفلسطينيّين. وفي المقابل دافع رئيس الوزراء الإسرائيليّ عن حقوق الشعب اليهوديّ في العودة إلى وطن أجداده، وردّ على الرئيس المصريّ بنبرة جافّة، فقال: «لا يا سيّدي، نحن لم نحتلّ أيّة أرض أجنبيّة، بل عدنا إلى وطننا. إنّ العلاقة التي تربط شعبنا بهذه الأرض علاقة أزليّة، بدأت منذ أقدم الأزمنة في تاريخ البشريّة، ولم تنقطع قطّ. على هذه الأرض بنينا ثقافتنا.

---

17 موسى صبري، مرجع سابق، المرجع السابق، ص. 421-422.

18 موسى صبري، **السادات: الحقيقة والأسطورة**، المرجع السابق، ص. 427.

وهنا تجلّت الرؤى لأنبيائنا، ونطقوا بالعبارات المقدّسة التي اقتبستَها اليوم. هنا سجد ملوك اليهوديّة وإسرائيل. هنا أصبحنا شعبًا...».

بعد ذلك تلا زعيم المعارضة شمعون بيريز خطابًا أقلّ حدّة، إلّا أنّه لم يحظَ بالقدر عينه من الاهتمام. ويقول الجنرال وايزمان متذكّرًا: «حين وصل السادات إلى نهاية خطابه، شعرتُ بأنّه شنّ علينا هجوم يوم عبور سياسيًّا. استهلّ الخطاب بمقدّمة استعراضيّة مذهلة، ونقل حرب رمال سيناء إلى قاعة المناقشات في الكنيست. بدا أمام عيون العالم كلّه وكأنّه يحشرنا في الزاوية (...) لقد احتلّ السادات مقدّمة خشبة المسرح، وأطلق نيران مدفعيّته الثقيلة، فيما لم يكن لدى بيغين للردّ عليه سوى مدفع هاون صغير[19]».

فترات صمت طويلة وثقيلة

خيّب خطاب السادات آمال الإسرائيليّين، مثلما خيّب خطاب بيغين آمال المصريّين. وبدا كلّ من الخطيبين وكأنّه وجّه كلمته إلى معسكره الخاصّ. واتّصف العشاء الرسميّ الذي أقيم في فندق الملك داوود – وخلا من الكحول، احترامًا للمعتقدات الدينيّة للرئيس المصريّ – بأنّه كان في غاية البرودة. كانت المائدة كبيرة جدًّا، وفصلت بين المدعوّين مسافات كبيرة للسماح بمحادثات شخصيّة. لكنّ العشاء خيّمت عليه فترات صمت طويلة وثقيلة. وقال الجنرال وايزمان: «كنّا نردّد منذ سنوات أن ليس لدينا مَن نكلّمه. أمّا الآن وقد بات أمامنا عرب نخاطبهم، بدا أن لا شيء لدينا لنقوله[20]». ويروي موشي دايان قائلًا: «جلس السادات بين بيغين وبيني، مكفهرّ الوجه، غارقًا في أفكاره، يكاد

[19] عزرا وايزمان، المرجع السابق، ص. 45.
[20] المرجع نفسه، ص. 68.

لا يأكل شيئًا، ولا يتفوّه بكلمة واحدة. ظلّ مستغرقًا في الصمت بعد انتهاء الطبق الأوّل، فسألتُه عن رأيه في زيارته. أجابني بأنّه يشعر بخيبة ظنّ كبيرة، خصوصًا بعد خطاب بيغين، ويزمع على أن يقول في المؤتمر الصحفيّ الذي سيُعقَد في اليوم التالي إنّنا رفضنا كلّ اقتراحاته. فأجبته بأنّ ذلك غير صحيح[21]».

حتّى ربطة العنق التي وضعها السادات في خلال ذلك العشاء أثارت الشكوك، فالبعض اعتقد أنّه رأى فيها صلبانًا معقوفة متداخلة... كان عزرا وايزمان، وزير الدفاع الإسرائيليّ، الشخص الوحيد الذي أضفى شيئًا من الحرارة على ذلك العشاء. فهو عرف القاهرة في العام 1940، بصفته طيّارًا في سلاح الجوّ الملكيّ البريطانيّ، وسأل السادات مازحًا عمّا إذا كان بوسعه شراء فيلا في حيّ المعادي. بعد ذلك، انتقل الحديث إلى الحرب، وقال وايزمان بحدّة: «أعرف قناة السويس جيّدًا، فأحد قنّاصيكم أصاب ابني برصاصة في رأسه...». قطع السادات الصمت الذي تلا ذلك التوضيح قائلًا: «هذه هي الحرب... نحن ننوي التوصّل إلى السلام، وأتمنّى لابنك الشفاء». آنذاك، ذكر أحد أعضاء الوفد المصريّ أنّ السادات خسر شقيقه في المعركة. فعقّب عليه بيغين يشير إلى أنّ بين الإسرائيليّين الجالسين إلى المائدة مَن خسروا أيضًا أفرادًا من عائلاتهم... وفي النهاية، انسحب والسادات ليجريا محادثة على انفراد.

لكنّ الصقيع زال بعد ذلك بقليل، وبغياب الرجلين، حول زجاجة ويسكي في غرفة مصطفى خليل رئيس الوزراء المصريّ، بحضور عزرا وايزمان، ونائب رئيس الوزراء الإسرائيليّ ييغائيل يادين، وبطرس غالي. عاد المجتمعون إلى الحديث عن الحروب الماضية، وتبادلوا الأرقام. وحين طلب خليل إلى وزير الدفاع الإسرائيليّ أن يؤكّد له امتلاك الدولة اليهوديّة

---

[21] موشي دايان، المرجع السابق، ص. 110-111.

القنبلة الذريّة، نهض الأخير من مقعده وذهب ليملأ كأسه محوّلًا الحديث في اتّجاه آخر... واستمرّت تلك الجلسة حتّى الثانية صباحًا.

بناء على نصيحة مساعديه، استقبل السادات في اليوم التالي الجنرال وايزمان. وفي الحال، سرى تيّار دافئ بين الرجلين. وفي وقت من الأوقات، لامس وزير الدفاع الإسرائيليّ يد الرئيس المصريّ، وقاده نحو إحدى نوافذ جناحه المشرف على أسوار المدينة القديمة، وقبّة الصخرة، وجبل الزيتون... وقال له: «نظر إلى القدس! قل لي، كيف يمكنك تقسيمها؟ تأمّلْها كلّها! لا يمكنك العودة بالزمن أحد عشر عامًا إلى الوراء». أجابه السادات: «لكنّ التراب العربيّ مقدّس. لن يمكنني أن أنظر في عينَي مصريّ واحد، إذا لم تنسحبوا من الأراضي التي احتللتموها في العام 1967[22]».

كان كلّ من الفريقين المصريّ والإسرائيليّ يراقب الآخر منذ الليلة السابقة. ويروي بطرس بطرس غالي فيقول: «لاحظ بيغين أنّ السادات كان يناديني تارة بطرس، وطورًا بيتر. فانتحى بي جانبًا وسألني: لماذا يناديك بالاسمين؟ أجبته بأنّ السادات يناديني بيتر – وهي اللفظة الإنكليزيّة لاسم القدّيس بطرس رسول المسيح – حين يكون راضيًا عنّي، وبطرس حين لا يكون كذلك. وجد بيغين تسلية في تلك اللعبة الصغيرة، فقرّر المشاركة بها على طريقته. كان يدرك أنّ كلمة بيتر تشتقّ من كلمة بيتروس اللاتينيّة، وتعني الصخرة. فبدأ يناديني بيتر حين تزعجه العراقيل التي أضعها في طريق دبلوماسيّته، وبطرس حين أكون سلسًا. لم يعتّم السادات أن لاحظ أنّ بيغين عَكَس المعنى الذي يحمّله هو كلًا من الاسمين، فراح يلاعب نظيره الإسرائيليّ على طريقة الدعابة المتواصلة[23]».

---

22 عزرا وايزمان، المرجع السابق، ص. 78-79.

23 بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 35-36.

هديّة جدّة

أخضعت أجهزة المخابرات الإسرائيليّة تسجيل خطاب السادات في الكنيست لتحليل دقيق. وقام جهاز كمبيوتر بتحليل اختيار الكلمات التي استعملها ووتيرتها، ووقفات صمته، ورفّات جفونه، وطريقة مسحه لجبينه... لتستنتج من ذلك كلّه حسن نيّة السادات.

في ذلك الاثنين، تميّز اللقاء الذي عقده الرئيس السادات مع أعضاء الكنيست، بارتياح أكبر بكثير ممّا كانت عليه الحال في جلسة اليوم السابق الاحتفاليّة. وقال له أبا إيبان، الوزير العمّاليّ السابق: «لقد غيّرتَ بشكل كامل السياق النفسيّ والعاطفيّ الذي تطوّرت فيه علاقاتنا حتّى اليوم». أمّا غولدا مائير، فقد أنهت مداخلتها مثل «جدّة تخاطب جدًّا»، وقدّمت إلى السادات قطعة من المجوهرات بمثابة هديّة إلى جيهان الصغيرة، التي وُلدت في اليوم السابق. إنفجر السادات ضاحكًا مائلًا برأسه إلى الخلف. ومن جديد عاد ليكون الرجل الفاتن الذي اكتشفه الإسرائيليّون لدى نزوله من الطائرة.

وفي خلال مؤتمر صحافيّ مشترك مع بيغين، دعا الرئيس المصريّ رئيس الوزراء الإسرائيليّ «صديقي». سأله أحد الصحفيّين عمّا إذا دعا صديقه إلى القاهرة، فأجاب: «لا، الظروف لا تسمح بذلك بعد». وشرح زيارته إلى إسرائيل على هذا النحو: «كان أحد دوافعي الأساسيّة إعطاء عمليّة السلام دفعًا جديدًا وتخطّي الحاجز النفسيّ الذي يشكّل برأيي سبعين بالمئة من الصراع».

وفي خلال مراسم الوداع في مطار بن غوريون، قال بيغين للسادات: «سيّدي الرئيس، سنتوصّل إلى السلام». فأجابه السادات: «أنا واثق من ذلك. » وأمام سلّم الطائرة، شدّ طويلًا على يد رئيس الوزراء الإسرائيليّ

مصافحًا، وسُمع يقول له مرّات عدّة: «Please, please»، وهو ما قد يعني: «لا تخيّب ظنّي».

كان في المطار أيضًا إسحاق نافون، الرئيس (الذي يجيد العربيّة) للجنة الشؤون الخارجيّة في الكنيست، والذي أصبح بعد أشهر قليلة رئيسًا للجمهوريّة، ومعه زوجته التي خالفت البروتوكول من أجل مرافقته. إقتربت هذه الأخيرة من الرئيس المصريّ، وقالت له بحماسة إنّها ستحتفظ من زيارته بتذكار لا يُنسى. وفي حركة غير متوقَّعة أمسكت بيده، وسحبت من إصبعه خاتمًا وأعطته خاتمها بدلًا منه. لاحقًا قال السادات ضاحكًا لأحد أصدقائه المؤتمنين: «أخذت منّي خاتمًا ذهبيًّا، لتعطيني خاتمًا آخر لا أدري إن كان من الفضّة أو من التنك[24]».

[24] أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص. 166-167.

19

نجم عالميّ

عاد السادات إلى مصر عودة الظافرين، وتزاحمت في طريق الموكب الرئاسيّ حشود الجماهير لتحيّي «بطل العبور» الذي أصبح «بطل السلام». لا شكّ بأنّ السلطات قد استأجرت كعادتها حافلات وشاحنات لتأتي بأعداد كبيرة من المواطنين إلى الأماكن الاستراتيجيّة. إلّا أنّ الجماهير وللمرّة الأولى لم تشعر بأنّها مرغَمة على إظهار تأييدها. حتّى أنّه كان على السلطات منع الأشخاص الشديدي الحماسة من الدخول عنوة إلى المقرّ الرئاسيّ في الجيزة.

ومع ذلك فإنّ معظم أعضاء الوفد الذي رافق السادات إلى القدس ساورتهم مشاعر القلق والخيبة. «الحلم يتحوّل إلى كابوس، فبيغين لم يغيّر مواقفه قيد أنملة واحدة». هذا كان ما قاله أحد أعضاء الوفد المصريّ إلى مراسل «لوموند» الخاص إريك رولو، الذي كتب من جهته معلّقًا: «لقد خسر السادات رهانه... وهو يعود إلى القاهرة خالي الوفاض، أو يكاد[1]». أمّا بالنسبة إلى الأشخاص الأكثر تشاؤمًا، فلم يبقَ

[1] جريدة لوموند، 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1977.

أمام الرئيس المصريّ سوى الاستعداد للحرب بعدما برهن للعالم كلّه عن إرادته تحقيق السلام.

لكنّ السادات كان يرى الأمور بطريقة مختلفة. فبالرغم من أنّ أقوال مناحيم بيغين أصابته بالخيبة، ظلّ مأخوذًا بالوقع الهائل الذي أحدثته مبادرته في العالم. ولم يُرد الاحتفاظ إلّا بالنواحي الأكثر إيجابيّة لتلك الزيارة التاريخيّة. وقد قال لاحقًا: «عدتُ من إسرائيل بعد أن اتّفقتُ هناك على شيئين أساسيّين: أوّلًا، أن تكون حرب أكتوبر آخر الحروب. وثانيًا، أن نتناقش حول منضدة المفاوضات في موضوع الأمن لهم ولنا[2]».

لكنّ السادات، وحرصًا منه على التأكيد على أنّه لا يبحث عن سلام منفرد، استعجل تنظيم لقاء دوليّ في القاهرة، يُفترض به تناول الصراع العربيّ الإسرائيليّ في مجمله، تمهيدًا للعودة إلى مؤتمر جنيف. لكنّ اللقاء مُني بالفشل الذريع، بعدما رفض الدعوة إليه كلّ من الاتّحاد السوفياتيّ وسوريا والأردن ومنظمة التحرير الفسلطينيّة. فانعقد مؤتمر شكليّ في فندق مينا هاوس، بالقرب من الأهرام، لم يضمّ سوى مندوبين من الصفّ الثاني من مصر وإسرائيل والولايات المتّحدة ومنظّمة الأمم المتّحدة.

ومع ذلك، فقد كانت تلك المرّة الأولى التي يأتي فيها إلى القاهرة وفد إسرائيليّ، وهو ما جذب صحفيّي العالم كلّه. وصل الوفد على متن طائرة تابعة لشركة إلعال الجويّة، كُتب عليها من الخارج وبحروف ضخمة كلمتا «السلام» بالعبريّة والعربيّة. شعر رئيس الوفد إلياهو بن إليسار، وهو مدير مكتب رابين، بأنّه وقع في الفخّ حين اكتشف في قاعة المؤتمرات وجود تسعة مقاعد، للمدعوّين الحاضرين كما للغائبين، وأمامها تسع لوحات وتسعة أعلام صغيرة، من بينها لوحة وعلم لمنظّمة

---

[2] أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 449.

التحرير الفلسطينيّة. رفض بن إليسار المشاركة في الجلسة الافتتاحيّة بهذه الشروط، فاقترح عليه المصريّون استبدال عبارة «منظّمة التحرير الفلسطينيّة» بكلمة فلسطين، لكن من دون جدوى. وبعد مناقشات حثيثة، تمّ الاتّفاق على الإبقاء على المقاعد كما هي، وسحب اللوحات والأعلام. وهكذا بدأ المؤتمر، إلى أن لاحظ الإسرائيليّون وهم يهمّون بالجلوس في مقاعدهم أنّ تسعة أعلام من بينها علم منظّمة التحرير مرفوعة أمام واجهة الفندق الرئيسيّة. ولمّا هدّدوا مجدّدًا بالانسحاب، تمّ سحب كلّ الأعلام...

ما كان بوسع مؤتمر مينا هاوس أن يفضي إلى أيّة نتيجة. وقد طلب الوفد الإسرائيليّ، في أثناء إقامته في مصر زيارة مسقط رأس أنور السادات، فكان له ما أراد. وصل الوفد يرافقه عدد كبير من الصحفيّين إلى ميت أبو الكوم ليجد في استقباله شعارات السلام وأغاني المديح... للرئيس المصريّ.

إذا كان الرئيس السودانيّ، المشير جعفر النميري، قد أتى إلى القاهرة تعبيرًا عن دعمه للسادات، فإنّ العرب الأكثر راديكاليّة كانوا ينوون جعل هذا الأخير يدفع ثمن «خيانته». هكذا، اجتمع في 5 كانون الأوّل/ ديسمبر 1977 ممثّلو ليبيا، وسوريا، والجزائر، والعراق، واليمن الجنوبيّ ومنظّمة التحرير الفلسطينيّة، في طرابلس الغرب، حيث قرّروا تجميد علاقاتهم بمصر، وأعلنوا عن تأسيس «جبهة الصمود والتصدّي». من جهته، قرّر السادات – «وبدون استشارة أحد»، كما يوضح بطرس غالي برغم أنّه كان مكلّفًا بمهامّ وزير الخارجيّة[3] – قطع العلاقات الدبلوماسيّة مع كلّ من الجزائر وسوريا وليبيا واليمن الجنوبيّ. ونعت في مجالسه الخاصّة أخصامه العرب بـ«المتخلّفين»، في مقابل مصر ذات «التاريخ

---

[3] بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 56.

العريق الذي يمتدّ سبعة آلاف عام». وسمعه بطرس غالي الذي اعتراه القلق، يقول له: «لا تخف. سيعودون كالكلاب[4]». كان يعلم أنّ العرب، من دون مصر، لا قدرة لهم على الحرب ولا على السلام.

إختارت مجلّة التايم الأميركيّة السادات «رجل العام 1977»، وخصّصت له غلافًا واثنتين وعشرين صفحة. وقد بلغ منه فيض الافتخار أن لفت أحد أصدقائه الصحفيّين إلى حجم شعبيّته الكبير في الولايات المتّحدة، فقال: «كتب بعض الجرائد أنّني لو كنتُ مرشّحًا إلى البيت الأبيض، لانتُخبتُ[5]». وأمام أهرام الجيزة، وقف ابن ميت أبو الكوم، بارتياح نجم هوليووديّ، ليلتقط له فريق مصوّري مجلّة التايم صورًا فوتوغرافيّة. وذكرت مراسلة محطّة إيه.بي.سي في القاهرة، والتي كانت حاضرة آنذاك: «لم يكن ممثّلًا يلعب دور فرعون، بل كان فرعونًا في دور ممثّل[6]».

راح السادات الذي بات رئيسًا على الطريقة الأميركيّة، ينادي، وعلى شاشات التلفزة، أشهر صحفيّي المقابلات بأسمائهم الأولى. فأصبح والتر كرونكايت «والتر»، وباربرا والترز «باربرا». حتّى أنّه شُمع يناديها في خلال مقابلة مسجّلة في نيويورك «بارب»، وفي ذلك أقوى دليل على اندماجه في الأسلوب الأميركيّ!

سيّدة أولى

ساهمت زوجته مساهمة كبيرة في تشكيل صورة السادات «المتأمرك». فبعد «الثورة التصحيحيّة» في أيّار/مايو 1971، حملت لقب «سيّدة مصر الأولى»، الذي لم يكن موجودًا حتّى ذلك الحين. ومنذ مساء يوم

---

4 المرجع نفسه، ص. 178.

5 أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص. 161.

6 دورين كايز، المرجع السابق، ص. 64.

تسلّمه الرئاسة حتّى، وفي خلال استقبال السفراء الأجانب في قصر عابدين، كان قد وصل وإلى جانبه جيهان. في حين أنّ السيّدة تحيّة الخفِرة، كانت في مثل هذه الظروف، تسير خلف عبد الناصر ببضع خطوات. وتتذكّر جيهان فتقول: «عندما وقف طابور الاستقبال جعلني أنور قبله بحيث يصافحني الضيوف قبل أن يصافحوه». لكنّ أيّة صورة لها لم تظهر في جرائد اليوم التالي، فقد ظنّ وزير الدولة لشؤون الرئاسة أنّ من المستحسن تجنّب نشر صور تؤذي مشاعر «جنودنا الذين يقاتلون في الصحراء». كان ذلك عذرًا تافهًا جعل السيّدة الأولى تستدعيه وترجو منه ألّا يكرّر فعلته[7].

بعد بضعة أشهر، وفي خلال زيارة رئاسيّة إلى المملكة العربيّة السعوديّة، نصح السفير المصريّ جيهان بالبقاء في الطائرة لدى وصولها إلى جدّة إلى أن يغادر زوجها والملك خالد وحاشيته المطار. لكنّها لم تعِر ذلك أذنًا صاغية، فعندما فُتح باب الطائرة، ظهرت إلى جانب أنور. فما كان من الأمراء السعوديّين إلّا أن تصرّفوا بلباقة دبلوماسيّة وأغمضوا عيونهم.

كانت جيهان سيّدة جميلة وأنيقة وذكيّة ومثقّفة، وتألّقت في خلال اللقاءات مع رؤساء الدول الأجنبيّة وزوجاتهم. لكنّ نشاطها لم يقتصر على الظهور الاجتماعيّ، بل تعدّاه إلى ما هو أبعد بكثير. فأسّست في العام 1972 مركز مساعدة للمعوّقين المدنيّين والعسكريّين. وبعد خمسة أعوام، أنشأت في مصر قرى S.O.S للأطفال، على الطراز الأوروبيّ. إلّا أنّ شاغلها الأساسيّ كان تحسين وضع المرأة. فحصلت على آلات خياطة، ووضعت يدها على مركز شرطة مهجور بالقرب من مسقط رأس زوجها، وأذاعت بنفسها عبر مكبّرات الصوت رسائل إلى نساء المنطقة للحضور

[7] جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 278-279.

لتعلّم مهنة الخياطة. مشاغل خياطة كثيرة ستظهر لاحقًا، وسيتمّ تنظيم معرض ممّا أنتجته النساء في أحد الفنادق الكبرى في القاهرة.

نالت المرأة المصريّة حقّ الانتخاب في العام 1956، ووصلت بعض النساء إلى البرلمان، لكنّ أيّةً منهنّ لم تكن ذات وزن فاعل في مؤسّسات الدولة. أمّا على المستوى المحلّي، فالوضع كان أسوأ، لأنّ معظم القرويّات أمّيّات، ويجهلن حتّى كيف يملأن قائمة انتخابيّة. «من أجل إثبات أنّ بوسع النساء لعب دور سياسيّ»، ترشّحت جيهان في العام 1974 إلى المجلس الشعبيّ في المنوفيّة بصفتها مستقّلة. ومن الطبيعيّ أنّها فازت بتلك الانتخابات مرّتين، وأصبحت أوّل رئيسة لمجلس شعبيّ في مصر. وفي العام نفسه، نظّمت مؤتمرًا لنساء أفريقيا والعالم العربيّ. وبعد ذلك تولّت رئاسة الوفود المصريّة إلى مختلف الاجتماعات التي تعالج شؤون المرأة، في المكسيك أو كوبنهاغن أو نيويورك.

حثّت السيّدة الأولى زوجها على تعزيز حقوق المرأة، وتشجيع برامج تنظيم الأسرة للحدّ من النسل. لكنّه كان يدرك وزن المواقف المحافظة، فتردّد في الاستجابة لها وماطل، وردّ بأنّ الوقت لم يحن لذلك، مذكّرًا إيّاها بالمثل الشعبيّ الذي يقول «الصبر جميل»، لكنّه أذعن في النهاية. وفي العام 1978، مُنحت النساء العاملات في القطاع العامّ تقديمات إضافيّة، فبتن يستفدن من إجازة ثلاثة أشهر براتب كامل، ومن إمكانيّة الحصول على وظيفة بنصف دوام. وفي حزيران/يونيو من العام التالي، صدر القانون 44 (المسمّى «قانون جيهان»)، الذي يقلّل من عدم المساواة الفاضحة بين الجنسين في الزواج. وبات بوسع المرأة العمل بدون إذن من زوجها، شرط أن تتمّم «واجباتها الزوجيّة»، والحصول على الطلاق فورًا إذا ما تزوّج زوجها و«سيّدها» بامرأة ثانية من دون موافقتها، والاحتفاظ بمسكن الزوجيّة حتّى يكبر أبناؤها... لم يقترب هذا القانون كثيرًا من تحقيق المساواة، لكنّ نصوصه – التي أقِرّت بقرار رئاسيّ،

بمصادقة بسيطة من البرلمان، بهدف تجنّب نقاشات لا تنتهي – كانت كافية لتثور ثائرة الأوساط المحافظة. وهتف الطلّاب الإسلاميّون بشعار «حكم دايان ولا حكم جيهان!».

لم تكتفِ السيّدة الأولى بإدارة مكتب فيه عدّة معاونين وسكرتيرة صحفيّة. بل أعطت بنفسها المثل على الرقيّ بدور المرأة حين تسجّلت، وهي في الحادية والأربعين من عمرها، في جامعة القاهرة، التي يرتادها ثلاثة من أبنائها. وفي العام 1978، نالت إجازة في الأدب العربيّ، وبدأت التحضير لنيل شهادة الماجستير. وبعد عامين بثّ التلفزيون مناقشتها لأطروحة الدكتوراه كاملة[8]. تقول السيدة الأولى: «أردت أن يعلم الناس بأنّني قد حصلت على شهادتي بتعبي واجتهادي، ولم تقدّم لي على طبق من فضّة لأنّني زوجة الرئيس[9]». ثمّ بدأت بتعليم الأدب العربيّ في جامعة القاهرة.

لم تلبث الأوساط السياسيّة أن راحت تقيّم أهمّية دور جيهان. فالسيّدة الأولى تلتقي الكثيرين، ومن بينهم أشخاص قطع زوجها علاقته بهم ولم يعد يريد رؤيتهم، خصوصًا من كتّاب أو صحفيّين يساريّين حافظت على اتّصال بهم.

في مزيج من الإعجاب وشيء من القلق، وفي نفاد صبر أحيانًا، كان أنور السادات يرى زوجته تتحرّك بطاقة وتصميم نادرين. وقد وصفت بدايات صباحاتها، التي تتناقض مع بدايات صباحات زوجها، الأكثر هدوءًا، بالكلمات التالية: «كنت أنهض في الساعة الخامسة من كلّ صباح. أتوضّأ وأصلّي ثمّ أتناول قدحًا من القهوة كان بمثابة فطور لي. ثمّ أقرأ الصحف وأبدأ بإعداد محاضراتي في الجامعة ثمّ أقوم بدراسة

---

8 قدّم محامون بعد موت زوجها شكوى أمام محكمة إداريّة، أكّدوا فيها أنّ أعضاء اللجنة الفاحصة لم يكونوا مستقلّين في إبداء رأيهم.

9 جيهان السادات، *Une femme d'Ègypte*، المرجع السابق، ص. 336.

مشاريع المجلس والجمعيّات الخيريّة. ومن الساعة الثامنة وحتّى التاسعة، كنت أقوم بالتمارين الرياضيّة سواء كان ذلك بالمشي لمسافة ثلاثة أميال أو بلعب التنس أو الاسكواش. وبعد الساعة التاسعة كنت أقوم بإيقاظ زوجي حيث أفتح شبابيك غرفة نومه وأحضر له قدحًا من الشاي والصحف وأدير جهاز الراديو. بعد ذلك أكون مستعدّة للبدء في جدولي الرسميّ لذلك اليوم[10]».

لا يجلس في مكتبه أبدًا

لم يكن السادات ممّن يرهقون أنفسهم في العمل. فكان يبدأ يومه في السرير، مصغيًا إلى تلاوة آيات من القرآن الكريم عبر الإذاعة، قبل أن يصلّي. بعد ذلك، يستمع إلى كاسيتات أغاني أسمهان أو فريد الأطرش أو محمّد عبد الوهاب فيما يغتسل ويحلق ذقنه. وفي النهار يجد، ومهما كانت الظروف، وقتًا لرياضة المشي اليوميّة. فتلك رياضته المفضّلة حتّى لو اضطرّ إلى أن يستكملها على درّاجة التمارين المنزليّة. ولم يكن مدلّكه الشخصيّ، زينهم، وهو صاحب حزام أسود في الجودو، يبتعد عنه قطّ، حتى أنّه لم يكن من المستغرب رؤيته جالسًا إلى مائدة سفيرٍ مصريٍّ ما في خلال الزيارات التي يقوم بها الرئيس إلى الخارج[11]. كان النهار ينتهي في صالة السينما الخاصّة، فكلّ الأفلام المصريّة أو الأجنبيّة كانت تصل إلى الرئيس قبل مرورها بالرقابة[12].

---

10 المرجع نفسه، ص. 350.

11 كان أحد معالجي السادات الآخرين، علي العطفي، والذي تلقّى تدريبه المهنيّ في هولندا قبل أن يفتتح عيادة مشهورة في القاهرة، جاسوسًا لحساب إسرائيل. وقد اعتُقل في العام 1978، وحُكم عليه بالسجن 25 عامًا.

12 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 189-190.

غالبًا ما اتّهمه منتقدوه بالكسل. ويشرح الصحفيّ أحمد بهاء الدين الذي لازمه كثيرًا: «لا أتذكّر أنّني رأيت السادات مرّة واحدة جالسًا في مكتبه. ولا أتذكّر أنّني رأيته في حديقته أو في غرفة الاستقبال في منزله وفي يده وثيقة. كان يدير البلد بالهاتف فقط[13]». ويتذكّر جاك أندرياني، السفير الفرنسيّ، فيقول: «حين كنت أنقل إليه رسالة من فاليري جيسكار ديستان، يأخذها من دون أن يقرأها، ويضعها على رفّ، وينتظر أن أنقل مضمونها إليه شفويًّا[14]».

كان السادات يستدعي بشكل دوريّ أحدِ كتبة خطاباته، وقد يمضي في مناقشته ساعات طويلة. وحينذاك لا يعود لأيّ شيء آخر أهمّية. ثمّ يهبط الظلام، فيطلب عشاء لضيفه وتتواصل المحادثة حتّى منتصف الليل... لكنّه بعد ذلك قد ينسى تمامًا كلّ الآراء أو النصائح التي أسديت إليه. فيذهب إلى أحد مقرّاته خارج القاهرة ليفكّر ويتّخذ القرار وحيدًا. ويقول هيكل ساخرًا: «لقد استطاع السادات أن يحوّل عزلته إلى فضيلة. وعندما يكون عليه أن يتّخذ قرارًا في أمر من الأمور، فإنّ الصحف كانت تعلن أنّه سوف يعتكف في إحدى اسِتراحاته البعيدة – في القناطر أو في ميت أبو الكوم – لكي يصل إلى قراره، كما لو أنّ القرار يجيئه بوحي من السماء[15]...».

ومع ذلك فقد استطاع السادات تفويض الآخرين ممارسة العمل، بغير أن يسعى إلى القيام بنفسه بكلّ شيء. وقد قال لأحد أصدقائه بشيء من الفكاهة: «كان عبد الناصر يتابع كلّ شيء، وأراد الاهتمام بكلّ شيء. كانوا يوقظونه في منتصف الليل إذا شبّ حريق في إحدى القرى. فينزل إلى مكتبه ويبدأ بإجراء الاتّصالات الهاتفيّة، بالمحافظ،

13 أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص. 101.
14 مقابلة مع الكاتب في أيّار/مايو 2012.
15 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 190.

برجال الإطفاء، بمصطفى أمين في جريدة الأخبار، بهيكل في الأهرام. وكأنّه يدير معركة ستالينغراد، حتّى طلوع النهار[16]».

أمّا السادات فما كان يهتمّ إلّا بالأمور الكبرى. ويقول عنه شمعون بيريز، زعيم حزب العمل الإسرائيليّ: «لم يكن السادات تكنوقراطيًّا ولا بيروقراطيًّا على الإطلاق. كان صاحب رؤى ينتقل بسهولة مدهشة من رؤيا سياسيّة إلى أخرى. أراد الابتعاد عن القضايا اليوميّة، متمنّيًا المحافظة على ذهن متّقد للتفكير في القرارات الكبرى التي يتّخذها بمفرده، واضعًا اقتراحات ما كان الآخرون ليفكّروا فيها أبدًا، وتثير في كلّ مرّة مفاجأة المحيطين به[17]».

---

16 أحمد بهاء الدين، ص. 101.

17 بطرس بطرس غالي وشمعون بيريز، *Soixante ans de conflit isarélo-arabe. Témoignages pour l'histoire*، Complexe، 2006، ص. 175.

20

السيّد بيغين غير المعقول

شعر أنور السادات الغارق في دلال التلفزيونات الغربيّة التي لم تعد تفارقه، بأنّه يعيش فوق سحابة صغيرة. وقد قال بفخر لأحد أصدقائه المؤتمنين على أسراره: «فاق عدد متابعي وصولي إلى القدس عبر شاشات التلفزيون عدد مشاهدي نزول نيل أرمسترونغ على سطح القمر في تموز/يوليو من العام 1969[1]». كان هذا صحيحًا بلا شكّ، لكنّ المشكلة الحقيقيّة باتت في عودة السادات إلى الأرض.

في 24 كانون الأوّل/ديسمبر 1977، ردّ إليه مناحيم بيغين الزيارة. لكنّ رئيس الوزراء الإسرائيليّ لم يُستقبل في القاهرة، بل في الإسماعيليّة على ضفّة قناة السويس، وبدون مظاهر التكريم التي كان ممكنًا أن يتوقّعها: فلا حرس شرف، ولا أعلام إسرائيليّة، ولا عزف للنشيدين الوطنيّين. وفي الطريق المؤدّي إلى المقرّ الرئاسيّ المصريّ، لم يرَ بيغين الذي رافقه وزيرا الخارجيّة موشي دايان، والدفاع عزرا وايزمان، سوى رايات ولافتات عملاقة تحيّي «أنور السادات، بطل السلام».

[1] أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص. 154.

كان الرئيس المصريّ الذي يحتفل بعيد ميلاده التاسع والخمسين يبتسم ابتسامة عريضة. وافتتح المناقشات «بطريقة مذهلة ومبتكرة»، بحسب تعبير الجنرال وايزمان. فقد قال: «أرغب في أن أستقبل وزير خارجيّتي الجديد ليقسم اليمين أمامي». كان ذلك الوزير الجديد هو إبراهيم كامل، الذي استُدعي من سفارة مصر في بون ليحلّ محلّ وزيرَي الخارجيّة المستقيلين السابقين. ويروي وايزامن قائلًا: «شعرنا بالإحراج كمدعوّين إلى حفلة زفاف شخص مجهول، ونهضنا لنغادر القاعة، لكنّ السادات أشار إلينا بالبقاء. لقد أراد أن نشعر وكأنّنا في منزلنا[2]».

في خلال لقاء الإسماعيليّة، أسعد السادات جيش المصوّرين الفوتوغرافيّين والتلفزيونيّين الأجانب حين قاد بنفسه سيّارة كاديلاك سوداء اللون، رافقه فيها بيغين ودايان ووايزمان في جولة على المدينة. لكنّ ابتسامته بهتت حين قدّم رئيس الوزراء الإسرائيليّ خطّة غامضة، يُفترَض بها أن تؤدّي إلى ما يشبه حكمًا ذاتيًّا للفلسطينيّين، لا يستجيب في شيء لتطلّعات العرب. لم يرضخ بيغين لضغوط الرئيس كارتر الذي ألحّ عليه لتقديم تنازلات. وكذلك أدار أذنًا صمّاء لنداء الملك المغربيّ الذي نظّم لقاء سرّيًا جديدًا في مراكش يومَي الثاني والثالث من كانون الأوّل/ديسمبر بين حسن التهامي وموشي دايان. وقد قال الحسن الثاني لوزير الخارجيّة الإسرائيليّ: «عليكم واجب مساعدة السادات، فقد جازف بحياته بالذهاب إلى القدس».

لقد ظنّ السادات الذي يهوى الحركات الاستعراضيّة أنّ بيغين سيأتي إلى الإسماعيليّة بقرار مغرٍ قادرٍ على تهدئة مخاوف العرب. ويقول هرمان إيلتس، سفير الولايات المتّحدة في مصر إنّه سمع الرئيس المصريّ يهتف: «ماذا يفعل هذا الرجل؟ إنّه بائع متجوّل يروّج لأفكاره.

[2] عزرا وايزمان، المرجع السابق، ص. 139.

لقد اعترفتُ بوجوده، وها هو يريد أن يعطي الفلسطينيّين نتفًا من هنا، ونتفًا من هناك[3]». فالسادات فلم يكن يملك الصبر للاهتمام بالتفاصيل، بل كان يعهد بذلك لمساعديه، ويترك لهم اتّخاذ القرارات، على أن يعدّلها أو يتجاهلها في اللحظة الأخيرة. ولاحظ بطرس غالي: «إكتشفتُ أنّه يفاوضنا، نحن أعضاء فريقه، بقدر ما كان يفاوض الإسرائيليّين، وكأنّه يريد أن يشجّع الاختلافات التي تفرّق بيننا وبينه، ويتحكّم بها في الوقت عينه. أعتقد أنّ حدّة تلك الاختلافات كانت تسمح له بأن يُظهر للإسرائيليّين أنّه يواجه عقبات، لا فقط في داخل العالم العربيّ، بل حتّى في قلب فريقه الخاصّ[4]».

في الإسماعيليّة، تمسّك كلّ طرف بمواقفه، فتعذّرت إذاعة بيان مشترك. واكتفى السادات وبيغين بالإعلان في مؤتمر صحفيّ عن إنشاء لجنتين ثنائيّتين، واحدة سياسيّة، والأخرى عسكريّة. وأقرّ الرئيس المصريّ أمام الصحفيّين بأنّ الخطّة الإسرائيليّة أصابته بالخيبة، لكنّه شدّد على أنّ السلام لا يُصنع في يوم واحد.

حرب جديدة؟

بدأت اللجنة العسكريّة أعمالها في القاهرة في 11 كانون الثاني/يناير 1978. وسرى تيّار من الودّ بين وزيري الدفاع عزرا وايزمان وعبد الغني الجمسي، اللذين تمكّنا من التفاهم. لكنّ اللجنة السياسيّة التي اجتمعت في تل أبيب بعد ستّة أيّام واجهت أزمة شديدة. ففي عشاء رسميّ، تعامل بيغين باستعلاء مع وزير الخارجيّة المصريّ، ناعتًا إيّاه بـ«صديقي

---

3 كينيث شتاين، *The Camp David Process*، القدس، Menahem Begin Heritage Center، 2002، ص. 32-42.

4 بطرس بطرس غالي وشمعون بيريز، المرجع السابق، ص. 179.

الشابّ»، ومنتقدًا بحدّة مواقف بلده. ما إن علم السادات بأقوال بيغين حتّى استشاط غضبًا، وأمر وفده بالعودة إلى القاهرة في الحال.

فقد السادات الثقة بجدوى المباحثات الثنائيّة، واتّجه ببصره إلى الولايات المتّحدة. قام الرئيس كارتر بجولة على الشرق الأوسط، زار في خلالها السادات في أسوان يوم 3 كانون الثاني/يناير، وأكّد له أنّ أصدقاء أميركا، أي إيران والأردن والمملكة العربيّة السعوديّة، «ميّالون» في السرّ إلى المبادرة المصريّة، برغم الانتقادات اللاذعة التي يوجّهونها إليها في العلن[5]. وكتب كارتر في مذكّراته: «كان الحكّام السعوديّون موافقين تمامًا على خطوة السادات، لكنّهم كانوا يكتفون بالابتسام حينما أناشدهم بالإعلان عن ذلك في تصريحاتهم الرسميّة[6]».

إلتقى الرجلان في الشهر التالي في كامب دايفيد في الولايات المتّحدة الأميركيّة، لمتابعة محادثاتهما والتوصّل إلى حلّ. كان مزاج السادات متقلّبًا. فحين التقيا في أسوان يوم 3 كانون الثاني/يناير 1978، سمعه كارتر يقول: «نحن نسير نحو السلام، نحو سلام حقيقيّ ونهائيّ في هذه المنطقة[7]». لكنّه وبعد شهر من ذلك، عبّر في كامب دايفيد عن إحساسه الشديد بالمرارة، ملقيًا باللوم على بيغين لعدم أخذه في الاعتبار نصائح الاعتدال التي وجّهها إليه دايان ووايزمان، ولخضوعه لضغط وزير الزراعة أرييل شارون، الذي يرغب في إسكان آلاف المستوطنين اليهود في الأراضي المحتلّة. رأى السادات أنّ رئيس الوزراء الإسرائيليّ «لا يرغب حقًّا في السلام[8]». وذهب سفير الولايات المتّحدة إلى أبعد من ذلك حتّى، حين قال: «في منتصف شهر كانون

---

5 جيمي كارتر، *Le Sang d'Abraham*، Londreys، 1986، ص. 226.

6 جيمي كارتر، *Mémoires*، Plon، 1982، ص. 229.

7 المرجع نفسه، ص. 230.

8 المرجع نفسه، ص. 234.

الثاني/يناير، كان الساداتِ محبطًا جدًّا لدرجة أنّه تحدّث عن الاستقالة، معتقدًا أنّ سياسته باءت بالفشل[9]».

شنّت الصحافة المصريّة هجومًا عنيفًا على مناحيم بيغين. وشبّهته مجلّة أكتوبر التي يديرها أنيس منصور، أحد أكثر المقرّبين من السادات، بشخصيّة شايلوك في رواية شكسبير، أي المرابي اليهوديّ الدنيء في ممارسته الأعمال. وظهرت إلى العلن مجدّدًا العبارات المقولبة المعادية للساميّة التي بدت وكأنّها من زمن ماضٍ.

في 11 شباط/فبراير، وبفضل المساعي الحميدة التي قام بها المستشار كرايسكي[10]، التقى السادات في فيينا شمعون بيريز، زعيم حزب العمل الإسرائيليّ المعارض. عبّر السادات أمامه عن تذمّره الشديد من تصلّب بيغين، لكنّه أكّد له أنّه سيواصل «مهمّته المقدّسة لأجل السلام».

فشل مأساويّ في لارنكا

هل صحيح أنّ مصر، أمّ العالم العربيّ، خانت أبناءها من أجل اتّفاق مع غريب، مع عدوّ؟ لقد ظلّ زعماء الدول الأكثر اعتدالًا في المنطقة يأملون انقلابًا في موقف السادات. ألن يكون محلّ ترحيب وتقدير كبيرين إذا ما عاد إلى الصفّ العربيّ، مظهرًا بذلك أنّ التعنّت الإسرائيليّ هو العقبة الوحيدة في طريق السلام؟

لكنّ هدف السادات كان استرجاع سيناء؛ كلّ المسائل الأخرى كانت ثانويّة في نظره. كما اعتبر أنّه من غير الممكن الاهتمام بمصر

9 مداخلة في ندوة بعنوان *Sadate and His Legacy, Egypt and the World 1977-1997*.

10 برونو كرايسكي، رئيس الوزراء النمساويّ من 1970 إلى 1983، كان متفهّمًا لمطالب العرب. وقد استخدم صفته كيهوديّ واشتراكيّ لمحاولة تليين مواقف زعماء حزب العمل الإسرائيليّين.

وفلسطين في الوقت عينه، وأنّ مصر لن تستطيع الدفاع بفعاليّة عن حقوق الفلسطينيّين إلّا بعدما تستعيد أراضيها.

لم يكتفِ العرب الأشدّ راديكاليّة بالتشهير بـ«خيانة» السادات، يومًا بعد يوم. ففي شباط/فبراير 1978، اغتيل في قبرص على يد مجموعة كومندوس فلسطينيّة، أحد أصدقائه، وهو الروائيّ والصحافيّ يوسف السباعي الذي رافقه إلى القدس. وفي أثناء تشييعه في القاهرة، هتفت الحشود الغاضبة «لا فلسطين بعد اليوم!».

بعد ذلك، قامت فرقة الكومندوس باختطاف طائرة واحتجاز اثني عشر شخصًا، ففقد الرئيس المصريّ أعصابه وقرّر التدخّل، من دون نيل موافقة السطات القبرصيّة، لكنّ العمليّة اللتي قامت بها القوّات الخاصّة المصريّة في مطار لارنكا تحوّلت إلى مأساة. فبالرغم من تحرير الرهائن، قُتل خمسة عشر عسكريًّا... أعلن السادات المشتعل غضبًا أنّه لا يعترف بقبرص ولا برئيسها، وهو أمر لا سابقة له في العلاقات الدوليّة. ولم تغفل وسائل الإعلام الغربيّة مقارنة هذا الفشل المأساويّ بالعمليّة الناجحة التي قام بها الإسرائيليّون قبل عام من ذلك لتحرير رهائنهم الذين اختُطفوا في عنتيبا في أوغندا[11].

كيف السبيل إلى تليين مواقف السيّد بيغين غير المعقول؟ في إسرائيل نفسها، ظهر حلفاء للسادات، فقد أبصرت النور في آذار/مارس 1978 حركة جديدة تُدعى «السلام الآن». وفي رسالة مفتوحة، أدان 348 من ضبّاط وجنود الاحتياط في الجيش الإسرائيليّ تعنّت رئيس الوزراء. وفي الأوّل من نيسان/أبريل، نجحوا في إنزال أربعين ألف شخص إلى

11 ليل 3-4 تمّوز/يوليو 1976، وفي عمليّة جريئة جدًّا تمّت بدون إطلاع السلطات الأوغنديّة عليها، نجحت قوّات إسرائيليّة خاصّة في تحرير ركّاب يهود كانوا على متن طائرة للخطوط الجويّة الفرنسيّة، اختطفهم في مطار عنتيبا مقاتلون مؤيّدون للثورة الفلسطينيّة، وهدّدوا بقتلهم.

الشارع، في أكبر مظاهرة تشهدها الدولة اليهوديّة في تاريخها. ومع ذلك، ظلّ بيغين على تصلّبه.

يقول جيمي كارتر في مذكّراته: «كلّما حقّقنا تقدّمًا ما من جهة العرب، يأتي الاعتراف بمستوطنة جديدة أو تصريح استفزازيّ تدلي به الحكومة الإسرائيليّة لتضيّع ما حقّقناه هباءً[12]». وفي 14 آذار/مارس 1978، ردّ الإسرائيليّون على هجوم شنّه الفلسطينيّون، باحتلال جنوب لبنان، ووصلوا إلى نهر الليطاني. كان البيت الأبيض يراقب الأحداث بقلق.

في منتصف تمّوز/يوليو، علم الجنرال وايزمان وزير الدفاع الإسرائيليّ، أنّ السادات يريد لقاءه في سالزبورغ في النمسا، فسافر إليها في الحال. وهناك قال الرئيس المصريّ بودّ لمفاوضه الإسرائيليّ المفضّل: «ها نحن نلتقي مجدّدًا. حين ننتهي من محادثاتنا، سأقدّمك إلى زوجتي. لقد نجحتْ قبل فترة وجيزة في نيل إجازة في الشعر والأدب العربيّين من جامعة القاهرة[13]». كانت تلك بداية حسنة، لكنّ السادات قال لوايزمان أنّه غير واثق من رغبته في تجديد مهمّة قوّات الأمم المتّحدة في سيناء، التي تنتهي في تشرين الأوّل/أكتوبر. وفجأة أضاف: «ومن الآن حتّى تشرين الأوّل/أكتوبر، إذا لم يحدث أيّ تغيير، فسوف أستقيل».

وجد محاوره صعوبة في تصديقه، لكنّه رجاه أن يتحلّى بالصبر. فاقترح السادات أن يبادر الإسرائيليّون إلى «خطوة ما»، تقضي بإعادة مدينة العريش وجبل سيناء إلى مصر. وهو ما سيسمح له بأن يجعل من العريش «مركزًا لمباحثات السلام»، وأن يحقّق بالقرب من دير القدّيسة كاترين مشروعًا عزيزًا على قلبه، وهو أن يأمر ببناء مسجد وكنيس يهوديّ وكنيسة. بعد ذلك، وفي سياق الحديث، طالب بإجراء انتخابات

---

[12] جيمي كارتر، *Mémoires*، المرجع السابق، ص. 231.

[13] عزرا وايزمان، المرجع السابق، ص. 306-312.

في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة، مؤكّدًا أنّ ذلك لن يؤدّي إلى إنشاء دولة فلسطينيّة... لاحظ وايزمان أنّ مطالب الرئيس تزداد شهرًا بعد شهر، بمقدار ما يتنامى انعزاله في العالم العربيّ. وروى قائلًا: «تخيّلتُ وجه بيغين حين أعود إلى القدس لأطلعه على مطالب السادات الجديدة. لم يكن هناك أيّ أمل لتحقيقها».

وبالفعل... في 26 تمّوز/يوليو 1978، طلب السادات من الوفد العسكريّ الإسرائيليّ الذي يواصل العمل في القاهرة على الانسحاب من سيناء، مغادرة مصر. وفي اليوم التالي كتب جيمي كارتر في مذكّراته: «يحاول السادات ملاقاة العرب الأشدّ راديكاليّة ومصالحتهم، وهذا لا يبشّر بالخير. أرجو أن يكون لا يزال بحاجة إلينا وأن يواصل التعاون[14]». ثمّ أضاف بعد أربع وعشرين ساعة: «الوضع يزداد إثارة للقلق، وأخشى أن يتسبّب السادات بنزاع في تشرين الأوّل/أكتوبر، كما هدّد بذلك مرّات عدّة[15]».

---

14 جيمي كارتر، *Mémoires*، المرجع السابق، ص. 239.

15 المرجع نفسه، ص. 240.

21

الاجتماعات المغلقة في كامب دايفيد

في محاولة للخروج من الطريق المسدود، قرّر جيمي كارتر أن يراهن بكلّ شيء. فاقترح إجراء لقاء ثلاثيّ يضمّ الولايات المتّحدة ومصر وإسرائيل، يكون هو منظّمه والحكم فيه. وتقرّر عقد تلك القمّة غير المسبوقة، التي لم يستطع السادات ولا بيغين التملّص منها، في المقرّ الرئاسيّ الأميركيّ في كامب دايفيد، البعيد مئة كيلومتر إلى الشمال الغربيّ من واشنطن. وحُدِّد موعد انطلاق اللقاءات في 4 أيلول/سبتمبر 1978.

قدمّت وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة دراسات نفسيّة وسلوكيّة تتعلّق بمحاورَي الرئيس[1]. وقد أكّد واضعو تلك الدراسات أنّ السادات «يعتبر نفسه مخطّطًا استراتيجيًّا كبيرًا ومستعدّ لتقديم تنازلات تكتيكيّة إذا اقتنع ببلوغ أهدافه العامّة». لاحظوا أنّه يعير الرأي العامّ العالميّ أهمّية كبرى، واكتشفوا لديه «عقدة جائزة نوبل»، وأضافوا: «تسمح له ثقته بنفسه بالقيام بمبادرات جريئة، متجاوزًا اعتراضات مستشاريه».

---

[1] بنديكت كايري، «*Teasing Out Policy Insight From a Character Profile*»، **نيويورك تايمز**، 28 آذار/مارس 2011.

أمّا بالنسبة إلى مناحيم بيغن، فلم يكن جيمي كارتر بحاجة حتّى إلى قراءة دراسة وكالة الاستخبارات المركزيّة. فهو ومنذ لقائهما الأوّل، أدرك حقيقة الرجل: «مثله مثل السادات، يقيّم مهمّته تقييمًا كبيرًا، ويبدو أنّه يعتبر نفسه الرجل الذي اختاره القدر لقيادة الشعب المختار[2]». ولا حاجة إلى القول إنّ من غير السهل جعله يحيد عن طريقه.

عشيّة سفر بيغين، نظّمت حركة «السلام الآن» تظاهرة جديدة في إسرائيل، جمعت هذه المرّة نحو مئة ألف متظاهر – وهو رقم قياسيّ جديد – لحمله على تليين موقفه... بلا جدوى.

حُظر على الصحفيّين دخول المقرّ الرئاسيّ في كامب دايفيد، فالرئيس كارتر يريد فتح الطريق المسدود أمام المفاوضات الإسرائيليّة المصريّة في اجتماعات مغلقة وسريّة. رافق كلًّا من أنور السادات ومناحيم بيغين وفد رسميّ يضمّ عشرة أعضاء، يُضاف إليهم حرّاسهما الشخصيّون، وطاه، وطبيب... وصل كارتر برفقة زوجته روزالين، لكنّه شعر بخيبة الأمل حين علم أنّ جيهان السادات التي بقيت في القاهرة بسبب مرض أحد أحفادها، لن تستطيع الحضور. فقد كان يعتمد عليها لترطيب الأجواء مع أليزا بيغين.

اللعب اثنين ضدّ واحد

أقام المشاركون في أكواخ مختلفة توزّعت في جزء من تلك الحديقة الشاسعة البالغة مساحتها 50 هكتارًا. وإلى جانب الدرّاجات الهوائيّة التي وُضعت بتصرّفهم، كان لديهم أكثر من وسيلة للاسترخاء: كرة المضرب، حوض سباحة، بلياردو، سينما... لم يتمّ توظيف مترجمين، فالجميع يجيدون الإنكليزيّة. ورفض كارتر إخفاء أجهزة تنصّت في

---

[2] جيمي كارتر، *Mémoires*، المرجع السابق، ص. 247.

مقرّات ضيوفه، كما اقترح مستشاره للأمن القوميّ زبغنيو بريجنسكي، لكنّ ذلك لم يمنع المصريّين والإسرائيليّين الحذرين من أن يجروا مداولاتهم الأكثر سرّيةً في الهواء الطلق[3].

كان السادات مقتنعًا بأنّ بيغين لا يريد السلام، وأعدّ خطّة إعلاميّة تهدف، بحال فشل المفاوضات، إلى إظهار حسن النيّةِ المصريّة، وتعنّت أخصامه. وراهن في كامب دايفيد على كارتر وسعى إلى أن يجعل منه حليفًا. فمنذ وصوله في 5 أيلول/سبتمبر 1978، أسرّ إلى الرئيس الأميركيّ بأنّه لم يأتِ للتفاوض بل لتوقيع السلام، وبأنّ «في جيبه» خطّة شاملة، وأنّه مستعدّ لتقديم التنازلات. كانت تلك مفاجأة سارّة لجيمي كارتر الذي بدا له أنّ من المستحيل التقريب بين الموقفين المصريّ والإسرائيليّ. لكن، وحين كشف له السادات في اليوم التالي فحوى خطّته، شعر بـ«لكمة حقيقيّة في القلب[4]». كان مضمون الخطّة أسوأ من كلّ ما يخشاه، فمصر تطالب بتعويضات ماليّة عن احتلال سيناء، وبحقّ كلّ اللاجئين الفلسطينيّين في العودة إلى الضفّة الغربيّة، وبتخليّ الإسرائيليين عن القدس الشرقيّة. تركه السادات يقرأ في صمت، ثمّ طمأنه بإعلان استعداده لتعديل خطّته في الحال، بقبول بعض الاقتراحات التي يقدّمها البيت الأبيض، لكنّ ذلك يجب أن يبقى سرًّا لئلّا تُنتَزَع منه كلّ قدرة على التفاوض.

خلاصة الأمر أنّ الرئيس المصريّ عرض على الرئيس الأميركيّ أن يلعبا اثنين مقابل واحد. لكنّ كارتر أعطى نفسه دور الحكم، وعليه الالتزام به. ولاحظ أنّ السادات يبالغ قليلًا في اعتباره حليفًا، في حين أنّ بيغين ذو ميل مبالَغ به لاعتباره خصمًا.

---

3 زبغنيو بريجنسكي، *Power and Principle. Memoir of the National Security Advisor 1977-1981*، نيويورك، Farrar ،Strauss & Giroux، 1983، ص. 234.

4 جيمي كارتر، *Mémoires*، المرجع السابق، ص. 255.

كان اللقاء الثلاثيّ الأوّل سيّئًا جدًّا. فرئيس الوزراء الإسرائيليّ رفض الخطّة المصريّة بالكامل، ولم يرَ فيها حتّى قاعدة للنقاش. وعلت نبرة الحديث. ويتذكّر كارتر فيقول: «ظننتُ أنّ السادات سينفجر. فقد كان يضرب الطاولة، ويصيح بأنّ الأرض غير قابلة للتفاوض... كان يصرخ: الأمن، نعم! الأرض، لا![5]». بعد الظهر، وبعد جولة مفاوضات ساخنة جديدة، وجد الطرفان المتخاصمان أنّه لم يعد لديهما ما يقولانه. ويروي كارتر فيقول: «توجّه الرجلان نحو الباب، فسبقتهما، وسددتُ المدخل جزئيًّا، وأنا أرجوهما ألّا يتسرّعا في قرارهما، وأن يثقا بي، وأن يتركا لي فرصة أخيرة للتوصّل إلى حلّ وسط. وافق بيغين. والتفتّ نحو السادات، محدّقًا في عينيه. وفي النهاية أومأ برأسه موافقًا. ثمّ خرج كلاهما من الغرفة، من دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر[6]».

إعتبارًا من ذلك الحين، تجنّب الأميركيّون جمع الرجلين وجهًا لوجه، وبدأوا بإجراء مفاوضات مع كلّ من الفريقين على حدة. هذا مع العلم أنّ أيًّا من ذينك الفريقين لم يكن متجانسًا مع نفسه تمامًا، إذ فيما ظهر بيغين أكثر تصلّبًا من أفراد وفده، كانت حال الجانب المصريّ على نقيض ذلك تمامًا. فالسادات اضطرّ إلى مواجهة اعتراضات أفراد فريقه الذين يجدونه متساهلًا جدًّا، كما استفاد من تشدّدهم بموقفهم في مفاوضاته غير المباشرة مع الإسرائيليّين والأميركيّين، من غير أن يُغفِل توبيخهم بسبب ذلك التشدّد. وفي لحظة غضب، توجّه إلى أحدهم، وهو نبيل العربي[7]، مؤنّبًا إيّاه بهذه العبارات: «أنتم موظّفي وزارة الخارجيّة، تظنّون أنّكم تفهمون السياسة. والواقع أنّكم لا تفهمون فيها شيئًا.

5 المرجع نفسه، ص. 264.

6 المرجع نفسه، ص. 271.

7 نبيل العربي هو نسيب جيهان السادات (ولعلّ هذه الصلة هي ما جنّبته العقوبة). وقد أصبح وزيرًا للخارجيّة لفترة قصيرة، من 6 آذار/مارس حتّى 1 حزيران/يونيو 2011، قبل أن يتسلّم منصب الأمين العامّ للجامعة العربيّة.

ولذلك، لن أعير أقوالكم وملاحظاتكم أيّ اهتمام. أنا رجل أتصرّف وفق استراتيجيّة تعجزون عن إدراكها أو فهمها. لست بحاجة إلى تقاريركم التافهة والخدّاعة[8]».

كان السادات يرتّب لقاءاته بكارتر منفردًا. وقال بطرس غالي ملاحظًا: «لم ينقل إلينا الرئيس ما كان يقوله في تلك اللقاءات قطّ». وأضاع وزير الخارجيّة محمّد ابراهيم كامل، الذي شعر بالإهانة، البوصلة التي تسيّر وفده. لقد ترك السادات لدى معاونيه الانطباع بأنّه لا يعرف تمامًا ما يريده. وقال عنه بطرس غالي: «كان يظهر حازمًا في نقطة ما، ومتساهلًا في نقطة أخرى، من دون سبب ظاهر. في بعض الأوقات، كان يريد أن نصل بأيّ ثمن إلى اتّفاق. وفي أوقات أخرى بدا أنّه يتمنّى فشل المفاوضات، على أمل وقوف الرأي العامّ في وجه إسرائيل[9]».

المنجّم والمسيح الدجّال

إنضمّ إلى الوفد الرسميّ حسن التهامي، الرجل الذي التقى موشي دايان سرًّا في المغرب، والذي يلقّبه بطرس غالي بـ«منجّم السادات». لقد أصبح ذلك الضابط القديم أشبه بصلاح الدين متصوّف، مقتنع بأنّه مكلّف بمهمّة ربّانيّة. زعم بأنّ النبيّ محمّدًا يكلّمه في أحلامه، مؤكّدًا أنّه على اتّصال بالأرواح، حتّى أنّه كان يخاطبها في العلن[10]. وجوده في كامب دايفيد لم يسهّل الأمور. فقد بدأ التهامي يوزّع على أعضاء الوفد المصريّ قطعًا من العنبر الرماديّ، يُفترَض به، إذا ما ذُوِّب في الشاي الذي يشربونه، أن يعطيهم القوّة المطلوبة لمواجهة الإسرائيليّين[11]. وحين

---

8 نقلًا عن محمد ابراهيم كامل، وزير الخارجية، في *Souvenirs*.

9 بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 185.

10 علي السمان، المرجع السابق، ص. 245.

11 بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 182.

التقى موشي دايان ذات مرّة، توجّه إليه بالسؤال: «هل أنت المسيح الدجّال؟»، وبغياب الجواب، أعلن للرجل ذي عصابة العين، أنّه سيدخل إلى القدس على صهوة جواد أبيض ليتولّى فيها منصب حاكم المدينة. وفي نشاط رديف، حاول أن يهدي بطرس غالي القبطيّ إلى الإسلام... كان السادات يرتاح إلى صحبة التهامي، لكنّ التساؤلات أثيرت حول سبب إستبقائه إلى جانبه شخصًا غريب الأطوار بهذا القدر، في أوقات بمثل تلك الأهميّة.

كان السادات يتناول طعامه بمفرده، محافظًا على حمية غذائيّة صارمة. وفي الساعة عينها من كلّ صباح، وبملابس رياضيّة في غاية النظاقة، يسير 4 إلى 5 كيلومترات، بخطوات نشيطة، قبل أن يبدأ يوم عمله. دوّن كارتر في مذكّراته: «كان في العادة دقيقًا في مواعيده، وهادئًا، ومفعمًا بالثقة بالنفس. وعندما يناقش أمرًا، يمضي مباشرة إلى ما هو أساسيّ من دون الدخول في التفاصيل أو اللعب على الكلمات، ومن دون أن يضيع وقته في ترداد ما يُفترَض بأنّ محاوريه يعرفونه. وكان ميّالًا إلى التعبير عن نفسه بشيء من الاستشراف وعلوّ الرؤية، مشدّدًا على المضاعفات الاستراتيجيّة لكلّ مشكلة[12]». ويضيف الرئيس الأميركيّ في ملاحظاته: «كان السادات مصمّمًا وجسورًا، ومدركًا تمامًا أنّه أهمّ القادة العرب، وحسّاسًا جدًا لواقع أنّ أعماله وحركاته هي موضع مراقبة وتعليق في العالم كلّه. وكان أحيانًا يعطيني الانطباع بأنّه يعتبر نفسه وريثًا للفراعنة العظماء، وأداة للعناية الإلهيّة تقريبًا[13]». المشكلة هي أنّ بيغين، ومن جهته، كان يرى أنّ مهمّته عظيمة الشأن، وبدا وكأنّه يعتبر أنّ القدر، إن لم يكن يهوه ذاته، هو مَن اختاره ليقود الشعب المختار!

---

12 جيمي كارتر، *Mémoires*، المرجع السابق، ص. 253.

13 المرجع نفسه، ص. 246.

كان الرجلان – شأنهما شأن كارتر على كلّ حال – متديّنين بعمق. وفي خلال لقائهم الثلاثيّ الأوّل، قال السادات فجأة بعدما تراجعت حدّة التوتّر: «إذا نجحنا في كامب دايفيد، حلمي هو أن نلتقي نحن الثلاثة على جبل سيناء، حيث نمثّل ثلاث أمم وثلاث ديانات. هذا ما لا أنفكّ أرجوه من الله في صلواتي!». كتب كارتر معلّقًا: «أثار هذا التصريح انطباعنا، فلا شكّ بأنّ السادات ترك قلبه يتكلّم[14]».

في داخل الوفد الإسرائيليّ، كان السادات يفضّل أشخاصًا على آخرين. فبيغين يثير غضبه، أمّا موشي دايان وزير الخارجيّة، فهو لا يثق به، ويظهر برودة حياله. الشخص الوحيد الذي كان يفضّله أكثر من الآخرين بكثير، هو عزرا وايزمان. ويروي بطرس غالي حادثة صغيرة، فيقول إنّ السادات كان يتنزّه في غابة برفقة اثنين من معاونيه. وشاهدهم من بعيد وايزمان الذي كان يمرّ من هناك على درّاجته، فمضى نحوهم بسرعة كبيرة ليلقي التحيّة على الرئيس المصريّ، وقبّله بحرارة على خدّيه[15]. وقال السادات لمعاونيه بشأن وزير الدفاع الإسرائيليّ: «لا يمكن أن يكون وايزمان يهوديًّا، إنّه أخي الأصغر[16]».

لكنّ بيغين هو مَن يجب إقناعه، فرئيس الوزراء الإسرائيليّ صلب كجدار. ومثله مثل السادات، الذي يطالب بإعادة كلّ سنتمتر مربّع من سيناء، كان يعلّق على الأرض أهمّية كبرى. بالنسبة إليه، فإنّ «السامرة» و«يهودا» (أي الضفّة الغربيّة لنهر الأردن) ليستا محتلّتين، بل حُرّرتا. والأرض غير قابلة للتفاوض. لم تكن سيناء تشكّل جزءًا من أرض الميعاد طبعًا، لكنّ مساحتها توازي ضعفَي مساحة إسرائيل، ومن المحال التنازل عنها بكاملها. وقال بيغين لبريجنسكي، مستشار كارتر: «عيني

---

14 المرجع نفسه، ص. 270.

15 بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 183.

16 المرجع نفسه، ص. 192.

اليمنى ويدي اليمنى ستنفصلان وتسقطان قبل أن أوقّع على تفكيك أيّة مستوطنة يهوديّة».

شرح بملابس النوم

يوم الجمعة في 15 أيلول/سبتمبر 1978، وهو اليوم الحادي عشر من المفاوضات، أدرك السادات أنّ الإسرائيليّين مصرّون على الاحتفاظ بمطارات ومزارع في سيناء، فاستدعى مساعديه إلى كوخه وهو يغلي غضبًا وأمرهم بتوضيب حقائبهم لأنّه قرّر قطع المفاوضات ومغادرة كامب دايفيد.

هرع سايروس فانس وزير الخارجيّة الأميركيّة ليقابل جيمي كارتر ويقول له: «السادات راحل. لقد حزم ومساعديه حقائبهم، وطلب منّي تجهيز مروحيّة». شحب وجه كارتر، ويروي قائلًا: «كانت تلك دقيقة رهيبة. فآخر آمالي ينهار والفشل يتحوّل إلى كارثة[17]». بدأ بالصلاة، ثمّ ارتدى ملابس رسميّة وذهب إلى كوخ السادات، حيث شرح لـ«بطل السلام» أنّه بقطع المفاوضات يوجّه ضربة قاتلة إلى العلاقات بين مصر والولايات المتّحدة، وينكث كلّ الوعود التي قطعها له، ويتحمّل مسؤوليّة فشل كامب دايفيد. «لم يرد السادات أن يسمع شيئًا، لكنّني كنت في غاية الجدّية، وكان يدرك ذلك. لم يسبق لي قطّ أنّ كنت على قدر كهذا من الجدّية». في النهاية، شرح له الرئيس المصريّ أسباب رحيله. فموشي دايان أعلن له أنّ الإسرائيليّين لن يوقّعوا على أيّ اتّفاق. وإذا اكتفت مصر بتوقيع اتّفاق ثنائيّ مع الولايات المتّحدة، وقدّمت تنازلات، فإنّ نصّ ذلك الاتّفاق سيشكّل حتمًا، حين يأتي الوقت لذلك، أساسًا لمفاوضات محتملة حول معاهدة سلام مع إسرائيل. وستكون

---

[17] جيمي كارتر، *Mémoires*، المرجع السابق، ص. 301-303.

مصر قد تراجعت، من دون أن تنال شيئًا في المقابل، وسيكتسب هذا التراجع طابعًا رسميًّا تقريبًا.

إعترف كارتر بصحّة هذه الحجّة. وبعد لحظات من التفكير، اقترح على السادات إضافة بند مقيّد ينصّ على أنّه إذا رفض أيّ من البلدان الثلاثة جزءًا من الاتّفاق، تصبح كلّ الأجزاء الأخرى باطلة. لبث السادات صامتًا لفترة طويلة، ثمّ قال لمحاوره: «إذا أعطيتَني هذه الضمانة، أبقى معك حتّى النهاية». هكذا، نجت مفاوضات كامب دايفيد، وفي المساء شاهد الرجلان معًا عبر التلفزيون مباراة الملاكمة بين محمّد علي وليون سبينكس للفوز بلقب بطل العالم في الوزن الثقيل...

بقي تفصيل أخير يجب معالجته. فالاتّفاق المنتظر يفترض إزالة الطابع العسكريّ عن منطقة ضيّقة في داخل حدود إسرائيل. واعتبر العسكريّون الإسرائيليّون أنّ القوّات التي سيُسمح لها بالبقاء في تلك المنطقة غير كافية. فذهب وزير الدفاع عزرا وايزمان إلى السادات على أمل الحصول على موافقته. سأل الرئيس المصريّ المفاوض الإسرائيليّ المفضّل لديه: «كم كتيبة تريد؟». أجابه وايزمان: «ثلاث كتائب». فقال له السادات بأريحيّة كبيرة: «حسنًا يا عزرا. لك أربع كتائب. منذ حرب أكتوبر، لم يعد لديّ عقد[18]».

في 17 أيلول/سبتمبر، تمّ أخيرًا التوصّل إلى النصّ النهائيّ، بعد ثلاثة عشر يومًا من النقاشات المكثّفة، وثلاث وعشرين صياغة متتالية. تضمّن النصّ اتّفاقيَّتَي-إطار. تلحظ الأولى انسحاب الإسرائيليّين التدريجيّ من كامل سيناء، والتوصّل إلى معاهدة سلام بين البلدين، فيما تنصّ الثانية على إنشاء «حكم ذاتيّ إداريّ» في غزّة والضفّة الغربيّة في مهلة خمس

---

[18] عزرا وايزمان، المرجع السابق، ص. 352.

سنوات. أمّا نقاط الاختلاف (وخصوصًا بشأن القدس)، فتمّ استثناؤها من تلك النصوص، على أن يتمّ تبادل الرسائل بشأنها.

تعانق السادات وبيغين وكارتر قبل أن يطيروا معًا في مروحيّة إلى واشنطن حيث جرى التوقيع رسميًّا على الاتّفاقيّة، التي تابعها مباشرة ملايين المشاهدين عبر شاشات التلفزة. لكنّ التوقيع تمّ بغياب وزير الخارجيّة المصريّ محمّد ابراهيم كامل الذي قدّم استقالته بسبب عدم موافقته على ما تمّ التوصّل إليه. كانت تلك صفعة للسادات الذي رأى من جديد رئيسًا للدبلوماسيّة المصريّة يتخلّى عنه[19]. وفي ذلك المساء استقبل – بملابس النوم – صحفيّين مصريّين في مقرّ إقامة السفير المصريّ، وصرّح: «أنا أعذر محمّد كامل لأنّ أعصابه انهارت بفعل الضغط الهائل الذي تعرّضنا له. الصغار في وزارة الخارجيّة هم الذي سمّموا الجوّ...». وفي مقابلة مع محطّة إيه.بي.سي الأميركيّة، تحدّث بدبلوماسيّة أكبر فقال: «السيّد كامل لن يُلقى به في السجن ولا في معسكر اعتقال لأنّه لا يشاطرني الآراء عينها. لكلّ إنسان الحريّة في آرائه. نحن في بلد ديمقراطيّ».

تساءل بطرس بطرس غالي عمّا إذا كان سيُعيّن وزير خارجيّة، وبدأ الكثيرون بتهنئته همسًا. لكنّ السادات لم يجرؤ على أن يعهد بهذا المنصب إلى شخص غير مسلم، فبقي الاختصاصيّ في القانون الدوليّ في موقع الرقم اثنين في الدبلوماسيّة المصريّة، ولم ينل لقب نائب رئيس الوزراء القائم بأعمال وزارة الخارجيّة إلّا في أيّار/مايو من العام

[19] أكّد موسى صبري صديق الرئيس والمؤتمن على أسراره، أنّ السادات استخدم تهديد محمد ابراهيم كامل بالاستقالة في نهاية لقاءات كامب دايفيد، للضغط على الأميركيّين، فجعلهم يخشون انسحاب الوفد المصريّ، واستفاد من ذلك (**السادات: الحقيقة والأسطورة**، ص. 459).

1991، في عهد مبارك، ليشغل بعد سبعة أشهر منصب الأمين العامّ لمنظّمة الأمم المتّحدة.

22

القذّافي، هذا المجنون...

في 18 أيلول/سبتمبر 1978 حظي السادات، بصحبة كارتر وبيغين، بتكريم الكونغرس الأميركيّ. يمكننا أن نتخيّل فخره... ومخاوفه، إذا أخذنا في الاعتبار الغضب الهادر في العالم العربيّ.

قبل وصوله إلى القاهرة، توقّف في المغرب حيث انضمّت إليه زوجته. كان يأمل أن يلتقي في المغرب الملك الأردنيّ حسين، الذي تراجع في اللحظة الأخيرة، بناء على نصيحة البريطانيّين. فاتّفاقيّة كامب دايفيد التي لم يشارك فيها لن تعود عليه بأيّة فائدة في الوقت الراهن. حتّى الحسن الثاني لم يُثنِ على الرئيس المصريّ ورفض توقيع بيان مشترك معه. بل اكتفى بأن أحسن استقباله ونظّم له في الرباط المؤتمر الصحفيّ الذي كان يتمنّاه، مبديًا بعيدًا عن الأضواء أسفه لأنّ القضيّة الفلسطينيّة لم تحظَ بدفاع أفضل. لا الحسن ولا الحسين! أصيب السادات بخيبة أمل مزدوجة.

لكنّ مواطنيه خصّصوا له استقبالًا حارًّا في مطار القاهرة. وبدا أنّ معظمهم يؤيّدون اتّفاقية كامب دايفيد. كان المصريّون يميلون إلى تحميل الفلسطينيّين مسؤوليّة كلّ الويلات التي تحلّ بهم منذ ثلاثين

عامًا، ويتوقون إلى السلام آملين أن تساعدهم الدولارات الأميركيّة على تحسين الاقتصاد ورفع مستوى معيشتهم. وقد أسرّ سياسيّ مصريّ للجنرال وايزمان قائلًا: «سئمنا أن نكون بنك الدم للعالم العربيّ[1]».

لم تستطع المعارضة المصريّة إسماع صوتها. وفي الثاني من تشرين الأوّل/أكتوبر، نال السادات بدون صعوبة الموافقة على اتّفاقيّة كامب دايفيد في مجلس الشعب، الذي لا يضمّ بمجمله تقريبًا سوى أتباع له. ووقف النوّاب المصريّون للترحيب بالرئيس. إلّا أنّ همسًا بدأ يُسمع في دوائر السلطة والأوساط الثقافيّة. وفي وزارة الخارجيّة المصريّة كان لمعظم المسؤولين حكم سلبيّ على كامب دايفيد.

أخذ الرئيس فترة من الراحة ليزوّج ابنه الوحيد جمال بفتاة من أب مسلم وأمّ كاثوليكيّة، تدعى دينا عرفان. وصباح يوم الزفاف، وفيما كانت العائلة مجتمعة على شرفة منزله، فاجأ السادات الجميع بدعوتهم إلى رقصة دبكة قادها بنفسه، وتؤكّد زوجته قائلة: «كانت تلك المرّة الأولى والوحيدة التي رأيته فيها يرقص[2]».

نُصبت لمناسبة حفل الزفاف خيمة ضخمة خضراء وبيضاء في حديقة عائلة السادات، واستمتع المدعوّون الذين بلغ عددهم ألفين وخمسمئة بحفلة أحيتها المطربة صباح، وبمشاهدة رقصة خيول، وعرض قدّمته فرقة رضا الاستعراضية. وحين قطع جمال ودينا كعكة الحلوى المؤلّفة من سبع طبقات، أطلقت حمامات بيضاء، حمامات السلام...

لم يتفاجأ السادات حين علم بأنّ إذاعة موسكو انتقدت «سياسته الاستسلاميّة»، فالسوفيات لا يستطيعون القبول بأن يتمّ التوصّل إلى حلّ في الشرق الأوسط من دونهم. لكنّ ردّات الفعل العربيّة كانت أكثر إثارة للإزعاج، إذ لم يتوصّل موفد خاصّ لجيمي كارتر إلى الحصول على

---

1 عزرا وايزمان، المرجع السابق، ص. 289.

2 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 434.

موقف حياد إيجابيّ من أصدقاء أميركا الأساسيّين في المنطقة. فالأردن رأى أنّ «كلّ مشاركة منفردة لبلد عربيّ في حلّ للنزاع يتمّ التوصّل إليه بالمفاوضات هي مشاركة تُضعف الموقف العربيّ». وفي الحقيقة، إنّ في ذلك ما يدعو للابتسام حين نعلم أنّ الملك حسين وعبد الناصر اتّفقا سرًّا غداة القمّة العربيّة في الخرطوم في آب/أغسطس 1969 على التفاوض مع إسرائيل حول السلام في مقابل استعادة الأراضي المحتلّة، كما يكشف إريك رولو، الذي لا يمكن اتّهامه بالعداء المبتذل للساميّة ولا بالإفراط في التعاطف مع السادات[3].

وفي حين رأت المملكة العربيّة السعوديّة بأن صيغة السلام المقترحة «غير مقبولة»، فإنّ عربًا آخرين جاءت تعابيرهم خالية من الدبلوماسيّة. بالنسبة إلى سوريا «ربح بيغين كلّ شيء، فيما خسر السادات كلّ شيء، وألحق العار بالجيش والشعب المصريّين». والوكالة الفلسطينيّة للأنباء «وفا» رأت أنّه «باع القدس وفلسطين وكرامة مصر». أمّا الفريق الشاذلي، الرئيس السابق لأركان الجيش المصريّ، وأحد «أبطال» حرب أكتوبر 1973، والذي نفى نفسه طوعيًّا إلى الجزائر، فقد دعا العرب إلى «الإطاحة بالسادات» بكلّ بساطة[4].

وفي هذا السياق وقعت مأساة صغيرة من فصلين. فقد علم السادات بأنّ السفير المصريّ في أثينا مفقود، فعاجل بالاتّصال بياسر عرفات وأنذره بضرورة إطلاق سراح الدبلوماسيّ المصريّ فورًا مهدّدًا إيّاه بالانتقام. نفى رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة أيّ علاقة له بالأمر، وقال إنّ سوريا هي المسؤولة عن عمليّة الخطف. فطلب منه السادات إبلاغ السلطات السوريّة بأنّه سيضرب دمشق إذا لم تُحلّ المسألة في

---

3 إريك رولو، المرجع السابق، ص. 187.

4 بعدما عزله السادات من منصبه، عيّنه سفيرًا في لندن ثمّ في لشبونة. وفي النهاية قطع الشاذلي علاقاته بالرئيس المصريّ واستقرّ في الجزائر حيث أصبح أحد أعنف معارضيه.

خلال ثلاث ساعات. طالب عرفات بثلاث ساعات أخرى للتفاوض مع السوريّين. وقبل انتهاء مدّة الإنذار المصريّ، أُطلِق سراح السفير المصريّ[5].

شتائم وعناقات

منذ موت عبد الناصر، كانت العلاقات بين مصر وليبيا، اللتين يجمع بينهما أكثر من ألف كيلومتر من الحدود المشتركة، تمرّ بكثير من التقلّبات. وكانت العناقات، الصادقة منها أو المنافقة، دائمًا ما تغيب لتحلّ محلّها الشتائم والتهديدات. في الأوّل من كانون الثاني/يناير 1972، شكّل البلدان مع سوريا «اتّحاد الجمهوريّات العربيّة». وبعد ستّة أشهر ضغط القذّافي الذي أخذت به الحماسة، على السادات لإعلان «الوحدة الكاملة» لبلديهما في خلال عام. في تلك الفترة، استطاع الرئيس المصريّ أن يدرك المدى الحقيقيّ لنزعة شريكه الانفعاليّ إلى المغامرة، وغياب حسّ المسؤوليّة لديه. فبعدما وضع السادات غوّاصتين مصريّتين في تصرّفه لحماية السواحل الليبيّة، علم في نيسان/أبريل 1973، بواسطة رسالة عاجلة وردته من قوّاته البحريّة، أنّ القذّافي أمر إحدى الغوّاصتين بإغراق أكبر سفينة سياحيّة بريطانيّة، وتُدعى Queen Elizabeth 2، التي تبحر في رحلة خاصّة بين ساوثهامبتون وإسرائيل، وعلى متنها عدد كبير من الركّاب، لمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس الدولة اليهوديّة. في الحال أمر السادات الغوّاصة بالعودة إلى قاعدتها.

لم يعد واردًا تشكيل اتّحاد كونفدراليّ مع ليبيا. وحين علم القذّافي أنّ المشروع سقط، أمر ساخطًا عشرين ألفًا من الليبيّين بالقيام في تمّوز/يوليو بـ«مسيرة الوحدة العربيّة»، في اتّجاه القاهرة، بهدف ليّ

---

[5] موسى صبري، السادات: الحقيقة والأسطورة، المرجع السابق، ص. 213.

ذراع السادات. تمّت تهدئة أعصاب القذّافي، لكنّ ذلك لم يدُم طويلًا. ففي تشرين الأوّل/أكتوبر التالي، وبعد اندلاع الحرب ضدّ إسرائيل، طلب سيّد ليبيا إلقاء كلمة عبر إذاعة صوت العرب التي تبثّ من القاهرة. إستُجيب طلبه بكلّ سرور على اعتقاد أنّه سيحتفي بعبور قناة السويس. لكنّه راح يشهّر بتلك «الحرب الهزليّة»... إلّا أنّ ذلك لم يمنعه من القيام بعد أسابيع قليلة بزيارة مرتجلة إلى مصر لمصالحة السادات، الذي بات يرى فيه «رجلًا بشخصيّتين، مثل الدكتور جيكيل والسيّد هايد[6]».

آنذاك دُفن الخلاف رسميًا... ليعود إلى الظهور عند المناسبة الأولى. في نيسان/أبريل 1975 نعت السادات القذّافي علنًا بـ«المريض العقليّ». ولاحقًا نسب إليه المسؤوليّة عن المؤامرة التي كادت تطيح بالمشير جعفر النميري في السودان (تمّوز/يوليو 1976)، ثمّ عن خطف طائرة بوينغ بين القاهرة والأقصر (آب/أغسطس 1976).

بعد عام، أبلغت أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة السادات بقنوات غير مباشرة أنّ القذّافي يخطّط لمؤامرة ضدّه[7]، وأنّ فرقة كوماندوس تتدرّب لهذه الغاية في واحة تبعد 35 كيلومترًا من الحدود بين البلدين. سمحت عمليّة مراقبة جويّة للمصريّين بالتحقّق من ذلك. ومن 21 إلى 25 تمّوز/يوليو 1977، تعرّضت مواقع عسكريّة ليبيّة للقصف. كان ذلك تحذيرًا لم يُثر استياء عواصم عربيّة أخرى تقلقها أصلًا غرابة أطوار «مجنون طرابلس الغرب»، وصلاته بالاتّحاد السوفياتيّ التي تصبح وثيقة أكثر فأكثر.

القذّافي لم يعد يخفي نواياه حتّى. ففي خريف 1978، تلقّت زوجة السادات اتّصالًا هاتفيًّا من منى، إحدى بنات جمال عبد الناصر، قالت

---

[6] أنور السادات، *Those I Have Known*، المرجع السابق، ص. 42.

[7] جاك ديروجي وهيسي كارمل، المرجع السابق، ص. 650-651.

لها فيه: «تانت[8] جيهان، لا بدّ أن أتحدّث معك على انفراد. لقد عدت من ليبيا لتوّي برسالة لك من القذّافي». أمّا مضمون الرسالة فهو: إذا لم يتخلّ السادات عن اتّفاقيّات كامب دايفيد، فسوف يكون القذّافي مضطرًّا لقتله[9].

كان السادات ينوي السفر إلى الخرطوم، فقرّرت زوجته أن ترافقه. وتقول: «بقيتُ ملاصقة له خلال زيارته للسودان على مدى يومين»، وكأنّها بذلك تريد أن تتحدّى من قد يفكّر في اغتياله[10].

أراد السادات مبادلة القذّافي بالمثل. في إحدى رحلاته، توقّف في باريس في 12 شباط/فبراير 1977، حيث فاتح بالموضوع نظيره الفرنسيّ فاليري جيسكار ديستان، الذي يؤيّد فكرة انقلاب ضدّ القذّافي لمنعه من الاستيلاء على التشاد. ولدى سؤاله السادات عمّا إذا كانت مصر تقبل بالمشاركة في عمليّة كهذه، أجاب: «أنا أعدّ له شيئًا، لكنّ الوقت لم يحن بعد[11]».

أعيد طرح السؤال في بداية العام 1981، بعد انتخاب رونالد ريغان. وجرى التفكير في عمليّة ثلاثيّة تقوم بها مصر وفرنسا والولايات المتّحدة الأميركيّة لإزاحة القذّافي. بعد خسارته في الانتخابات الرئاسيّة في أيّار/مايو 1981، وقبل تنفيذ الخطّة، عهد جيسكار ديستان بسرّ الدولة هذا إلى خلفه فرانسوا ميتران. إلّا أنّ هذا الأخير لم يمضِ بالأمر، فانتهى الموضوع عند هذا الحدّ[12].

---

8 لقب احترام بالفرنسيّة لسيّدة مقرّبة من العائلة أكبر سنًّا.

9 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 436.

10 المرجع نفسه ص. 437.

11 فاليري جيسكار ديستان، *Le Pouvoir et la Vie*، الجزء الأوّل، Compagnie 12، 1988، ص. 202-203.

12 مقابلة مع فاليري جيسكار ديستان، نيسان/أبريل 2013.

23

نصف نوبل

لم يكن القذّافي الهمّ الأكبر لدى السادات، بل إسرائيل. فصحيح أنّ مناحيم بيغين نجح في جعل الكنيست الإسرائيليّ يقرّ اتّفاقيّة كامب دايفيد، برغم معارضة أعضاء حزبه (أيّد الاتّفاقية 84 عضوًا، ورفضها 19، فيما امتنع 17 عضوًا عن التصويت)، إلّا أنّه ترجمها على طريقته. فما يهمّه منها كان شقّها الأوّل، أي التوصّل إلى معاهدة سلام مع مصر، لا الشقّ الثاني المتعلّق بالفلسطينيّين.

هكذا، تكوّن لدى المصريّين والأميركيّين الانطباع بأنّهم خُدعوا. فبيغين لم يتعهّد بوقف إقامة المستوطنات الإسرائيليّة في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة طوال مدّة المفاوضات حول الحكم الذاتي للفلسطينيّين، كما فهم جيمي كارتر، بل لمدّة ثلاثة أشهر فقط. وحتّى خلال الأشهر الثلاثة تلك، تزايد عدد المستوطنين. يقول موشي دايان: «تعهّدنا في كامب دايفيد بوقف إقامة مستوطنات جديدة لمدّة ثلاثة أشهر. لكنّنا لم نتوافق قطّ على عدم تعزيز المستوطنات القائمة[1]». إعترف الرئيس الأميركيّ

[1] موشي دايان، المرجع السابق، ص. 290.

بخطئه بعد خمسة وعشرين عامًا، في خلال ندوة عُقدت في واشنطن[2]. وقال: «كان يجب الحصول في كامب دايفيد على وعد مكتوب يوضح التزامات إسرائيل بتجميد حركة الاستيطان أثناء مفاوضات السلام[3]».

من جهة أخرى، لم تأتِ رغبة بيغين بنقل مقرّ رئاسة الوزراء الإسرائيليّة إلى القدس الشرقيّة لتسهّل على السادات مهمّته، رغم أنّ رئيس الوزراء الإسرائيلي كان يدرك تمامًا إلى أيّ مدى يشكّل وضع المدينة المقدّسة موضوعًا حسّاسًا في العالم العربيّ. وفي 9 تشرين الأوّل/أكتوبر 1978، وأمام الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة، أعلن وزير خارجيّته موشي دايان رسميًّا: «القدس بالنسبة إلينا هي العاصمة الأبديّة والوحيدة لإسرائيل. لا عاصمة أخرى لنا، ولن تكون لنا عاصمة أخرى أبدًا».

حاول السادات بلا جدوى أن ينتزع من الإسرائيليّين بعض «الخطوات» غير المنصوص عليها في اتّفاقيّة كامب دايفيد، كتحرير بعض الأسرى الفلسطينيّين مثلًا، أو إعادة انتشار القوّات الإسرائيليّة في الضفّة الغربيّة وغزّة لإبعادها عن مراكز التجمّع السكّانيّة. لكنّه لم ينل شيئًا. لا بل أجابه الإسرائيليّون بأنّ المفاوضات التي انطلقت هدفها التوصّل إلى معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل، لا حلّ المسألة الفلسطينيّة.

من المواضيع الأخرى التي أثارت الجدال، إقامة العلاقات الدبلوماسيّة. وفي خطوة إلى الوراء، تمنّى السادات أن يتحقّق هذا التطبيع بطريقة تدريجيّة بدءًا بتبادل للقائمين بالأعمال فقط، على ألّا يتمّ تبادل السفراء إلّا بعد الانسحاب الكامل من سيناء. لكنّ الإسرائيليّين طالبوا بتطبيق ما تقرّر في كامب دايفيد.

---

2 *Camp David 25th Anniversary Forum*، واشنطن، 17 أيلول/سبتمبر 2003.

3 جيمي كارتر، *Le Sang d'Abraham*، المرجع السابق، ص. 228.

في 27 تشرين الأوّل/أكتوبر، مُنحت جائزة نوبل للسلام عن العام 1978 إلى السادات وبيغين معًا، تقديرًا لهما على موقفهما «الجريء»، ولتشجيعهما على التوصّل إلى سلام دائم. لقي هذا الإعلان ردّات فعل متفاوتة في العالم. ألم يكن من الأكثر حكمة انتظار التوصّل إلى معاهدة سلام قبل مكافأة أصحاب هذا السلام؟ كما أنّ بعض الأميركيّين دُهشوا لأنّ رئيسهم لم يُشرَك في هذه الجائزة حتّى[4].

طبيعيّ أنّ السادات كان يفضّل تقاسم جائزة نوبل مع كارتر. فهو لا يقبل أن يكون وبيغين على مستوى واحد، في حين أنّ رحلة القدس، التي شكّلت نقطة انطلاق عمليّة السلام، كانت مبادرة منه وحده. وفي كلّ حال، لم تكن لديه أيّة رغبة في الظهور مجدّدًا إلى جانب رئيس الوزراء الإسرائيليّ. فأرسل سيّد مرعي، رئيس مجلس الشعب وحما إحدى بناته، لتمثيله في أوسلو في 10 كانون الأوّل/ديسمبر 1978، ثمّ قدّم قيمة الجائزة البالغة 700 ألف دولار إلى قريته ميت أبو الكوم، التي استفادت من تحسينات كثيرة منذ أن بدأت تستقبل شخصيّات من العالم كلّه.

وفي واشنطن، قال السادات غداة توقيع اتّفاقيّة كامب دايفيد لأعضاء لجنة الشؤون الخارجيّة في مجلس الشيوخ الأميركيّ: «إذا لم يرَ العرب في الحال الخطوة الكبرى التي خطوناها إلى الأمام، فقريبًا سيرونها». لكنّ العرب كانوا يرون نقيض ذلك آنذاك، فانعقدت في بغداد قمّة عربيّة في 2 تشرين الثاني/نوفمبر، بغياب مصر. وفي خلال أعمال القمّة، أُرسِل وفد إلى القاهرة للطلب إلى الرئيس المصريّ عدم السير في اتّفاقيّة كامب دايفيد، واقتراح مساعدة سنويّة عليه بقيمة 5 مليارات دولار. رفض السادات أن يستقبل الوفد حتّى، وردّ علنًا بأنّ مصر ليست للبيع. وكما كتب جورج قرم، فإنّ «السادات قرّر، وبهدف شفاء مصر

---

[4] نال جيمي كارتر جائزة نوبل للسلام في العام 2002، أي بعد 22 عامًا على رحيله عن البيت الأبيض، تقديرًا له على مجمل جهوده لحلّ النزاعات العالميّة.

من الفقر المدقع، أنّ الذهاب مباشرة إلى الطبيب الغربيّ، مصدر كلّ الثروات، هو أجدى من طلب العلاج بجرعات صغيرة على يد ممرّضي الإنعاش في العالم العربيّ[5]».

كانت الطمأنينة التي يتظاهر بها السادات تخفي خيبة أمل أكيدة. يتذكّر بطرس غالي فيقول: «إعتقدنا أنّ القوّة الأميركيّة العظمى والقادرة ستجمع بسهولة حولنا أهمّ الزعماء الإقليميّين والعالميّين. إلّا أنّه، وبمقدار ما كان الوقت يمرّ، راح يتّضح أكثر فأكثر أنّ شيئًا من ذلك لن يحدث، وأنّ عزلتنا تزداد باطّراد[6]». وأوضح جيمي كارتر من جهته: «في خلال محادثاتي العديدة مع السادات، عبّرتُ له مرّات عدّة عن خشيتي في ما يتعلّق بعزلة مصر المتنامية بالنسبة إلى البلدان العربيّة الأخرى، لكنّه كان يقابل تلك الملاحظة بالاستخفاف. فقد كان متأكّدًا من أنّ مبادرته تتناسب ورغبة شعبه العميقة في السلام، ومقتنعًا أيضًا بأنّ لمعظم جيرانه العرب التطلّعات عينها[7]». بالنسبة إلى السادات، ليست مصر هي التي انفصلت عن العالم العربيّ، بل العالم العربيّ هو الذي ابتعد عن مصر.

ومع ذلك، كان يعجز أمام معاونيه عن إخفاء توتّره. فتارة يحتقر الزعماء العرب، وينعتهم بـ«أولاد الكلب»[8]، وطورًا يعتريه الاكتئاب بفعل تهم الخيانة الموجّهة إليه، فتشتدّ رغبته في العودة بالواقع إلى الوراء.

إنطلقت مفاوضات معاهدة السلام في واشنطن وسط مناخ سيّئ. فالإسرائيليّون الذين أدركوا أنّ عزلة مصر تُضعِف موقفها، استفادوا من ذلك لإظهار تصلّبهم. فقد أرادوا سلامًا منفردًا، وعزموا على مواصلة

---

5 جورج قرم، *Le Proche-Orient éclaté*، Gallimard Folio Histoire، 2012، ص. 497-498.

6 بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 213.

7 جيمي كارتر، *Le Sang d'Abraham*، المرجع السابق، ص. 229.

8 بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 207.

الاستيطان في الأراضي المحتلّة العام 1967، ولم يقبلوا قطّ تقديم أيّ التزام في موضوع إنشاء دولة فلسطينيّة. وقد رفض مناحيم بيغين تعبير «الشعب الفلسطينيّ» حتّى، كما رفضته غولدا مائير قبله: «لا يوجد شعب فلسطينيّ، يوجد يهود فلسطينيّون وعرب فلسطينيّون». وإذا كان للفريق الثاني «مطالب»، فللفريق الأوّل «حقوق».

لم يكن السادات يحبّ منظّمة التحرير الفلسطينيّة، ولم يعتقد أنّه يمكن لدولة فلسطينيّة أن تبصر النور، في الوقت الراهن في أيّة حال. ظلّ همّه الأوّل استرجاع سيناء، التي «سُرقت» من مصر في العام 1967. وكان يكرّر أنّ مصر، إذا ما استرجعت كامل أرضها، ستكون في موقع أفضل للدفاع عن حقوق الفلسطينيّين. لكنّه، وعلمًا منه أنّ أنظار العرب كلّهم مصوّبة نحوه، لا يستطيع السماح لنفسه بقول «مصر أوّلًا»، فطالب إذن بربط معاهدة السلام بالحكم الذاتيّ الفلسطينيّ، بروزنامة محدّدة.

نصّت اتّفاقيّة كامب دايفيد على توقيع معاهدة سلام في فترة ثلاثة أشهر. إلّا أنّ الأشهر الثلاثة مرّت، وكلّما كانت إحدى المشاكل تُحَلّ بمساومة ما، لا تلبث أخرى أن تظهر.

في النهاية غُلّقت مفاوضات واشنطن. وفي 4 آذار/مارس 1979، تلقّى جيمي كارتر رسالة مقلقة من السادات، قال فيها إنّه يرغب في السفر إلى الولايات المتّحدة ليفضح أعمال بيغين، ويخاطب الكونغرس، ويحيل مسألة السلام إلى الأمم المتّحدة. لم يكن بوسع الرئيس الأميركيّ القبول بالفشل، بعد كلّ الجهود التي بذلها، وقبيل الوصول إلى خطّ النهاية، فقرّر الذهاب بنفسه إلى الشرق الأوسط لمحاولة تحريك الوضع الجامد.

24

السلام أخيرًا!

في القاهرة لقي جيمي كارتر، ترافقه زوجته، استقبالًا حارًّا. وتكلّلت خلوته بالسادات بالنجاح. ويقول في مذكّراته: «في أقلّ من ساعة من المناقشات، حللنا كلّ المشاكل التي برزت كعوائق أمامنا منذ توقيع اتّفاقية كامب دايفيد[1]». وحين عبّر كارتر أمام الرئيس المصريّ عن قلقه من عزلته في قلب العالم العربيّ، أجابه الأخير: «صديقي، إهتمّ أنت بالإسرائيليّين، وسأهتمّ أنا بالعرب[2]».

لكنّ الوضع اختلف في القدس. فاللقاء الذي جمع الرئيس الأميركيّ بالحكومة الإسرائيلية كان في غاية البرودة، تلته جلسة عاصفة في الكنيست. لكنّه لم يصل خالي الوفاض، فقد وافق السادات على أن يتمّ تبادل السفراء بين مصر وإسرائيل بمجرّد البدء بالانسحاب من سيناء. أمّا النفط الذي ينبع من تلك المنطقة المحتلّة، فستستمرّ الدولة اليهوديّة بالاستفادة منه. وإذا ما توقّف إنتاجه لسبب أو لآخر، يُستبدَل بالنفط

---

1 جيمي كارتر، *Mémoires*، المرجع السابق، ص. 323.

2 المرجع نفسه.

الأميركيّ. لم تبقَ في النهاية سوى نقطتين عالقتين: حقّ الوصول إلى غزّة الذي تطالب به مصر، والحريّات المطلوبة لسكّان الضفّة الغربيّة.

عاد كارتر إلى القاهرة حيث كان السادات في انتظاره في المطار. أقفل الرجلان على نفسيهما باب أحد المكاتب، فيما أخذت زوجتاهما، روزالين وجيهان، بالصلاة معًا من أجل السلام[3]. هل أصغت إليهما السماء؟ فبعد قليل، عرفنا أنّ الرئيسين اتّصلا بمناحيم بيغين بالهاتف، وأنّ اتّفاقًا بات قريبًا. لم يبقَ سوى معالجة التفاصيل وكتابة معاهدة السلام.

في 24 آذار/مارس، سافر السادات إلى واشنطن مع زوجته وأولاده. وهناك، وجد الوفد المصريّ في حالة سخط شديد، فالإسرائيليّون نالوا من الولايات المتّحدة التزامًا بتعاون عسكريّ معزّز في حال قامت مصر بخرق المعاهدة. لكنّ الرئيس المصريّ لم يُظهر أيّ استياء، ويؤكّد بطرس غالي: «بالنسبة إليه، فإنّ شيئًا لا يمكنه تلطيخ بريق الاحتفال الذي سيجري بعد ساعات قليلة[4]». كما أنّه غيّر لقب وزير حربه الذي أصبح منذ ذلك الحين وزيرًا للدفاع...

نصّت اتّفاقية السلام على إنهاء حالة الحرب وإعادة كامل سيناء، التي ستصبح منطقة ذات طابع غير عسكريّ، إلى السيادة المصريّة، على أن تكون الإعادة على مراحل، تمتدّ ثلاث سنوات. كما نصّت على أن يتعهّد البلدان تطبيق مبادئ القانون الدوليّ التي تحكم العلاقات بين الدول، وتحديدًا «حقّ العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترَف بها». وكذلك على تعهّد كلّ منهما بحلّ خلافاتهما المحتملة بالوسائل السلميّة، ومنع وقوع أيّ أعمال عدوان أو تخريب أو عنف بحقّ البلد الآخر انطلاقًا من أراضيه، وبأن تقيم الدولتان علاقات دبلوماسيّة وقنصليّة واقتصاديّة وتجاريّة وثقافيّة. وهذا يعني من جملة ما يعنيه، إنهاء حالة المقاطعة

[3] جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 448.

[4] بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 262.

ضدّ إسرائيل، التي سيتمتّع مواطنوها وسفنها وحمولاتها بحريّة بالمرور عبر قناة السويس. فضلًا عن ذلك، وفي ما ينطوي على قدر بالغ من الخطورة، «يتعهّد الطرفان بعدم الدخول في أيّ التزام يتناقض وأحكام هذه المعاهدة».

إتُّفِق على أن تتولّى مراقبة تطبيق الاتّفاقيّة على الحدود بين الدولتين قوّات أو مراقبون تابعون للأمم المتّحدة. لكنّ الواقع هو أنّ ما تمّ يبقى «سلامًا على الطريقة الأميركيّة». أوّلًا، لأنّ الولايات المتّحدة تشارك في توقيع (أي في ضمان) المعاهدة. وثانيًا، لأنّ واشنطن ستقدّم مساعدة ماديّة لكلّ من شريكيها: مليارا دولار لمصر، ومليارات ونصف المليار دولار لإسرائيل، لشراء معدّات أو تجهيزات عسكريّة بشكل أساسي.

«أسعد لحظة في حياتي»

تمّ التوقيع في 26 آذار/مارس 1979، عند الساعة الثانية من بعد الظهر بالتوقيت المحلّي، على منصّة أقيمت في الهواء الطلق أمام المدخل الشماليّ للبيت الأبيض. حضر الحفل نحو ألف وخمسمئة مدعوّ، وتابعه مباشرة ملايين المشاهدين عبر الشاشات. لاحظ بطرس غالي أنّ هنري كيسنجر «يتصرّف وكأنّه إشبين في عرس»، كما سمعه يهمس في أذن السفير الأميركيّ في القاهرة: «لماذا وقّع السادات هذه المعاهدة؟ كان بوسعي أن آتيه بمكاسب أفضل بكثير ممّا فيها[5]». يا للعزيز هنري!

بعد الإصغاء إلى الأناشيد الوطنيّة للبلدان الثلاثة على التوالي، وقّع السادات وبيغين وكارتر الوثائق التي قُدِّمت إليهم. ثمّ وقفوا وتصافحوا لفترة طويلة وسط التصفيق.

---

[5] بطرس بطرس غالي وشمعون بيريز، المرجع السابق، ص. 203.

قال السادات: «كانت تلك أسعد لحظة في حياتي». لكنّ ذلك لم يبدُ واضحًا على وجهه في تلك اللحظة التاريخيّة. ويجب الإشارة إلى أنّ أصوات ألفَي متظاهر مؤيّد للقضيّة الفلسطينيّة كانت تهدر خلف سياج البيت الأبيض ويتردّد صداها في الداخل، في تلك اللحظات. كما أنّ مناحيم بيغين لم يسهّل الأمور حين أكّد في خطابه أنّ أحد أعظم أيّام حياته كان يوم السيطرة على القدس الشرقيّة في حزيران/يونيو 1967 على يد «مظلّيين إسرائيليّين بواسل!».

إستعاد الرئيس المصريّ ابتسامته في خلال المساء. ففي خلال المأدبة غابت مسألتا سيناء والقدس، وراح الجميع يتكلّم عن أبنائه وأحفاده. حلّق جيمي كارتر في سماء من السعادة. ولم يكن وحده مَن اغرورقت عيناه بالدموع حين اقترب شاول وايزمان، ابن وزير الدفاع الإسرائيليّ، والذي أصيب برصاصة مصريّة في العام 1970 أقعدته مدى الحياة، من المائدة الرسميّة لمعانقة السادات.

في نيويورك، أضيء مبنى إمباير ستايت بالألوان المصريّة والإسرائيليّة. وفي اليوم التالي، نظّم الكونغرس احتفالًا على شرف الرئيس المصريّ، الذي بدا وكأنّه ابتدأ يستفيد من عائدات السلام. فقبل مغادرته واشنطن استقبل نحو مئة من رجال الأعمال الأميركيّين المهتمّين بالاستثمار في مصر. وكتبت زوجته تقول: «بدا كما لو كان عالمًا جديدًا خرجنا إليه. ففي رحلته إلى الولايات المتّحدة – لإلقاء خطاب أمام الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة في العام 1974 – كان عمدة نيويورك أبراهام بيم قد رفض لقاءه[6]».

في مصر سادت مشاعر الارتياح والأمل. السلام، أخيرًا! وبات المصريّون ينتظرون أمطارًا من الدولارات. لكنّ كثيرين راحوا يتساءلون:

---

[6] جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 451-452.

أما دفعنا ثمنًا باهظًا جدًّا من أجل استرجاع سيناء؟ هل كان يجب تطبيع العلاقات مع إسرائيل قبل الانسحاب الكامل من تلك المنطقة والذي لن يتمّ قبل نيسان/أبريل 1982؟ ولاحظ أشدّ المنتقدين أنّ نصّ الاتّفاقيّة لم يأتِ على ذكر مستقبل فلسطين، فالضفّة الغربيّة وغزّة لم تردا إلّا في تبادل للرسائل بين السادات وبيغين وكارتر، أُرفقَت المعاهدة. ومن جهة أخرى، لم يتّفق المصريّون والإسرائيليون على معنى واحد لعبارة «الحكم الذاتيّ». فالمصريّون يرون فيها مرحلة نحو تقرير المصير للفلسطينيّين وإنشاء دولة مستقلّة. أمّا الإسرائيليّون فيفسّرونها على أنّها مجرّد منح إدارة محليّة للسكّان العرب في الضفّة الغربيّة وغزّة. باختصار، لم يعدْ كلّ ما جرى كونه صلحًا منفردًا بين مصر وإسرائيل، حتّى ولو صوّره السادات كمرحلة على طريق الحلّ الشامل في الشرق الأوسط. ولاحقًا برّر بطرس غالي المعاهدة بقوله: «كيف لنا أن نقاوم إغراء التوصّل إلى صلح منفرد كان الفلسطينيّون والإسرائيليّون، على حدّ سواء، يدفعوننا إليه بعنادهم؟ بعناد محسوب ومتعقّل من قبل الإسرائيليّين، وعناد انفعاليّ ولاعقلانيّ من قبل الفلسطينيّين؟[7]».

من جهتها، لم تقدّم باريس للسادات ذلك الدعم الدوليّ الواضح. فبعد التذكير بـ«حقّ الشعب الفلسطينيّ في وطن»، أعلنت الحكومة الفرنسيّة: «لا بدّ من الملاحظة بأنّ الاتّفاقات المعقّدة التي أقرّها الموقّعون على معاهدة السلام لم تحترم عددًا من الشروط التي نعتبرها ضروريّة، إن على صعيد الإجراءات أو على صعيد المبادئ».

هذه المرّة أفلتت المواقف في العالم العربيّ من كلّ عقال. فتوقّع وزير الخارجيّة السوريّ أن «تتمّ الإطاحة بالسادات قبل نهاية العام». ووعده ياسر عرفات بالمصير عينه الذي لقيه النقراشي باشا، رئيس

7 بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 406.

الوزراء المصريّ الذي اغتيل في العام 1948. ولم تلبث العقوبات أن ظهرت. ففي 31 آذار/مارس، قرّرت الدول العربيّة، من بغداد، قطع علاقاتها الدبلوماسيّة بمصر، وتعليق المساعدة الاقتصاديّة التي تستفيد منها (أكثر من 4 مليارات دولار سنويًّا)، وطردها من جامعة الدول العربيّة، التي نُقل مقرّها من القاهرة إلى تونس. ولم يختر المحافظة على علاقات بمصر سوى السودان والصومال وسلطنة عمان.

في الثاني من نيسان/أبريل، حظي مناحيم بيغين باستقبال رسميّ بامتياز في القاهرة، حيث قدّم له حرس الشرف السلاح، وعزفت له أوركسترا الجيش المصريّ «الهاتيكفاه» (النشيد الوطنيّ الإسرائيليّ). ويروي مدير مكتبه إلياهو بن إليسار، فيقول: «ساورني لثانية واحدة شعور بالانزعاج. فقد كانت الملابس الرسميّة لحرس الشرف المصريّ تشبه ملابس جيش ألمانيا النازيّة شبهًا يكاد يضلّل الناظر إليها. وكانت جزماتهم الكبيرة وخوذهم مطابقة لجزمات وخوذات الألمان، لكن لا أنا ولا بيغين قلنا شيئًا[8]».

لم يتدافع الرسميّون المصريّون لاستقبال بيغين في المطار. فالجميع لاحظ السحنة المتجهّمة لحسني مبارك، نائب رئيس الجمهوريّة، وكذلك غياب مصطفى خليل رئيس الوزراء، الذي تذرّع بالمرض. لكنّ رئيس الوزراء الإسرائيليّ حظي بحفل عشاء رسميّ فخم في قصر القبّة. وتقرّر في خلال زيارته، من جملة ما تقرّر، مدّ «خطّ اتّصال أحمر» بين مكتبه ومكتب السادات. طفح بيغين بالسعادة، وحين أطلع الرئيس كارتر على زيارته، كاد يصيح عبر الهاتف: «كانت زيارة رائعة! فتح لي المصريّون قلوبهم. وامتلأت الشوارع بعشرات ألوف المصريّين الذين يهتفون ويصفّقون. نزلت لبرهة من سيّارتي للاختلاط بالجماهير، متسبّبًا ببلبلة

[8] إلياهو بن إليسار، المرجع السابق، ص. 220.

كبيرة بين رجال المخابرات. وراح الناس يهتفون: نحن نحبّك، نحن نحبّك! كان ذلك مدهشًا جدًّا![9]».

لم يكن مفاجئًا أن يوافق النوّاب المصريّون على المعاهدة بغالبيّة 329 صوتًا، ومعارضة 15 صوتًا، وامتناع صوت واحد. وانتهت الجلسة بما يشبه «الهستيريا الجماعيّة»، بحسب تعبير بطرس غالي[10]. وصعدت النائبة والمطربة الشهيرة فايدة كامل على كرسيّ لتحيّي السادات، قبل أن تنشد تلك الأغنية الوطنيّة التي تعلّمها المصريّون في المدارس «بلادي، بلادي، بلادي، لك حبّي وفؤادي...» ويرافقها زملاؤها في الإنشاد، فيقرّر السادات أن يجعل منها النشيد الوطنيّ لمصر.

لم يقتصر الانتقام من معاهدة السلام على العالم العربيّ. فقد طُردت مصر من منظّمة المؤتمر الإسلاميّ[11] (في أيّار/مايو 1979)، في انتظار طردها من حركة عدم الانحياز[12] (في أيلول/سبتمبر 1979). ومع ذلك، نجح السادات بالفوز بتصفيق حادّ في تمّوز/يوليو، في ليبيريا، أثناء انعقاد قمّة منظّمة الوحدة الأفريقيّة، بعدما ألقى خطابًا قويًّا هزّ المشاعر في القاعة. لكنّ «جبهة الصمود والتصدّي»، التي أصبحت «جبهة الرفض»، جرّت معها معظم دول العالم الثالث.

---

9 جيمي كارتر، *Mémoires*، المرجع السابق، ص. 329-330.

10 بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 276.

11 تأسّست منظمة المؤتمر الإسلاميّ على أثر الحريق المتعمّد في مسجد الأقصى في القدس في 21 آب/أغسطس 1969، والذي أشعله أصوليّ مسيحيّ يحمل جنسيّة أوستراليّة. مقرّ هذه المنظّمة في جدّة في المملكة العربيّة السعوديّة، ومهمتها، إلى جانب أهدافها الاقتصاديّة والثقافيّة، تنسيق سياسات دولها الأعضاء.

12 نشأت حركة عدم الانحياز في فترة الحرب الباردة، في وجه الإمبرياليّة والاستعماريّة، وضمّت الدول التي تعتبر نفسها غير منحازة لا إلى الكتلة الشرقيّة، ولا إلى الكتلة الغربيّة.

هاجم السادات أمام معاونيه، وبعنف، «أنصاف الدول في الخليج وفي أفريقيا، والتي لا تشكّل سوى زمرة صغيرة لا وزن لها، لا سياسيًّا ولا ثقافيًّا ولا اقتصاديًّا[13]». وأعلن أنّه لا يعير انتقادات الصحافة العربيّة أيّ أهمّية. «قيل لي إنّ جرائد بيروت تهاجمني. لماذا أضيّع وقتي وأحرق دمي في قراءة الكلام الفارغ الذي ينشرونه؟ لقد قتل عبد الناصر نفسه وهو يقرأ الصحف العربيّة التي حفلت بالإهانات بحقّه، ويصغي إلى الإذاعة قبل أن ينام، بعدما يكون قد عمل ثماني عشرة ساعة يوميًّا[14]».

في 25 أيّار/مايو 1979، أحاط به أفراد الحكومة المصريّة بكاملهم في العريش للاحتفال بالمرحلة الأولى من استعادة سيناء. وكان في شبابه قد نُقل إلى تلك البلدة الحدوديّة الصغيرة بعدما أعيد إلى صفوف الجيش. نُظّم بحضور بيغين لقاء بين الجرحى الإسرائيليّين والجرحى المصريّين، وعجز السادات عن إخفاء عواطفه حين رأى الكراسي المدولبة تتقارب. ثم تابع زيارته إلى بئر السبع، وهي المدينة الرئيسيّة في النقب، حيث استقبله الرئيس إسحاق نافون، قبل أن تُقدَّم له شهادة الدكتوراه الفخريّة من جامعة بن غوريون. إستفاد مناحيم بيغين من هذا الجوّ الرائع ليسأله خدمة، وهي أن يساعده على الاتّصال بالمشير النميري للسماح لليهود الإثيوبيّين، الذين ترغب إسرائيل في استقبالهم، بالمرور عبر السودان. تمّ ذلك، واستطاع نحو ألفين من يهود الفالاشا، الذين اقتُلعوا من قراهم، الوصول إلى إسرائيل في العام 1981[15].

---

13 بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 373.

14 أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص. 99.

15 جاك ديروجي وهيسي كارمل، المرجع السابق، ص. 758-759.

أسرّ السادات إلى صحفيّين مصريّين، في معرض سرده لوقائع زيارته إلى إسرائيل، بالقول: «لفتُّ نظر بيغين إلى أنّ النيل يصبّ كمّيات ضخمة من مياهه في البحر الأبيض المتوسّط. فسألته: ما رأيك في أن أعطيك مليون متر مكعّب من الماء يوميًّا، في مقابل القدس. نحن جاران. أعطِني القدس، أعطِك الحياة[16]». صُدم الإسرائيليّ بهذا العرض، وإذا أردنا أن نصدّق المدير القديم لمكتبه، فقد اعتبر أنّ السادات لم يفهم شيئًا من علاقة اليهود بالقدس. من جهة أخرى، انتهى لقاء بئر السبع من دون إحراز أيّ تقدّم في مسألة وضع القدس، والحكم الذاتيّ للفلسطينيّين.

من 5 إلى 7 أيلول/سبتمبر، قام السادات بزيارته الثالثة إلى إسرائيل، ورافقته زوجته وأولاده. وصل إليها على متن «المحروسة»، اليخت الذي أقلّ الملك فاروق إلى منفاه قبل خمسة وعشرين عامًا. فاستُقبل في مرفأ حيفا بإحدى وعشرين طلقة مدفع، ورحّبت به حشود كبيرة بحضور الرئيس نافون. وأعلن أنّ مصر ستبيع الدولة اليهوديّة مليونَي طنّ من النفط سنويًّا، ووافق على التوأمة بين حيفا والإسكندريّة، ووعد في إحدى مبالغاته الخطابيّة التي يتميّز بها، بأنّ النيل لن يروي سيناء فقط، بل أيضًا صحراء النقب.

في خلال تلك الرحلة، عقدت جيهان السادات صداقة مع زوجتي مناحيم بيغين وإسحاق رابين. وتساءلت عمّا إذا لم تكن تحلم وهي تطير فوق إسرائيل بالمروحيّة، وإلى جانبها عزرا وايزمان، وزير الدفاع. لا، لم تكن تحلم. فقد تغيّر كلّ شيء...

بعد العودة إلى مصر، في شهر أيلول/سبتمبر من العام 1979، استقبل زوجها نجمين عالميّين، وهما إليزابيت تايلور، ضيفة الشرف إلى مهرجان

---

16 موسى صبري، السادات: الحقيقة والأسطورة، المرجع السابق، ص. 504-506.

القاهرة السينمائيّ الدوليّ، وفرانك سيناترا، الذي أتى لتقديم حفلة موسيقيّة في الأهرام. كانت تايلور محلّ مقاطعة حتّذاك، بسبب تعاطفها المعلَن مع الإسرائيليّين. حتّى أنّ جوزف مانكيفيتش اضطرّ إلى توظيف ممثّلة بديلة لتصوير بعض المشاهد من فيلم «كليوباترا» في الإسكندريّة في العام 1962... لكنّ محبّي ليز تايلور كانوا قد تمكّنوا، طوال السنوات الماضية، من الالتفاف على الرقابة. وكان لها في مصر عدد كبير من المعجبين، بدءًا بعائلة السادات. وقد أعلنت مبتسمة بعد لقائها بالرئيس المصريّ وزوجته: «أعتقد أنّهما شاهدا أفلامي كلّها». أمّا حفلة فرانك سيناترا، فقد كانت الأولى في العالم العربيّ. وأقيمت تلك السهرة الاحتفاليّة الكبيرة، التي كانت برعاية ريفلون وبالمين، أمام تمثال أبي الهول، لمصلحة جمعيّة جرحى ومعاقي الحرب التي ترأسها جيهان. عبر الميكروفون، قال «بطل الحرب والسلام»، الذي تحوّل إلى مدير فنّي: «أمور كثيرة حدثت في الشرق الأوسط، والآن، ها هو فرانك عندنا!».

25

بين غاندي ونابوليون

بدأ الظرفاء يقولون عن السادات إنّه «يسير على درب عبد الناصر، لكن بأستيكة (ممحاة)». ومن النكات الأخرى التي تسلّى بها كثير من المصريّين في السبعينيّات، نكتة تقول إنّ السادات كان في سيّارة الرئاسة، ولدى بلوغها تقاطعًا، سأل السائق: «أيّ طريق كان عبد الناصر يسلك هنا؟» فأجابه: «طريق اليسار يا سيادة الرئيس». فردّ السادات قائلًا: «حسنًا، أضئ ضوء الإشارة الأيسر، وانعطِف يمينًا».

بدا أنّ عمليّة محو الناصريّة تسير على قدم وساق في شتّى المجالات. فمصر انتقلت من المواجهة المسلّحة مع إسرائيل إلى مفاوضات السلام، ومن التحالف مع الاتّحاد السوفياتيّ إلى التحالف مع الولايات المتّحدة، ومن اشتراكيّة الدولة إلى الليبراليّة الاقتصاديّة، ومن حظر تنظيم الإخوان المسلمين إلى إعادة أسلمة المجتمع. لكنّ كلًّا من تلك الانقلابات الجذريّة التي حدثت يستحقّ، إذا ما تمعّنّا فيه، أن يتميّز في خصوصيّته. فبعد هزيمة 1967، بدأ عبد الناصر نفسه، مرغمًا، بإعادة النظر في الأسس التي ارتكزت عليها سياسته في خلال الأعوام

السابقة. لكنّه لم يقم بذلك بالقدر عينه من المباغتة والحزم اللذين ميّزا خلفه.

مارس السادات سياسة الصدمات الكهربائيّة، المختلفة كلّ الاختلاف عن سياسة الخطوات الصغيرة. فهو يحبّ أن يفاجئ، وأن يُسقط ما هو قائم، وأن يغيّر مسار القدر بالقوّة. وكما يشير إليه أحد المراقبين البارعين لفترة رئاسته، فقد كان يجمع بين عشق المشهد الاستعراضيّ وبين «حذر فطريّ وعادة العمل بسريّة لتحويل سياسته إلى سلسلة من المفاجآت المسرحيّة[1]». أمام دهشة الجميع، زجّ السادات بمعارضيه في السجن، وطرد الخبراء السوفيات، وشنّ حربًا، وأعلن عن رحلة إلى القدس... ويلاحظ هو نفسه في مذكّراته: «إرادة التحدّي لم تنم يومًا طوال السنوات السابقة، فهي إحدى مقوّمات شخصيّتي[2]».

ليس لقادة الدول النامية عادة كتابة مذكّراتهم. لكنّ السادات سمح لنفسه بنشرها في العام 1978، وهو لا يزال في السلطة! وهدفه من ذلك كان تثبيت صورته، الصورة التي يريد أن يعطيها عن نفسه لشعبه، وخصوصًا للغربيّين. وعمد في تلك المذكّرات، ومن دون أيّة عقد، إلى تصحيح رواياته السابقة لبعض الأحداث. وقد استهلّ كتابه، الذي عنونه «البحث عن الذات»، وتُرجم إلى لغات عدّة، على طريقة الأفلام الأميركيّة الضخمة: «أنا أنور السادات، فلّاح نشأ وتربّى على ضفاف النيل حيث شهد الإنسان مولد الزمان، أهدي هذا الكتاب إلى القارئ في كلّ مكان». لقد كتب تلك الصفحات بعد رحلته إلى القدس، لكن قبل التوقيع على اتّفاقيّة كامب دايفيد. ويوضح المؤلّف: «ليست هذه قصّة الصراع العربيّ الإسرائيليّ، أو قصّة تحرير مصر من الاحتلال البريطانيّ، أو قصّة منجزات وأخطاء ثورة 23 يوليو 1952. ربّما كانت ذلك كلّه وأكثر.

---

[1] بيار ميريل، المرجع السابق، ص. 247.

[2] أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 301.

ولكنّها في المقام الأوّل قصّة البحث عن الذات – ذاتي وذات مصر – ذلك الكيان الواحد الذي أشرق في نفسي منذ الطفولة، عندما توحّدت ذاتي مع ذات بلادي أرضًا وشعبًا».

خصّص السادات حقوق المؤلّف عن تلك المذكّرات، التي قدّرها بمليون دولار، لقريته ومسقط رأسه ميت أبو الكوم، تمامًا مثلما فعل مع قيمة جائزة نوبل[3].

الثاني رتبة في روما

بدأ السادات، الرجل الذي كره البريطانيّين في حداثته، يشبههم أكثر فأكثر. فالغليون الذي لم يعد يفارقه أبدًا، بنفثات دخانه المُطَمْئِنة، يوحي بغليون المصالحة والسلام الذي يدخّنه هنود أميركا الحمر، لكنّه أيضًا يبعث صورة نوادي الأرستقراطيّين الإنكليز ذات المقاعد الجلديّة الوثيرة والمبطّنة (حتّى لو أكّد مطلقو الدعابات أنّه محشوّ بالحشيش...). كان يعطي الانطباع بأنّه يحتقر الزعماء العرب الآخرين، المرتبطين بالشرق الرجعيّ، خصوصًا بعدما أدانوا سياسته الخارجيّة. ولاحظ بطرس غالي أنّ «عبد الناصر، مثل قيصر، كان يفضّل أن يكون الأوّل رتبة في قريته، أي في قرى العالم الثالث. أمّا السادات فيقبل أن يكون الثاني رتبة في روما، أي في عواصم القوى العالميّة العظمى[4]».

سحرته النمسا منذ زمن طويل، ودأب على زيارتها كلّما سنحت له الفرصة لذلك، وعلى التغنّي بثرواتها الطبيعيّة، وطابعها المتمدّن. لا يمكن تفسير هذا الانجذاب فقط بدور الوسيط بين العرب والإسرائيليّين، الذي منحه المستشار كرايسكي لنفسه. فأحد المؤتمنين على أسرار السادات

---

[3] مقابلة مع التلفزيون المصري، 25 كانون الأوّل/ديسمبر، 1978.

[4] بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 151.

يذكر مبتسمًا: «كان السادات يعشق النمسا. وتساءلنا هل يقصدها لأجل ذلك، أم أنّ النمسا لعبت في النهاية دورًا في صراع الشرق الأوسط لأنّ السادات غالبًا ما كان يزورها[5]».

أكثَرَ خلف عبد الناصر من مقابلاته الصحفيّة باللغة الإنكليزيّة. كان يتكلّم ببطء، وبلكنة قويّة، موحيًا بأنّه يبحث عن كلماته. في ربيع العام 1980، ذكرت مراسلة محطّة إيه.بي.سي الأميركيّة في القاهرة أنّه حقّق «تحسّنًا مدهشًا» في لغته الإنكليزيّة في عامين ونصف، لكنّها لاحظت أنّه يسيء أحيانًا فهم تشبيه ما، وأنّ عليه «أن يحرز المزيد من التقدّم[6]». وفي 10 شباط/فبراير 1981، بدأ خطابه أمام البرلمان الأوروبّي في لوكسمبورغ، بعبارات ألمانيّة وإنكليزيّة وفرنسيّة، قبل أن ينتقل إلى العربيّة. كان السادات يتباهى كالمراهقين بإلمامه باللغات الأجنبيّة، ويتبجّح بأنّه يتكلّم الألمانيّة كالبافاريّين، ويجيد الفرنسيّة، ويعرف حتّى اللغة الفارسيّة. وفي خلال قمّة جمعته في الخرطوم برؤساء دول فرنكوفونيّين، شرع بطرس غالي بترجمة أقوال محاوري السادات، لكنّ هذا الأخير أوقفه بحركة من يده، قائلًا: «أفهم الفرنسيّة». لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا، فإجابات الرئيس المصريّ بقيت بعيدة قليلًا عن الأسئلة التي طُرحَت عليه، فتولّى وزير دولته للشؤون الخارجيّة ترتيب الأمور[7]... وتؤكّد ابنته البكر أنّ مدرّسًا أتى في وقت من الأوقات لتعليمه الروسيّة[8]، فيما يشير صديقه المؤتمن على أسراره موسى صبري إلى أنّ صحفيًّا من جريدة الجمهوريّة أعطاه دروسًا في الفرنسيّة[9].

---

5 أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص. 98.

6 دورين كايز، المرجع السابق، ص. 198.

7 مقابلة مع بطرس بطرس غالي، أيلول/سبتمبر 2012.

8 رقيّة أنور السادات، المرجع السابق، ص. 83.

9 موسى صبري، **السادات: الحقيقة والأسطورة**، المرجع السابق، ص. 216.

لكنّ السادات الغربيّ لم يمتنع، برغم ذلك، عن إظهار طابعه الريفيّ، وحتّى الفلّاحيّ. وهو القائل: «في الأوّل والآخر، أنا فلّاح[10]». تتذكّر زوجته فترة الستّينيّات، فتروي: «لقد أحببت الذهاب مع أنور إلى قريته في دلتا النيل. وكانت المسافة بينها وبين القاهرة ساعتين في السيّارة، والطريق إليها جميل تحفّ به أشجار الجمّيز والكافور، مخترقًا أميالًا من حقول القطن الزاهية شتاء، والتي تصبح محمّلة بزهور صفراء صيفًا. وحالما نصل إلى ميت أبو الكوم يتحوّل زوجي إلى شخص آخر، فسرعان ما يخلع بدلة المدينة ويرتدي الجلباب الأبيض كباقي رجال القرية... وأحيانًا كان يرفع صوته بالغناء مترنّمًا بالمواويل الحزينة للفلّاحين[11]».

ظلّ السادات، بعدما أصبح رئيسًا للجمهوريّة، يقيم بصورة دوريّة في ميت أبو الكوم. ولم يكفّ يومًا عن تأكيد انتمائه إلى عالم الأرياف، مع أنّه أسقط الكلفة في مخاطبته جيمي (كارتر) أو دايفيد (روكفلر)، وبات يطلب بذلاته من سافيل روو، في لندن[12]. ويلفت معارضوه الانتباه إلى أنّ عبد الناصر لم يكن بحاجة إلى تذكير الجميع في كلّ حين بأنّه ابن الشعب. إلّا أنّ الأمر لم يكن بالنسبة إلى السادات مجرّد صورة يحرص عليها. فالواقع أنّه يحتفظ بذكريات مضيئة من طفولته، ويميل إلى أن يخلط بين مصر وبين قرية كبيرة هو عمدتها، وصاحب السلطة المطلقة فيها. حتّى أنّه كان يصف بلده بـ«ميت أبو الكوم الكبيرة».

كان موضوع القرية يفيده على شتّى الأصعدة، حتّى لإظهار تعلّقه بالاشتراكيّة، التي لا تنفكّ سياسته الاقتصاديّة تبتعد عنها. وهو يؤكّد قائلًا: «إنّ القرية المصريّة كانت أوّل مجتمع إنسانيّ في التاريخ، عرف

---

10 أنيس منصور، المرجع السابق، ص. 469.

11 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 195.

12 ينفي أقرباؤه أنّه كان يطلب بذلاته من لندن، ويؤكدون أنّه كان يقصد خيّاطًا شهيرًا في القاهرة يدعى حسن سويلم.

الاشتراكيّة كسلوك عمليّ بعيدًا عن النظريّات والشعارات الفارغة. إنّ الاشتراكيّة كما تعلّمتها في القرية هي اشتراك الجميع في نفس الأدوات والخدمات[13]».

إذًا مصر قرية كبيرة. بل وأفضل: إنّها عائلة. في بداية عهده بالرئاسة، اعتاد أن يقول في خطاباته «أيّها الإخوة المواطنون». لكنّ هذا النداء اختفى بدءًا من أيّار/مايو 1974، لتحلّ محلّه عبارات أقلّ رهبة واحتفاليّة، مثل «إخواني وأخواتي»، أو «أبنائي وبناتي». وحتّى في العام 1948، أثناء محاكمته في قضيّة مقتل أمين عثمان، كان يقول عن رفاقه في التهمة «أبنائي»، فيما هم، وكانوا يصغرونه سنًّا، ينادونه «بابا أنور»[14]. بات كلّ سكّان مصر، ومهما كانت أعمارهم، أولادًا للسادات. وقدّم نفسه على أنّه «أب» للمصريّين، علمًا بأنّ الأب لا يُنتخَب، بل يُطاع. وهو نفسه أعلن: «يشكّل شعبي عائلة واحدة، العائلة المصريّة. وأنا فخور بأن أكون قائده. ما يهمّني ليس أن أكون رئيسًا للجمهوريّة أو زعيمًا لحزب، بل ربًّا للعائلة المصريّة[15]».

وفي 31 آذار/مارس 1981، قال بحماسة في مقابلة له مع الصحفيّين: «لا تصدّقوا كلّ ما يُروى عن صراع بين السلطة والصحافة. لم يقع أيّ صراع كهذا قطّ، ولسبب بسيط تعرفونه: كيف يمكن أن يقع خلاف بين ربّ العائلة وأحد أبنائه، بيني وبين أحد أولادي؟».

برهن أنور السادات في حياته الخاصّة عن تمسّكه بالتقاليد، فبناته من زواجه الأوّل كنّ يقبّلن يده[16]. وهو نفسه لم يدخّن أمام والده قطّ، حتّى بعدما أصبح رئيسًا للجمهوريّة. وعند الخامسة من بعد ظهر

13 أنور السادات، وصيّتي، المرجع السابق، ص. 213.
14 موسى صبري، **السادات: الحقيقة والأسطورة**، المرجع السابق، ص. 216.
15 مقابلة مع التلفزيون المصري، 25 كانون الأوّل/ديسمبر، 1978.
16 على عكس أولاده من جيهان. وقد أشارت ابنته كاميليا إلى هذا الفرق بكثير من المرارة.

أحد أيّام الشتاء، اتّصل هاتفيًا بابنته البكر المتزوّجة، رقيّة. لكنّ أحدًا لم يجب. أعاد الاتّصال بعد ثلاثة أرباع الساعة، وذُهش لمعرفته أنّها غادرت منزلها بمثل تلك الساعة المتقدّمة. إعترضت قائلة: «لكنّني كنت في منزل عمّي، في الجهة المقابلة من الشارع، وعدت إلى منزلي عند الخامسة والنصف!». فذكّرها السادات بمبدأ شعبيّ يقضي أنّ على المرأة المتزوّجة ألّا تغادر منزل زوجها بعد مغيب الشمس. وأضاف: «كيف سيعرف الذين يرونك تعودين أنّك كنت في منزل عمّك؟[17]».

كانت شخصيّة السادات متناقضة تمامًا. فقد شعر دائمًا بالحاجة إلى أن ينعزل ويفكّر وحيدًا. إلّا أنّه كان أيضًا يحبّ أن يلقي خطابًا لساعات على منبر، أو يستسلم، مثلما يفعل الممثّلون البارعون، لعدسة كاميرا تفاجئه في كلّ الوضعيّات الممكنة. فقد التُقطت له صور ببزّة مشير، وتحت ذراعه عصا الماريشاليّة؛ أو بالقفطان التقليديّ في قريته، وقد استبدل الغليون بالنارجيلة؛ أو بالسروال القصير جدًّا، معتمرًا قبّعة قشّ، لممارسة رياضة المشي اليوميّة؛ أو بلباس البحر، وسط حرّاسه، قبل الغطس في البحر المتوسّط أو في بحيرة التمساح؛ أو بمبذل النوم، راكعًا على سجّادة الصلاة؛ أو في خلال لعب النرد مع زوجته؛ أو على درّاجة هوائيّة مزدوجة، مرتديًا الجلابيّة، وخلفه حفيده؛ أو بالسروال الداخليّ وهو يحلق ذقنه، ورغوة الصابون تغطّي وجهه، أو ينظّف أسنانه، أو يشذّب شاربيه بمقصّ صغير...

لم يظهر عبد الناصر سوى ببزّة كاملة مع ربطة عنق، وهو ما يرمز إلى الحداثة بالنسبة إلى عسكريّ. أمّا السادات، فكان يتنكّر. ويلاحظ جورج قرم بخبث: «لم يكن عنوان سيرته الذاتيّة البحث عن الذات من قبيل الصدفة قطّ[18]». وكان حريصًا جدًّا على صورته، كما يدلّ حادث

---

[17] رقيّة أنور السادات، المرجع السابق، ص. 58.

[18] جورج قرم، المرجع السابق، ص. 257.

صغير، حين أراد متحف «مدام توسو» في لندن أن يخصّص له تمثالًا من الشمع. فقد أسعده الأمر كثيرًا وبعث بإحدى بذلاته لكساء التمثال بها. لكنّه، حين شاهد النتيجة في خلال إحدى زياراته إلى العاصمة البريطانيّة، وجد أنّه «يشبه دراكولا»، وطلب أن يعاد صنع التمثال[19].

كان عبد الناصر خطيبًا رائعًا يلهب الجماهير حماسة. أمّا السادات فكان أكثر شعورًا بالارتياح في اجتماعات كبرى الشخصيّات. تمتّع الأوّل بكاريزما استثنائيّة، فيما لعب الثاني على الإغراء. لقد كان السادات فاتنًا، دافئ الصوت، يعرف كيف يُضحك محاوريه.

رئاسة ذات طابع أمبراطوريّ

في العائلة، كان يطيب له أن يسخر ممّن يصيبه سوء الحظّ بزيادةِ الوزن، فيسارع إلى القول له متهكّمًا: «شُفت الفيل يا خليل؟». وتتذكّر ابنته البكر: «يا ويل مَن يراه أبي فيه شيء من البدانة[20]». كان السادات رجلًا بسيطًا في أكله، لا يأكل شيئًا حين يدعو أحدهم إلى الغداء. ولم يكن يأكل سوى في المساء، مفضّلًا الأطعمة غير الدهنيّة (كحساء الخضار، واللحم المسلوق، ولحم الأرانب...) ويمضي النهار كلّه في شرب الشاي.

إلّا أنّ هذا السلوك الذي يقارب الزهد أحيانًا، لم يمنعه من السخاء مع محيطه. فقرّر في العام 1980 أن يهدي سيّارة إلى كلّ من بناته الستّ، وإلى ابنه وكنّته. فطلب ثماني سيّارات فولكسفاغن – ألمانيا، دائمًا ألمانيا! – مختارًا اللون الذي بدا له الأنسب لكلٍّ منهم[21].

كما أنّ بساطة العيش لم تمنعه من أن يحبّ البذخ، والاستمتاع بكلّ التسهيلات التي تمنحه إيّاها وظيفته، من دون أن يميّز دائمًا بين الملكيّة

---

19 أنور السادات، *Those I Have Known*، المرجع السابق، ص. 124.

20 رقيّة أنور السادات، المرجع السابق، ص. 112.

21 المرجع نفسه، ص. 173.

العامّة والملكيّة الخاصّة. لم يكن عبد الناصر يوزّع إقامته، كالسادات، على نحو عشرة مقرّات رئاسيّة، جرى تجهيزها لتناسب ذوقه. وفي بداية ولايته الرئاسيّة، كان السادات ينظر بعين الحسد إلى طائرة سلاح الجوّ الأميركيّ Air Force One التي كانت بتصرّف ريتشارد نيكسون. فأهدى إليه السعوديّون، وكانت علاقته بهم لا تزال جيّدة آنذاك، طائرة بوينغ، لا تقلّ في تجهيزها عن طائرة الرئيس الأميركيّ، بقيمة اثني عشر مليون دولار[22].

كما كانت له أساليب الملوك في التصرّف. ويروي مدير مكتب بيغين، الذي رافقه على متن إحدى مروحيّات الرئاسة المصريّة في أيلول/سبتمبر من العام 1979، أنّه رآه «يشير بحركة لا تُرى إلى رئيس خدمه»، الذي أخرج من جيبه «علبة جلديّة، أخذ منها غليونًا، وملأه تبغًا، ثمّ رصّ التبغ قبل أن يعطيها إلى سيّده. ولم يبقَ أمام الرئيس سوى أن يشعل الغليون ويدخّنه[23]».

لم يعد شيء ينقص السادات، منذ أن تبوّأ سدّة الرئاسة، لكن لا يمكن اتّهامه بالإثراء الشخصيّ الفاحش، كحال عدد كبير من الحكّام الأوتوقراطيّين والدكتاتوريّين. في العام 1972، ورغبة منه في إظهار عدم محاباته أفراد عائلته، أمر بسجن شقيقه طلعت، المتّهم بالتهريب، حتّى قبل محاكمته. إلّا أنّه تساهل لاحقًا مع الإفراط والفساد في حاشيته. وبدا أنّه لا يبالي أبدًا بتعدّد امتيازات صديقه الحميم ونسيبه بالمصاهرة، عثمان أحمد عثمان، الذي عُيّن وزيرًا وهو يمتلك إحدى أهمّ مؤسّسات الأشغال العامّة في مصر.

---

22 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 92.

23 إلياهو بن إليسار، المرجع السابق، ص. 234.

كان السادات يعتبر نفسه رجلًا استثنائيًّا، وقد أكّد لأحد أقرب أصدقائه: «أنا مختلف عن الآخرين، وهذه مشيئة الله[24]». وبدا أنّه مقتنع بأنّه متفوّق على الآخرين، وأنّه دائمًا على حقّ. وقد رأى الكاتب نجيب محفوظ بأنّه مصاب بداء العظمة، و أنّ مبالغاته نابعة من «شعوره المتزايد بالعظمة بعد الإنجازات الكبيرة التي حقّقها[25]».

كانت تلك رئاسة ذات طابع أمبراطوريّ. فالسادات راح يتماهى مع مصر ولا يفرّق بينها وبين شخصه حين يتكلّم. وما كاد يصل إلى سدّة الرئاسة حتّى أعلن في مقابلة مع محطّة سي.بي.أس: «لديّ هنا مستشارون سوفيات، يساعدونني على إعادة بناء جيشي... لكنّها معركتي، وسأقاتل مع جنودي وضبّاطي[26]». حتّى أنّه قال بعد أشهر عدّة، في خطاب للأمّة عبر الإذاعة: «أنا مستعدّ للتضحية بمليون إنسان من أجل استقلالي وتحرير أرضي[27]». أما كانت مصر كلّها ملكًا للفرعون في التاريخ القديم؟لم يكن أيّ شأن من شؤون مصر ليفوت السادات. ففي بداية ولايته الرئاسيّة، قال للبابا القبطيّ الجديد شنودة الثالث: «أعرف تمامًا تاريخ كنيستي، وأريدها أن تستعيد مجدها[28]».

زادت حرب أكتوبر في إبراز هذا التماهي، فالسادات هو مصر. ويؤكّد منتقدوه أنّه سكر في نهاية السبعينيّات بشهرته العالميّة، وأنّه حمل عصا الماريشاليّة كما يحمل الفرعون مفتاح الحياة. ويقول هيكل – المشتبه بتحيّزه ضدّ السادات دائمًا – إنّ هذا الأخير كان يمضي الساعات في التفرّج على أفلام انتصاراته، أو أنّه بدأ يصدّق نتائج الاستفتاءات التي

---

24 أنيس منصور، المرجع السابق، ص. 504.
25 نجيب محفوظ، المرجع السابق، ص. 184.
26 مقابلة مع والتر كرونكايت في كانون الثاني/يناير 1971.
27 راديو القاهرة، 16 أيلول/سبتمبر 1971.
28 كيرك بيتي، المرجع السابق، ص. 107.

ينظّمها[29]... وفي هذا السياق، تبدو شهادة شمعون بيريز، رئيس حزب العمل الإسرائيليّ، أكثر إثارة للاهتمام حين يقول: «كان السادت يرى نفسه نبيًّا للسلام ومحاربًا ظافرًا – أي غاندي ونابوليون في رجل واحد. وكما قال لي أكثر من مرّة، فهما الشخصيّتان اللتان يكنّ لهما التقدير الأكبر في التاريخ المعاصر. ففي جلابيّته القرويّة الطويلة والفضفاضة، كان يقوم بدور غاندي. أمّا في تألّقه بلباس القائد العسكريّ، فقد كان نابوليون المصريّ[30]».

---

29 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 190 و200.

30 شمعون بيريز، المرجع السابق، ص. 340.

26

باسم الله

في أيلول/سبتمبر 1979 شعرت جيهان السادات بالقلق بسبب المظاهرات المناهضة للحكومة والتي نظّمها الإسلاميّون. وكتبت في مذكّراتها تقول: «أخذت النيران التي كانت على وشك أن تلتهم زوجي تنتشر[1]». في الواقع، كان شهر العسل بين السادات و«مجانين الله» قد انتهى منذ أواخر العام 1977، بعد رحلة القدس. لكنّ بعض المتطرّفين لم ينتظروا ذاك الحدث لاختيار المجابهة في السرّ.

وفي هذا السياق، كانت مجموعة راديكاليّة يقودها الفلسطينيّ صالح سريّة، على قناعة بأنّ التخلّص من الرئيس المصريّ شرط ضروريّ لإقامة مجتمع إسلاميّ في مصر. نظّمت تلك الجماعة يوم 22 نيسان/أبريل 1974 مؤامرة، بكلّ ما للكلمة من معنى، في الكليّة الفنّيّة العسكريّة في هليوبوليس بضاحية القاهرة، حيث حاول شبّان بملابس عسكريّة اقتحام الكليّة، على أن يقوم بعض طلّابها من المشاركين في المؤامرة بالاستيلاء على مستودع الأسلحة ثمّ مهاجمة موكب الرئيس المنتظر وصوله إلى مكان قريب من الكليّة. لكنّ ذلك التمرّد خُنق في المهد. وفي نهاية

---

[1] جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 456.

محاكمة المتآمرين، والتي وجّهت أصابع الاتّهام إلى ليبيا، أعدِم سرّيّة ومعاونه، وحُكم على تسعة وعشرين متّهمًا آخرين بالحبس. «وهكذا، ما كادت السجون المصريّة تخلو من سجناء عبد الناصر الإسلاميّين، حتّى امتلأت بسجناء السادات منهم[2]»، يقول جيل كيبيل.

وأنشأ إسلاميّون راديكاليّون آخرون حركة سرّية في أسيوط باسم «جماعة المسلمين[3]»، استوحت آراء مفكّر متطرّف أعدِم في عهد جمال عبد الناصر، وهو سيّد قطب. إعتبرت تلك الجماعة أنّ مَن يخون الإسلام ليس الفرعون (رئيس مصر) وحده، بل المجتمع برمّته، ويجب الابتعاد عنه، «في الكهوف». عاش أولئك الهامشيّون في شقق جماعيّة أو في مغاور في مصر العليا، مطبّقين نُظُم عيش تعود إلى زمن غابر، بقيادة زعيمهم شكري مصطفى. أخضعت الشرطة أفراد تلك الجماعة لمراقبة مشدّدة، ودخل عدد منهم السجن، وبينهم مَن سُجن أكثر من مرّة. ثم وجّهت جماعة المسلمين ضربة كبرى، يوم 3 تمّوز/يوليو 1977، حين اختطفت ثمّ اغتالت محمّد الذهبيّ، وهو وزير سابق للأوقاف، فقادت السلطات حملة اعتقالات واسعة في أوساط المتطرّفين شملت المئات، وأعدم خمسة ناشطين، من بينهم شكري.

لكنّ عمل المجموعات السرّيّة لم يكن له وزن كبير بالمقارنة مع ما يحدث في وضح النهار. وإذا كان السادات قد منع تنظيم الإخوان المسلمين من استعادة وجوده القانونيّ، إلّا أنّه سمح في العام 1976 للإخوان بإعادة إصدار مجلّتهم الشهريّة «الدعوة». وكانت تلك المجلّة المدعومة من ممالك البترول تدافع جهارًا عن الأفكار الإسلاميّة. وقد طالب عمر التلمساني، المرشد الأعلى لتنظيم الإخوان المسلمين، ومنذ

[2] جيل كيبيل، *Le Prophète et Pharaon*، المرجع السابق، Gallimard Folio Histoire، 2012، ص. 107.

[3] لقّبتها الشرطة بـ«جماعة التكفير والهجرة».

العدد الأوّل للمجلّة، بتطبيق مبادئ الشريعة الإسلاميّة في المجتمع المصريّ تطبيقًا فعليًا، لأنّ المادّة الثانية من الدستور لم تؤدِّ قطّ، وحتّى ذلك التاريخ، إلى تعديل القوانين.

وجد هؤلاء «الإخوان المسلمون الجدد» سندًا كبيرًا في شخص المقاول الواسع الثراء عثمان أحمد عثمان، أحد أبرز المقرّبين من السادات. وقد كانوا يشاطرونه العداء للشيوعيّة، إلّا أنّ ذلك لم يمنعهم من أن يحملوا وبالقوّة عينها على أوبئة أخرى، كـ«التهويد»، و«الحرب الصليبيّة»، والعلمنة. وكان أتاتورك – الذي جلّه السادات في صباه – أحد ألدّ أعدائهم، كما نسبوا إليه أصولًا يهوديّة.

عند وفاة عبد الناصر، كان الطلّاب الإسلاميّون قلّة قليلة جدًّا في الجامعات، لكنّ أعدادهم أخذت تتزايد شيئًا فشيئًا، بدعم من السلطات. وأتاحت قراراتٌ عدّلت في أنظمة اتّحاد الطلّاب سيطرةَ الجماعة الإسلاميّة على حرم الجامعات. وبات الهدف الأوّل للاتّحاد... «تعميق القيم الدينيّة لدى الطلّاب». نظّمت الجماعة في العام 1976 مسيرة نحو مسقط رأس السادات لمطالبة الرئيس بتطبيق الشريعة الإسلاميّة، كما نشطت بشكل فاعل في الجامعات، مستفيدة من ترف في الوسائل. من الأمثلة على ذلك أنّها وضعت في تصرّف الطالبات اللواتي يتعرّضن للتحرّش الجنسيّ في وسائل النقل العامّ المكتظّة، نظام نقل بالميني باص، لا تستفيد منه إلّا الطالبات المحجّبات. لكنّ الناشطين الإسلاميّين لجأوا أيضًا، وفي سبيل تطبيق شريعتهم، إلى السياط والقضبان الحديديّة. ويروي هيكل فيقول: «ظهر أعضاء هذه الجماعات وفي أيديهم السكاكين. وكان الغريب أنّها سكاكين من نوع موحّد...

ولقد قُبض على بعض من هؤلاء بعد أن أصابوا عددًا من زملائهم بجروح. ثمّ أفرِج عنهم بأوامر[4]».

ليست الجامعات وحدها الأماكن التي انتشرت فيها الأفكار والتصرّفات الأصوليّة. فالمدن والقرى والمصانع والإدارات العامّة شهدت ظهور جمعيّات دينيّة ذات قدرات ماليّة كبيرة، سدّت نقص الدولة في مجالات شتّى واكتسبت أنصارًا كثيرين. وتفلّت دعاة مسموعون جدًّا من سيطرة الأزهر والسلطة، وخصوصًا الشيخ المشهور عبد الحميد كشك، الذي كان في كلّ مكان، كما يشير إليه جيل كيبيل: «كان من المستحيل، في السنوات الأخيرة من عهد السادات، أن يتجوّل المرء في القاهرة من دون سماع صوته الراعد في مكان ما. فإذا ركب سيّارة أجرة عموميّة، يجد سائقها يصغي إلى كاسيت لإحدى عظات كشك. وإذا شرب كوب عصير فاكهة طازج في أحد الدكاكين المفتوحة على الهواء الطلق، يسمع، وهو يتلذّذ بطعم المانجو أو قصب السكّر، الخطبة التي ألقاها الشيخ كشك يوم الجمعة السابق... وإذا عاد إلى منزله، يتصاعد إليه من الشارع صوت يخطب بجمل مسبوكة المقاطع الصوتيّة، بلغة القرآن. إنّه صوت كشك، دائمًا كشك... لقد كان له منافسون، لكنّ أحدًا لم يمتلك حنجرته التي لا تُضاهى، وإلمامه الهائل في الدين الإسلاميّ، وقدرته المدهشة على الارتجال، وفكاهته المفعمة بالشراسة لانتقاد السلطة الكافرة، أو الدكتاتوريّة العسكريّة، أو السلم مع إسرائيل، أو تواطؤ الأزهر[5]».

كان لأحد الشيوخ الآخرين، والذي اتّخذ لنفسه موقعًا مختلفًا قليلًا، تأثير أكبر من تأثير عبد الحميد كشك. إنّه محمّد متولّي الشعراوي. وُلد الشعراوي في عائلة فلّاحين متواضعة في دلتا النيل، وتابع تنشئة قرآنيّة

---

4 محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 153.

5 جيل كيبيل، *Le Prophète et Pharaon*، ص. 214-215.

متينة، وعلّم في الجزائر والمملكة العربيّة السعوديّة قبل أن يصبح المدير العامّ لجامعة الأزهر الإسلاميّة. كان هذا الواعظ الرجعيّ والشعبويّ من أوائل الذين فرضوا أنفسهم على التلفزيون. وعيّنه السادات وزيرًا للأوقاف في تشرين الثاني/نوفمبر 1976، واستمرّ في هذا المنصب حتّى كانون الأوّل/ديسمبر 1978. في تلك الفترة، نجح الشعراوي في إنشاء أوّل بنك إسلاميّ في مصر، وهو بنك فيصل. وفي أثناء انتفاضة الخبز في كانون الثاني/يناير 1977، هاجم بعنف «المحرّضين الشيوعيّين». وفي تشرين الثاني/نوفمبر من العام نفسه، أصدر تصريحًا غامضًا تملّص فيه من إدانة رحلة الرئيس المصريّ إلى القدس. سمح له ولاؤه للسلطة بالدفاع عن أفكاره الأصوليّة في التلفزيون الرسميّ، قبل أن يفرض نفسه على كلّ الشاشات العربيّة، ويصبح «نجم الإسلام الإلكترونيّ[6]»، ويجمع ثروة ضخمة.

كان السادات يقول في مجالسه الخاصّة للّذين يحذّرونه من هؤلاء الحلفاء: «نحن نبالغ في تقدير أهمّيتهم، ولن أتردّد في استخدام القوّة ضدّهم إذا ما لزم الأمر[7]». وفي العلن، يلجأ إلى المزايدة والتشهير بـ«إلحاد» كلّ مَن يعارضون السلطة. فقد صرّح مثلًا في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 1977: «لن أسمح لأيّة فئة بنشر الإلحاد في أوساط شعبنا المؤمن، شعبنا الذي يسري الإيمان في عروقه... لن أسمح لأيّ شخص ملحد بأن يشغل منصبًا يستطيع من خلاله التأثير في الرأي العامّ».

في الجامعات، زادت المعارضة الإسلاميّة راديكاليّةً، وارتبطت بحركة سريّة راحت تنمو في الأحياء الفقيرة من القاهرة والإسكندريّة وأسيوط. وأعلن الطلّاب الأكثر التزامًا انتماءهم إلى منظّمة تدعى

---

6 إيف غونزالس كويهانو، «Cheikh Shaarawi, star de l'islam électronique»، *Réseaux*، الجزء 18، العُدد 99، 2000.

7 بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 242.

«الجهاد»، نظّر لها مهندس كهربائيّ شابّ اسمه عبد السلام فرج، حمل على السلطة «الكافرة»، ودعا إلى الإطاحة بها. فالسادات بالنسبة إليه هو في «ردّة عن الإسلام، تربّى على موائد الإمبرياليّة والصهيونيّة[8]».

قلق الأقباط

سكّان مصر ليسوا مسلمين بكاملهم. والمصريّون المسيحيّون، الذين يمثّلون نحو 10% من السكّان[9]، لا صلة لهم بالحروب الصيليبيّة ولا بالاستعمار. فهم موجودون منذ سحيق الأزمان في وادي النيل، ويعتبرون أنفسهم آخر المؤتمنين على الثقافة الفرعونيّة. ومن جهة أخرى، فإنّ كلمة «قبطيّ»، المشتقّة من «أيجيبتوس» اليونانيّة، كانت مرادفة لكلمة «مصريّ»، قبل أن يحصر العرب في القرن السابع استخدامها للدلالة على السكّان الأصليّين الذين رفضوا اعتناق الإسلام.

في مصر الحديثة، عرف الأقباط عهدهم الذهبيّ بين الحربين العالميتين. فآنذاك، كان المسيحيّون والمسلمون يقاتلون جنبًا إلى جنب في سبيل استقلال مصر، وكانت الأعلام التي يرفعها المتظاهرون تحمل الصليب والهلال. كما ضمّ الحزب القوميّ الأهمّ في مصر، أي الوفد، عددًا من الأقباط بين قادته.

لكنّ انقلاب العام 1952 وضع حدًّا لهذه الحظوة. فقد استُبعد الأقباط عن الوظائف الأساسيّة في الدولة، وتناقصت كثيرًا أعدادهم في الإدارة العامّة، فيما كان كبار أثريائهم ضحايا للتدابير الاشتراكيّة التي فرضها النظام الجديد. ومع ذلك أقام عبد الناصر علاقات جيّدة مع البطريرك كيريلوس السادس، الذي استطاع تدشين كاتدرائيّة مهيبة

---

8 جيل كيبيل، *Djihad. Expansion et déclin de l'islamisme*، المرجع السابق، ص. 82.

9 لا يزال عدد الأقباط موضوع خلاف دائم. فهم لا يزيدون عن 6% من إجماليّ عدد المصريّين، بحسب الأرقام الرسميّة، فيما تقول الكنيسة إنّهم يبلغون 15%، وأكثر.

في القاهرة، في العام 1968، لمناسبة الذكرى المئويّة التاسعة عشرة لاستشهاد القديس مرقس.

مات الرجلان بفارق أشهر قليلة. وحاول خلفاهما، السادات وشنودة الثالث، أن يتّفقا، لكنّ علاقاتهما تدهورت على مرّ السنوات.

وفي تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1972، كانت مدينة الخانكة الصغيرة، الواقعة على مسافة ثلاثين كيلومترًا شمال القاهرة، مسرحًا للمجابهات بين المسلمين والمسيحيّين. فبعد حريق طاول منشآت تُستخدَم ككنيسة، تلاه قدّاس احتجاج أقيم في المكان عينه، ردّ المسلمون بمظاهرة تحوّلت إلى شغب، فنُهب عدد من المنازل والمتاجر التي تخصّ الأقباط. أوقع انفجار الغضب هذا عشرات الضحايا. وبدأ البابا شنودة الثالث إضرابًا عن الطعام دام أسابيع عدّة. زاره السادات في كانون الأوّل/ديسمبر، ودار بينهما الحديث التالي، كما رواه البابا إلى الباحث الأميركيّ كيرك ج. بيتي[10].

السادات: لقد بنيتم كنائس بصورة غير شرعيّة.

شنودة: نعم، لأنّنا لا نستطيع بناءها بطريقة شرعية.

السادات: إلى كم كنيسة تحتاج؟ قل لي، وسأعطيك عشرة كنائس أكثر.

فوجئ بابا الأقباط بردّ السادات، وخشي أن يذكر رقمًا مبالغًا به.

السادات: لماذا أنت صامت؟

شنودة: لا أريد أن أسبّب لك هجمات من جانب المسلمين.

السادات: لا تقلق، فقط قل لي.

---

10 كيرك بيتي، المرجع السابق، ص. 110.

شنودة: حسنًا، في مصر عشرون محافظة، في كلّ منها مدن وقرى... إذا طلبت منك كنيستين في كلّ محافظة، يكون العدد أربعين.

السادات: جيّد جدًّا، يمكنك إذًا بناء خمسين كنيسة في العام.

على أثر هذا الحديث، أوقف البابا إضرابه عن الطعام، وطلب السادات من لجنة برلمانيّة تقريرًا حول مواجهات الخانكة وأسبابها. وفعلًا كُتب التقرير، لكنّ توصياته بقيت حبرًا على ورق.

كان بديهيًّا أن يقلق المسيحيّون أمام العودة المتزايدة إلى أسلمة الدولة. ولاحظ الفيلسوف لويس عوض: «كانت القاهرة تعجّ بدعاة محمومين، يزعقون ليل نهار بمكبّرات الصوت، ويجتاحون الشوارع والمتاجر وسيّارات الأجرة والشقق الخاصّة ويستعرضون قوّتهم السياسيّة عند أيّة مناسبة تتاح[11]». حتّى الدولة نفسها عادت إلى الأسلمة، وليس ذلك في الدستور فقط. ففي أيلول/سبتمبر من العام 1977، نجحت الكنيسة، وبعدما طلبت الكنيسة القبطيّة من أتباعها الإضراب عن الطعام لمدّة خمسة أيّام، في منع التصويت على قانون ينصّ على إنزال عقوبة الإعدام بالمرتدّين عن الإسلام. وكان هذا التدبير يستهدف أساسًا المسيحيّين الذين اعتنقوا الإسلام – ليستطيعوا الزواج بمسلمة أو ليطلّقوا ويتزوّجوا من جديد – ثمّ رغبوا في العودة إلى المسيحيّة.

كان الأقباط يلومون السادات على تساهله مع الأصوليّين المسلمين، واتّهموه بغضّ الطرف عن أعمال العنف التي تستهدفهم، أو حتى باعتباره إياها من الحوادث العاديّة التي لا بُعد دينيًّا لها. وجاء حريق كنيسة العذراء في القاهرة القديمة في آذار/مارس 1979، والذي تلته مواجهات دامية بين المسلمين والأقباط، ليجيّش الكثير من العواطف

---

[11] لويس عوض، «Histoire de la laïcité en Egypte»، *Egypte-Monde arabe*، السلسلة الأولى، العدد 2، 1990.

في مصر، وفي الخارج أيضًا، وخصوصًا في الولايات المتّحدة، حيث رفع مهاجرون أقباط الصوت احتجاجًا.

رفض شنودة الثالث تقبّل التهاني من السلطات لمناسبة عيد الفصح، فردّ السادات على هذه الإهانة بعد أسابيع قليلة بخطاب ناريّ، لام فيه بابا الأقباط على جحوده، وقال: «طلب الإذن ببناء خمس وعشرين كنيسة سنويًّا، فمنحته الإذن ببناء خمسين». وممّا زاد الأمر خطورة أنّه اتّهم رئيس الطائفة المسيحيّة الأكبر عددًا في العالم العربيّ بالتآمر بهدف... تأسيس دولة قبطيّة عاصمتها أسيوط. وأعلن في موقف مسرحيّ أنّه: كان على وشك اتخاذ إجراء عنيف بهذا الشأن لولا أنّ خطابًا وصله من فتاة قبطيّة صغيرة تقول فيه: «يا أبي، إنّني أشعر أنّك غاضب. وأنا أقدّم روحي فداءً لك». وتوقّف الأمر عند هذا الحدّ آنذاك.

27

صديق الشاه

في 16 كانون الثاني/يناير 1979، سافر شاه إيران مع أفراد عائلته إلى مصر بعدما طردته ثورة الخميني من بلده. أتى الرئيس المصريّ لاستقباله في مطار أسوان، فوجد أمامه رجلًا منهك القوى، مصابًا بمرض في النخاع العظميّ. تعانقا، وأطلقت المدافع إحدى وعشرين طلقة تحيّة. شجّع السادات محمّد رضا بهلوي على المقاومة، اقتناعًا منه بأنّ الشاه لم يُمنَ بخسارة نهائية، وبأنّ الجيش الإيرانيّ سيقف إلى جانب ملكه.

كان كلاهما يبلغ من العمر واحدًا وستّين عامًا، وقد تخرّج من كليّة حربيّة في العام 1938، برتبة ملازم ثانٍ. لكنّ أوجه التشابه بينهما تتوقّف عند هذا الحدّ، فابن ميت أبو الكوم وإمبراطور الفرس كانا آنذاك من كوكبين مختلفين. فحين أتى الشاه إلى مصر في العام 1939 ليعقد زواجه – الأوّل – بإحدى شقيقات الملك فاروق[1]، كان السادات ضابطًا شابًّا سار في عرض عسكريّ أقيم لتكريمه. إنتهى ذلك الزواج بالطلاق، بمعزل عن التدهور المتزايد للعلاقات الإيرانيّة المصريّة في عهد عبد الناصر.

---

[1] أنور السادات، *Those I Have Known*، المرجع السابق، ص. 18.

يعود اللقاء الأوّل بين الرجلين إلى العام 1969، في قمّة إسلاميّة في المغرب. حينذاك، دار بين أنور السادات الذي كان رئيسًا للوفد المصريّ، وبين الشاه حديث علنيّ على قدر من السخونة، يرويه على طريقته في أحد كتبه. ذكر مَن سيصبح رئيسًا لمصر أنّ محمّد رضا بهلوي خاطبه بالفرنسيّة، فأجابه بالعربيّة. لكنّ السادات، وحين رأى الغضب يرتسم على وجه العاهل الإيرانيّ، وقدّر أنّ كلامه لم يُترجَم بدقّة، عمد إلى شرح موقفه... باللغة الفارسيّة، فتلا بها قصيدة. ويزعم الرئيس المصريّ أنّ الأمبراطور أعجِب به، وصفّق له[2].

وعلى نحو أكثر جدّيّة، أعيدت العلاقات الدبلوماسيّة بين البلدين، بعد وفاة عبد الناصر. وقدم محمّد رضا بهلوي وزوجته الثالثة فرح ديبا في زيارة إلى وادي النيل. وفي خلال حرب أكتوبر 1973، لم يتردّد الشاه في تزويد مصر بالنفط، ولم ينسَ الرئيس المصريّ قطّ هذه البادرة، التي تناقضت ومماطلة بعض الممالك العربيّة، و«خيانة» القذّافي[3]. وفي حزيران/يونيو 1976، استُقبل السادات وزوجته استقبالًا ملكيًّا في طهران، وانعقدت بين جيهان وفرح ديبا صداقة دامت طويلًا.

بعد عامين ونصف، استقبل الرئيس المصريّ الملك المخلوع والمريض، وكأنّه لا يزال «ملك الملوك»، وأقام على شرفه في مساء اليوم نفسه مأدبة عشاء فخمة في فندق «أوبروا» بأسوان، حيث استُضيفت عائلة الأمبراطور. وتروي فرح ديبا بقيّة ما جرى: «في 22 كانون الثاني/يناير 1979، أي بعد ستّة أيّام فقط من وصولنا إلى مصر، سافرنا إلى المغرب. شعر زوجي بالارتياح للدعوة التي وجّهها إليه الملك الحسن الثاني، فهو لم يرد أن يستغلّ ضيافة الرئيس السادات. لكنّ هذا الأخير جدّد دعوته، بحجّة أنّ مصر أقرب إلى إيران للإعداد للمقاومة التي يفكّر

---

2 المرجع نفسه، ص. 19-20.

3 أنور السادات، *A la recherche d'une identité*، المرجع السابق، ص. 310.

فيها. كان واحدًا من رؤساء الدول القلائل الذي أدركوا في الحال حقيقة الخميني، فاعتبره ومنذ ذلك الوقت دجّالًا[4]».

بدأ الأمبراطور الإيرانيّ وزوجته جولة طويلة ومتعبة قادتهما إلى بلدان عدّة (الباهاما، المكسيك، الولايات المتّحدة، باناما). خضع الشاه للعلاج في أماكن متفرّقة، لكنّ أيّة حكومة لم تكن مستعدّة لاستقباله بصفة دائمة. لقد تخلّت واشنطن عن حليفها، ولا يمكن إلّا أن يحمل ذلك السادات على التفكير. هل سيوصد بدوره الباب في وجه الأمبراطور المخلوع؟

كان رضا بهلوي في باناما، والولايات المتّحدة تحاول تسليمه إلى إيران، من أجل تحرير رهائنها الثمانية والخمسين الذين يحتجزهم «طلّاب إسلاميّون» في السفارة الأميركيّة في طهران. ذلك كان الشرط الذي وضعه آية الله الخميني، سيّد إيران الجديد. أدرك جيمي كارتر أنّ إعادة انتخابه رئيسًا مرهونة بذلك. فحاول عبر الهاتف في 22 آذار/مارس 1980، ثني السادات عن استقبال الأمبراطور المخلوع. وقال للرئيس المصريّ: «يجب ألّا يعود في أيّة حال من الأحوال إلى القاهرة»، ليسمع الردّ التالي: «لا يقلقنّك أمر مصر. إهتمّ بالرهائن. أنا أريد الشاه حالًا، وحيًّا[5]». لقد عقد السادات، الذي بات منبوذًا في العالم العربيّ، العزم على استقبال هذا المنبوذ الآخر. لم تخلُ خطوة السادات من بعض الخيلاء، خصوصًا وأنّها لا يمكن أن تعود عليه إلّا بالمتاعب. فقد بات واضحًا أنّ الشاه خسر نهائيًّا في إيران.

كان السادات مستعدًّا لإرسال طائرته الخاصّة للإتيان به، لكن ذلك سيتطلّب ثمانٍ وأربعين ساعة. فاضطرّت عائلة الأمبراطور إلى الهرب على متن طائرة صغيرة لتنجو من وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة.

---

4 فرح بهلوي، *Mémoires*، XO Editions، 2003، ص. 300.

5 هوشانغ نهوندي وإيف بوماتي، المرجع السابق، ص. 547.

بعد رحيل كان أقرب إلى الخيال، عادتِ عائلة بهلوي إلى مصر في 27 آذار/مارس 1980. كان السادات ينتظرهم عند أسفل سلّم الطائرة، مجازفًا بالإمعان في إغاظة صديقه كارتر، وإثارة حنق الإسلاميّين المصريّين الذين بات الخميني بالنسبة إليهم مثالًا وقدوة، برغم كونه شيعيًّا. لم يكن للرئيس الوقت حتّى لإنزال ضيوفه في قصر القبّة، في القاهرة. فقد انطلقت المروحيّة الرئاسيّة توًّا إلى مستشفى المعادي، حيث استُدعي البروفسور دبغي الشهير، محاطًا بفريق طبّي شامل. أخضع الجرّاح المريض لعمليّة، واستأصل طحاله، إلّا أنّه وجد أنّ كبده مصاب أيضًا.

لم يقدّم علاج كيميائيّ آخر إلى «ملك الملوك» سوى مهلة إضافية قصيرة. فقد اختلف فريقان طبّيان، الأوّل أميركيّ، والثاني فرنسي-مصريّ، في الرأي حول الرعاية الطبيّة الواجب تقديمها، وحسمت فرح ديبا والسادات أمرهما في اختيار الرأي الثاني، فأخضِع الشاه لجراحة ثانية لم تتكلّل بالنجاح، ووافته المنيّة في 27 أيلول/سبتمبر التالي.

نظّم السادات له جنازة رسميّة، أشرف بنفسه على أدقّ تفاصيلها. وسار، مرتديًا أبهى أزيائه العسكريّة على رأس الجنازة، التي اجتازت عدّة شوارع في القاهرة ودامت ساعة ونصف الساعة. أراد أن يكون التكريم الشعبيّ للشاه صفعة للإمام الخميني. وتتذكّر جيهان فتقول: «تقدّم الموكب الجنائزيّ آلاف الطلّاب من أكاديميّتنا العسكريّة، وكانوا جميعًا يرتدون زيًّا أبيض وأصفر وأسود تبعًا لرتبتهم، وفي أعقابهم سار جنود يحملون أكاليل الزهور، وبعدهم سار جنود يمتطون ظهور جيادهم، ثمّ جاء بعدهم فريق من الأشخاص يحملون نياشين الشاه العسكريّة على وسائد سوداء مخمليّة، ويسيرون أمام النعش الذي تمّ تغطيته بالعلم الإيرانيّ، وكانت تجرّه ثمانية خيول عربيّة على عربة عسكريّة، وجئنا نحن في الخلف. وكان يومًا شديد الحرارة من أيّام الصيف في القاهرة، بينما

كنّا نسير مسافة ثلاثة أميال من قصر عابدين إلى مسجد الرفاعي حيث تمّ دفن الشاه... لم تكن هناك جنازة رسميّة أكثر هيبة من جنازته[6]».

في مواجهة الإسلاميّين

إذا راحت الحشود الصارخة في طهران تحتقر السادات، وصوّرته اللافتات معلّقًا بحبل المشنقة، فإنّ الصداقة التي أظهرها السادات للشاه لم تؤدّ إلّا إلى مفاقمة علاقاته بالإسلاميّين في داخل مصر. فمنذ رحلته إلى القدس، أخذت الهوّة بين الطرفين تتّسع، لتزيد في اتّساعها معاهدة السلام المصريّة الإسرائيليّة، والتسهيلات التي مُنحت للجيش الأميركيّ على الأراضي المصريّة، والإصلاحات الاجتماعيّة التي دعت إليها جيهان.

وجاءت نتائج الانتخابات الجامعيّة في خريف 1978، غداة اتّفاقيّة كامب دايفيد، لتثير قلقًا شديدًا. ففي الإسكندريّة فاز مرشّحو الجماعة الإسلاميّة بـ43 مقعدًا من 60 في كلية الصيدلة، و47 مقعدًا من 48 في كلّية الحقوق، وبكلّ المقاعد في كلّيتَي الطبّ والهندسة. بعد ذلك، بات الرابحون أصحاب الحلّ والربط في الجامعات. فأمروا بأن تبدأ الدراسة كلّ يوم بالصلاة، وفصلوا بين النساء والرجال في قاعات التدريس، وحذفوا نظريّة النشوء والارتقاء لداروين، ومنعوا الموسيقى والمسرح في الجامعة... وتجاوز نشاطهم حدود الجامعات، فاحتلّوا بعض المساجد الكبرى في القاهرة، ونظّموا فيها صلوات على طريقتهم في الأعياد الإسلاميّة.

في 15 نيسان/أبريل 1979، وفي خطاب ألقاه في أسيوط، هاجم السادات مَن يمارسون السياسة تحت ستار الدين. فاتّهم الجماعة الإسلاميّة بأنّها تتلقّى التمويل من الخارج، ونعت بالكاذب عمر

---

6 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 482-483.

التلمساني، المرشد الأعلى للإخوان المسلمين، الذي رفض حتّى مبدأ مفاوضات السلام مع إسرائيل. جمعت علاقات جيّدة بين قادة ذينك التنظيمين، وكانوا يخطبون معًا في تجمّعات الصلاة الكبرى التي تجتذب مئات الآلاف.

كان السادات يردّد: «لا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين». وفي حزيران/يونيو التالي حظر اتّحاد الطلّاب وجمّد ممتلكاته. لكنّ الإسلاميّين ما عادوا بحاجة حتّى إلى ذلك الاتّحاد لإثبات سيطرتهم. ففي 24 آذار/مارس 1980، احتجزوا عميد كلّية العلوم في الإسكندريّة لساعات عدّة لفرض قوانينهم. وهاجمت كتابات الغرافيتي على الجدران الرئيس المصريّ، حيث ذكرت إحداها، مقتبسةً ومحرّفةً قول النبيّ محمّد: «العلم نور، والجهل أنور».

دار الصراع بين السادات والإسلاميّين في الوقت الذي كان هو شخصيًّا يزداد تديّنًا، ولم يكن ذلك للاستعراض فقط. فزوجته تحدّثت عن «تقوى بلغت حدود التصوّف[7]». كان يحمل ساعة يد تدلّه دائمًا إلى اتّجاه القبلة. كما ذهب إلى أبعد ممّا تنصّ عليه فرائض الدين، فدأب على الصيام مرّتين أسبوعيًّا، يومَي الاثنين والخميس. وبعد التدليك الصباحيّ، كان يمضي ساعة في التأمّل، ثمّ يجلس أرضًا على وسائد، ويقرأ صفحات من القرآن وهو يسجّل صوته. قال: «أريد أن أترك لأولادي وأحفادي قرآنًا قرأته بنفسي، ليكون بمثابة سند معنويّ. أريده أن يكون تقريبًا كتابًا ناطقًا[8]...».

عبّر السادات أمام عدد من محاوريه، ومن بينهم كارتر، عن أمنيته أن يجعل من جبل سيناء مكانًا مقدّسًا، تستطيع الديانات الكبرى السماويّة الثلاث أن تلتقي فيه. وأعلن من جديد نيّته في أن يبني في

7 المرجع نفسه، ص. 25.
8 مارك ويلم بليس وكونراد ر. مولر، المرجع السابق، ص. 11.

الوادي كنيسة وكنيسًا ومسجدًا، وأكّد رغبته في أن يُدفَن هناك. قدّم إليه ثلاثة مهندسين معماريّين – وهم مصريّ وإسرائيليّ وفرنسيّ – مشروع هذا «المجمّع الذي يضمّ الديانات الثلاث» (والذي لم يبصر النور قطّ). وأكّد أمام محاور أميركيّ: «إنتهيت من قراءة الأناجيل الأربعة. وبنتيجة دراساتي، سأثبت للعالم أنّ الإسلام والمسيحيّة متطابقان. وسأدع لعلماء الدين تحديد تفاصيل ذلك[9]».

لا جدوى من القول إنّ نزعة توحيديّة مسكونيّة من هذا النوع لم تكن سوى لتثير نفور الإسلاميّين أكثر بعد. فـ«الرئيس المؤمن» لم يعد بالنسبة إليهم سوى مرتدّ.

---

9 إدوارد شيهان، *The Arabs, Israelis, and Kissinger. A Secret History of American Diplomacy*، نيويورك، Reader's Digest Books، 1976.

28

من سيّئ إلى أسوأ

بوسع أنور السادات أن يتباهى في العلن كما في السرّ – وهو ما لم يقصّر في فعله – بأنّه ومنذ وصوله إلى سدّة الرئاسة يحقّق في كلّ عام أمرًا دراماتيكيًّا مدهشًا. ففي 1971 قام بثورة في القصر سمحت له بشلّ حركة أخصامه. وفي 1972 طرد المستشارين العسكريّين السوفيات. وفي 1973 شنّ حرب أكتوبر. وفي 1974 اتّجه نحو الانفتاح الاقتصاديّ. وفي 1975 أعاد فتح قناة السويس. وفي 1976 أدخل إلى مصر تعدّد الأحزاب. وفي 1977 سافر إلى القدس. وفي 1978 وقّع اتّفاقية كامب دايفيد. وفي 1979 وقّع معاهدة السلام مع إسرائيل. لكن ما الذي يمكن قوله عن السنتين التاليتين؟

بدأ العام 1980 بقمّة إسرائيليّة مصريّة. استقبل السادات في أسوان مناحيم بيغين من 7 إلى 10 كانون الثاني/يناير، ودرسا مسألة تبادل السفراء وسلسلة من التدابير الهادفة إلى تسهيل الاتّصالات بين البلدين. لكنّ أيّ تقارب لم يتحقّق في ما خصّ موقف كلّ منهما حول القدس والحكم الذاتيّ للفلسطينيّين. لم يكن أيّ من الرجلين يكنّ للآخر أيّ شعور بالمودّة، لكنّهما تعلّما أن يتبادلا التقدير، وبقي الاختلاف

بينهما كبيرًا جدًّا. حين عرض السادات على بيغين أن ينادي كلّ منهما الآخر باسمه الأوّل، أجابه الإسرائيليّ: «أنت رئيس للجمهوريّة، أمّا أنا فلست سوى رئيس وزراء. نادِني مناحيم، وأنا سأناديك سيادة الرئيس[1]».

في تل أبيب، استُقبل سعد مرتضى، الدبلوماسيّ الذي اختاره السادات لتمثيله في إسرائيل، بالزهور. لكنّ ذلك لم يكن ما ينتظر إلياهو بن إليسار، والذي لمّا يزل حتّى ذلك الحين مديرًا لمكتب بيغين. وصل السفير الإسرائيليّ إلى القاهرة في 18 شباط/فبراير. وبرغم الأحداث التي افتعلها الإسلاميّون، قدّم بعد أسبوع أوراق اعتماده. وللمرّة الأولى رفرف علم إسرائيليّ في أكبر عاصمة عربيّة. في نظر السادات، كان بن إليسار يملك حسنة كونه رجل ثقة بالنسبة إلى بيغين، إلّا أنّه اضطرّ إلى مواجهة مشكلات لا تُحصى ولا تُعدّ. فقد عجزت أجهزة السفارة الإسرائيليّة عن وضع إعلانات في الصحف المحليّة. كما لم تُسنَح له الفرصة لإعطاء مقابلات صحفيّة، بينما كانت جرائد المعارضة تهاجمه بعنف ملقّبةً إيّاه بـ«هرتزل» لأنّ لحيته تشبه لحية تيودور هرتزل، مؤسّس الصهيونيّة[2].

كما قاطع المجتمع المصريّ الراقي السفير الإسرائيليّ، الذي لاحظ أنّه «في مصر، فُرض السلام من الأعلى[3]». فكثيرون من أهل الفكر المصريّين لم يوافقوا على مبادرات السادات. وفضلًا عن ذلك، خشي محامون ومثقّفون وفنّانون مصريّون، يعتمدون على بلدان عربيّة أخرى في تأمين القدر الأكبر من مداخيلهم، أن يعاقَبوا على أفعال السادات. وللسبب نفسه لم يجرؤ سوى عدد ضئيل فقط من أصحاب المشاريع على عقد علاقات صناعيّة أو تجاريّة مع أعداء الأمس.

---

1 إلياهو بن إليسار، المرجع السابق، ص. 238.

2 إفراييم دويك، *Vingt ans de relations égypto-israéliennes*، L'Harmattan، 2005، ص. 61.

3 إلياهو بن إليسار، المرجع السابق، ص. 380.

من جملة الأحداث التي ترسم صورة واضحة لهذا الجوّ، أنّ جريدة «الأخبار» المصريّة الحكوميّة شبّهت بيغين بهتلر. شعر رئيس الوزراء الإسرائيليّ بالإهانة، وبعث إلى السادات برسالة احتجاج سلّمه إيّاها السفير الإسرائيليّ باليد. قال الرئيس المصريّ للسفير: «مناحيم على حقّ. لم أقرأ المقال، ولم أكن على علم بنشره». وانتهت القضيّة عند هذا الحد، إلّا أنّ جريدة أخرى، وهي «الجمهوريّة» المقرّبة من السلطة، ذكرت الرسالة بعد أسابيع قليلة طالبةً الغفران... من هتلر، بسبب تشبيهه ببيغين[4].

بعد توقيع معاهدة السلام، لم يكن بوسع السادات التملّص من إقامة العلاقات الدبلوماسيّة. بدا له وجود سفارة إسرائيليّة في القاهرة شرًّا لا بدّ منه. ويشير إفراييم دويك الذي كان في العام 1980[5] الرجل الثاني في تلك السفارة إلى أنّ السادات «اتّخذ منذ اللحظة الأولى إجراءات إداريّة وبوليسيّة للسيطرة على تلك السفارة وتقييدها عند الحدّ الأدنى الأساسيّ». إلّا أنّ «السادات لم يكن شديد التمسّك بسياسته، وأظهر شيئًا من المرونة في تنفيذها. كما قام أكثر من مرّة، وبناء على طلب السفارة أو شخصيّات إسرائيليّة زائرة، بالتدخّل شخصيًّا لإزالة العراقيل وتخفيف التوتّر».

هل كان السادات يحاول تحويل الانتباه عن نجمة داوود تلك، التي لا تزال تسبّب صدمة كبيرة لمعظم مواطنيه؟ هل كان يحاول أن يعطي الإسلاميّين ضمانات، أو أن يظهر أكثر تعلّقًا بالإسلام منهم؟ في 22 أيّار/ مايو 1980، وبعد أسبوع على تشكيل حكومة جديدة، تولّى رئاستها بنفسه، أمر بإجراء استفتاء شعبيّ على إصلاح دستوريّ يعزّز المادّة الثانية من الدستور. فالنصّ الذي أُقِرّ في العام 1971 كان يقول إنّ «الإسلام دين

---

4 المرجع نفسه، ص. 321.

5 إفراييم دويك، المرجع السابق، ص. 317.

الدولة، واللغة العربيّة هي لغتها الرسميّة، ومبادئ الشريعة الإسلاميّة هي مصدر رئيسيّ للتشريع». بعد التعديل، باتت مبادئ الشريعة الإسلاميّة هي «المصدر الرئيسيّ للتشريع». كان ذلك تضليلًا قانونيًا، لا يتماشى مع قواعد دولة القانون، واعتداءً معلنًا على المساواة بين المواطنين، الذين ليسوا كلّهم من المسلمين. لكنّ الدستور نال موافقة 99% من الأصوات، كما هو مطلوب (بمشاركة... 5% من المواطنين، بحسب اعتراف مسؤول في الحزب الحاكم)[6]. وردًّا على المعترضين، قال السادات: «أنا الرئيس المسلم لدولة مسلمة. وأحكم كمسلم دولة مسلمة يعيش فيها المسيحيّون والمسلمون جنبًا إلى جنب[7]». لكنّه عمل على تأخير تطبيق المادّة الثانية كما يطالب به الإسلاميّون، بذريعة أنّ ذلك يتطلّب عملًا طويلًا لمراجعة القوانين وتعديلها.

زادت التعديلات الدستوريّة الأخرى من القطيعة مع الناصريّة. فالنظام الذي لا يزال «اشتراكيًا»، أصبح هدفه التخفيف من الفروق بين المداخيل، ولم يعد إزالة الفروق بين الطبقات. أقِرّت التعدّدية الحزبيّة، لكنّ التجديد لولاية رئيس الجمهوريّة لم يعد مقتصرًا على مرّة واحدة فقط، كما في دستور العام 1971، ما يعني أنّه أصبح بالإمكان إعادة انتخاب رئيس لعدد غير محدّد من المرّات.

قانون العيب

سعيًا إلى تملّق الأصوليّين وكمّ أفواه المعارضين في الوقت عينه، عمل السادات على أن يقرّ مجلس الشعب في 15 أيّار/مايو 1980 قانون «حماية القيم من العيب». لم يأتِ هذا القانون على حين غرّة، فالرئيس كان قد

6 مقتبس عن بيار ميريل (مع أنه لا يوضح اسمه)، المرجع السابق، ص. 192.
7 خطاب 14 أيّار/مايو 1980.

بدأ منذ عام يتناول الموضوع في عدد كبير من خطاباته. وكان يكرّر أنّ «العائلة المصريّة» متعلّقة بقيمها، وتعرف كيف تحترم «الحدود»، أي أنّها تعرف العيب. وأنّ «أبناء الشعب» متعلّقون بقيم مصر، أي «معنى الخطأ والإيمان والتشدّد». وقال: «محال أن نجد في الريف مَن يهينون بلدهم وحكومته».

وُصف قانون 15 أيّار/مايو 1980 بـ«قانون العيب»، (ووصفه معارضوه بـ«القانون المعيب»). وكانت مادّته الثالثة، والتي تليق بأكثر الدكتاتوريّات عبثية، تقضي بإنزال العقوبة بمَن يُقدم على الأفعال التالية:

1. الدعوة إلى ما ينطوي على إنكار للشرائع السماوية أو ما يتنافى مع أحكامها.

2. التحريض على كراهية أو احتقار النظام السياسيّ، والاجتماعيّ، والاقتصاديّ للدولة، والدعوة إلى سيطرة طبقة سياسيّة على طبقات أخرى، أو إلى إزالة طبقة اجتماعيّة.

3. تحريض النشء والشباب على الانحراف عن طريق الدعوة إلى التحلّل من القيم الدينيّة أو من الولاء للوطن، أو بإعطاء المثل السيّئ في الأماكن العامّة.

4. نشر أو إذاعة أخبار أو بيانات أو إشاعات كاذبة أو مغرضة أو دعايات مثيرة، تؤدّي إلى استثارة الرأي العامّ، أو ذرّ بذور الشقاق بما يهدّد الوحدة الوطنية أو السلام الاجتماعيّ.

5. نشر أو إذاعة عبارات بذيئة أو شتائم تصدم الرأي العامّ، أو تمسّ بكرامة الدولة ومؤسّساتها الدستوريّة.

6. إنشاء تنظيم حزبيّ غير مشروع، أو الدعوة إلى إنشاء، أو الانتساب إلى، أو الاستتار خلف، تنظيم حزبيّ، أيًّا كانت طبيعته، إذا كان الهدف منه تهديد الوحدة الوطنيّة أو السلام الاجتماعيّ.

7. القيام، خارج البلد، بنشر أو إذاعة أخبار أو بيانات أو إشاعات كاذبة أو مغرضة أو دعايات مثيرة، أو مسيئة إلى سمعة النظام السياسيّ للدولة، وإلى وضعها الاقتصادي، من شأنها الإضرار بعلاقاتها مع الدول الأخرى.

ومن بين العقوبات المنصوص عليها الحرمان من الحقوق المدنيّة، وفرض الحراسة على الممتلكات والأموال. وكُلّف «المدّعي العام الاشتراكيّ» الذي يعيّنه الرئيس تطبيق هذا القانون. فباتت له «سلطة غير محدودة ليس فقط على تصرّفات المواطنين، ولكن أيضًا على ما يدور في عقولهم أو تختلج به ضمائرهم»، كما لاحظ هيكل[8]. وكان أوّل مَن تعرّضوا للملاحقة هم المحامون الذين عبّروا عن معارضتهم لمعاهدة السلام المصريّة الإسرائيليّة في خلال مؤتمر دوليّ عُقد في المغرب.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ رفع حالة الطوارئ، المفروضة منذ حرب الأيّام الستّة، والذي تمّ في 15 أيّار/مايو 1980، كان نسبيًّا جدًّا. حين قدّم السادات تلك الخطوة على أنّها أكبر إنجاز سنويّ له عامذاك، ودليلًا قاطعًا على إقامة الديمقراطيّة، لم ينجح في خداع أحد، إذ لم يلبث مجلس الشعب أن حلّ نقابة المحامين، في حين كُلّف مجلس الشورى، الذي بدأ العمل في أيلول/سبتمبر، بمعاقبة الصحفيّين على «جرائمهم».

---

[8] محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص. 128-129.

راكعًا بالقرب من شارون

لعلّ القسم الأوّل من اتّفاقيّة كامب دايفيد والمتعلّق بالسلام بين مصر وإسرائيل، بدأ يسلك طريقه تدريجيًّا، لكنّ تلك لم تكن حال القسم الثاني، أي مستقبل الفلسطينيّين. كما رفض الأردن أيّ صلة له بتلك الاتّفاقيّة ما دامت الدولة اليهوديّة ترفض التفاوض مع منظّمة التحرير الفلسطينيّة.

ما زاد في غيظ السادات هو، تحديدًا، أنّ الإسرائيليّين واصلوا سياسة الاستيطان في الأراضي المحتلّة في العام 1967، أي الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة والجولان، وتعنّتوا في سعيهم إلى جعل القدس عاصمة لهم. وأثار سخطه الشديد الإعلان عن نقل عدّة إدارات حكوميّة، ومن بينها مقرّ رئاسة الوزراء، إلى القسم الشرقيّ من القدس. وفي 30 تمّوز/يوليو 1980، أقرّ الكنيست قانونًا اعتُبِرَت القدس بموجبه «العاصمة الأبديّة» للدولة اليهوديّة. أعادت هذه الخطوة إشعال فتيل الغضب في الشارع العربيّ. وجد السادات نفسه مضطرًّا إلى الردّ، فعلّق إلى أجل غير مسمّى المحادثات حول الحكم الذاتي للفلسطينيّين. وفي 13 آب/أغسطس، بعث برسالة إلى بيغين يستنكر فيها «تلك الإهانة الموجّهة إلى 800 مليون مسلم»، لهم في القدس ما لـ«18 مليون يهوديّ» من حقوق. كما رأى في القانون الإسرائيليّ ضربة توجّه إلى «علاقة الثقة بينهما»: ألم يتحادثا حول تلك المسألة، الشديدة الحساسية بالنسبة إلى العرب، في لقاءاتهما الثلاثة الأخيرة، في الإسكندريّة وحيفا وأسوان؟

بعد أسبوع، بعث السادات برسالة جديدة إلى بيغين، قال له فيها ما مفاده: «ذهبتُ للصلاة والتأمّل في جبل سيناء، وهناك أدركتُ الطابع المقدّس لمبادرة السلام التي قمت بها، وما تحمله من وحي إلهيّ». ثمّ كرّر تحذيراته بشأن مسألتَي القدس والاستيطان في الأراضي المحتلّة العام 1967. وأعلن استعداده لإيصال مياه النيل إلى النقب إذا انسحب

المستوطنون الإسرائيليّون من الضفّة الغربيّة. وردًّا على شكاوى بيغين من الهجوم العنيف الذي تشنّه عليه الجرائد المصريّة، قال له السادات إنّه أقام نظامًا ديمقراطيًّا حيث يستطيع الجميع التعبير عن رأيه.

في مقابلة أجرتها معه صحيفة معاريف الإسرائيليّة، طلب الرئيس المصريّ شهادة الرأي العام الإسرائيليّ[9]. وقال إنّه ذهب إلى أبعد ممّا تتطلّبه منه معاهدة السلام. «كلّما خطت إسرائيل خطوة، كنت أخطو عشر خطوات». ولاحظ أنّ مبادراته قد أسيء تفسيرها، وإلّا، كيف وصل الأمر بالبعض إلى الشكّ بأنّه يهدف لإضعاف بيغين بدعوة رئيس الدولة الإسرائيليّة، إسحاق نافون، لزيارة مصر؟

وفي الواقع، قام نافون بزيارة رسميّة إلى مصر في تشرين الأوّل/أكتوبر 1980، رافقه فيها مئة شخص. وكان في استقباله عند سلّم الطائرة السادات وقرينته، إضافة إلى أعضاء الحكومة المصريّة بكاملهم. بعد عزف النشيدين الوطنيّين وإلقاء كلمتين قصيرتين، اتّجه الموكب نحو قصر عابدين، المقرّ الملكيّ السابق، الذي خُصّص لإقامة الرئيس الإسرائيليّ. وفي خلال تلك الزيارة، التقى نافون، الذي يجيد العربيّة، برئيس مجلس الشعب ورئيس مجلس الشورى المصريّين، وبقادة الحزب الحاكم، وبرؤساء تحرير الجرائد المصريّة، إضافة إلى أعضاء اتّحاد الكتّاب. كما سافر بالمروحيّة إلى قرية الرئيس المصريّ، التي سبق لها أن تشرّفت باستقبال جيمي كارتر.

قال السادات مطمئنًا معاونيه: «يجب أن تتعلّموا الانتظار. حين يُعاد انتخاب كارتر، سيكون حرّ اليدين، ويستطيع انتزاع تنازلات من الإسرائيليّين ويحلّ كلّ مشاكلنا[10]». إلّا أنّ كارتر خسر وللأسف الانتخابات أمام رونالد ريغان في 4 تشرين الثاني/أكتوبر 1980. إستاء السادات

---

9 بتاريخ 20 آب/أغسطس 1980.

10 بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 413.

لذلك، وتحدّث بانفعال في مجالسه الخاصّة عن الشاغل الجديد للبيت الأبيض، فقال: «هذا هو الرئيس الأميركيّ الرابع الذي سيكون عليّ تعليمه![11]».

في كانون الثاني/يناير 1981، تلقّى أرييل شارون وزير الزراعة الإسرائيليّ، رسالة على قدر من الغموض من نظيره المصريّ محمود داوود، ذكر له فيها أنّه يريد أن يختبر بصورة عاجلة نموذجًا جديدًا للريّ في مصر، بهدف غرس كرمة... في عشرة أيّام، «في مكان مهمّ جدًّا». ما لبث أرييل شارون أن فهم أنّ ذلك المكان هو مسقط رأس أنور السادات.

وفي الحال، انطلقت شاحنتان إسرائيليّتان كبيرتان محمّلتان بكلّ المعدّات اللازمة، باتّجاه الحدود. وفي العريش، نُقلت حمولتهما إلى عربات مصريّة. وبدأ الفنّيون الذين اختارهم شارون بالعمل حالما وصلوا إلى ميت أبو الكوم. وفي اليوم العاشر، كانت الكرمة قد غُرست وشبكة الريّ تعمل بشكل ممتاز[12].

في شهر نيسان/أبريل، دعا السادات رؤساء تحرير الجرائد المصريّة، وقادهم في جولة على بساتينه المزروعة برتقالًا، وعلى شبكة الريّ التي أقامها، وكرمته المغروسة حديثًا، وقال لهم: «كلّ هذا تحقّق في عشرة أيّام. إنّها لمحة عمّا يستطيع الإسرائيليّون القيام به».

في الشهر التالي، استُقبل شارون في ميت أبو الكوم. وقال السادات للفنّيين المصريّين الحاضرين: «لدينا أراضٍ، ولدينا ماء، والآن لدينا أريك[13]». ثم طلب أن يحضروا له خريطة لمصر بسطها أرضًا، ثمّ قال

---

11 زافائيل إسرائيلي، *The Public Diary of President Sadat*، Leiden، Brill، 1978-1979، ص. 259.

12 أرييل شارون، *Mémoires*، Stock، 1990، ص. 447-452.

13 إسم التصغير لـ«أرييل».

لشارون الذي ركع بقربه: «هذه هي المناطق الصحراويّة حيث نودّ إقامة زراعة حديثة».

مَن كان ليتخيّل قبل سنوات قليلة مشهدًا كهذا؟ رئيس أكبر دولة عربيّة بالقرب من أحد أكثر الرجال الذين يخشاهم العالم العربيّ أو يكرههم؟ كان «بطل العبور» راكعًا بالقرب من الرجل الذي حاصر الجيش المصريّ الثالث، وكاد يحوّل نصف الانتصار في تشرين الأوّل/أكتوبر 1973 إلى هزيمة ساحقة...

في اليوم التالي، حلّقت طائرة أنطونوف للجيش المصريّ، يقودها طيّاران شاركا في حرب 1973، وعلى متنها أرييل شارون وزوجته ليلي، فوق المناطق التي أشار إليها السادات. وأبصرت النور مزرعتان تجريبيّتان، تستخدمان نظام الريّ بالتنقيط الذي أظهر فعاليّته في النقب. لكنّ التعاون بين البلدين لم يذهب إلى أبعد من ذلك قطّ. فالبطء الشديد للبيروقراطيّة المصريّة، والكوابح التي وضعها هنا وهناك أخصام التطبيع، جعلت خطوات الرئيس المصريّ لا تعدو كونها كلامًا بكلام.

الإهانة تلو الأخرى

إلتقى السادات مناحيم بيغين في 4 حزيران/يونيو 1981 في شرم الشيخ، التي كانت لا تزال تحت السيطرة الإسرائيليّة. وكان قد تلقّى نصيحة بالعدول عن تلك القمّة، عشيّة الانتخابات التشريعيّة في إسرائيل التي يُتوقّع فيها خسارة زعيم الليكود، لكنّه لم يرد أن يقوم بما قد يعرقل استرجاع سيناء.

جرت قمّة شرم الشيخ بشكل جيّد. إلّا أنّ خبرًا احتلّ عناوين الجرائد في العالم كلّه بعد ثلاثة أيّام. فقد دمّرت الطائرات الحربيّة الإسرائيليّة مفاعل تمّوز النوويّ العراقيّ. وصرّح بيغين مبرّرًا ذلك: «لن تسمح

إسرائيل، ومهما كان الثمن، لأيّ عدوّ بتطوير أسلحة دمار شامل، يستطيع استعمالها ضدّ شعبنا». كان السادات يومذاك في مقرّه بالإسكندريّة. وبعدما علم بالخبر، طلب الاتّصال بالسفير الإسرائيليّ في القاهرة، موشي ساسون، وراح يزعق به عبر الهاتف. وتؤكّد زوجته أنّها لم تشاهده في مثل تلك الحالة من الغضب قطّ[14]. بقي السادات أيّامًا يرفض استقبال الدبلوماسيّ الإسرائيليّ، قبل أن يمنحه في النهاية موعدًا لمقابلة استنكر فيها، رافعًا صوته مجدّدًا، «خداع بيغين[15]». الواقع أنّ تلك الضربة شكّلت إحراجًا شديدًا للرئيس المصريّ. فهو مضطرّ إلى إدانة تدمير المفاعل العراقيّ، ولو أنّ تلك الأمثولة التي تلقّاها صدّام حسين تبعث فيه بعض الرضا. كذلك، كان مضطرًّا خصوصًا إلى إعلان عدم معرفته المسبقة بتلك العمليّة. شُجّعت الجرائد المصريّة على صبّ غضبها على إسرائيل لإظهار أنّ السادات لا شأن له بتلك القضيّة أبدًا.

لكنّ تلك لم تكن الإهانة الأخيرة التي يتلقّاها «بطل الحرب والسلام». ففي 17 تمّوز/يوليو التالي، أي في اليوم نفسه الذي جرى خلاله في لندن توقيع اتّفاقيّة نشر القوّة الدوليّة في سيناء، قام الطيران الإسرائيليّ بقصف بيروت. كانت تلك صفعة جديدة، إلّا أنّ السادات لم يرد قطّ أن يقوم بما قد يؤخّر إعادة الثلث الأخير من سيناء في نيسان/أبريل من العام 1982. وقد أدرك المصريّون ذلك، وقال الظرفاء: «دعونا لا نتنفّس بصوت مسموع، فذلك قد يزعج جارنا الإسرائيليّ».

من جهة أخرى، أعلن السادات أنّه سيتخلّى في ذلك التاريخ عن رئاسة الجمهوريّة، بعدما يُتمّ مهمّته، بحسب تقديره. كان من الطبيعيّ أنّ إعلانه هذا، والذي قام به أمام اللجنة المركزيّة لحزبه، أثار الاعتراضات، فوقف المندوبون وهم يهتفون «للأبد! للأبد!».

---

[14] كيرك بيتي، المرجع السابق، ص. 266.

[15] إفراييم دويك، المرجع السابق، ص. 180.

وفي إحدى المقالات التي دأب منذ آذار/مارس 1981 على كتابتها دوريًّا في مجلّة مايو الحكوميّة، قال: «لا السياسيّ ولا الممثّل يجب أن يبقيا على خشبة المسرح لفترة طويلة جدًّا. بل عليهما أن يستعدّا للانسحاب في الوقت المناسب. أودّ أن يقبل شعبي ويتفهّم القرار الذي سأتّخذه في العام المقبل[16]». وأكّد لزوجته: «بمجرّد استردادنا لكلّ سيناء فسوف أسلّم الحكم لمبارك[17]».

في بداية آب/أغسطس، وبعدما انعزل ثمانية وأربعين ساعة للصلاة والتأمّل في جبل سيناء، سافر إلى واشنطن للقاء الرئيس الجديد للولايات المتّحدة. كان ريغان أقلّ اهتمامًا من كارتر بعمليّة السلام في الشرق الأوسط. لكنّه كان يشاطر محاوره العداء للسوفيات. ويقول بطرس غالي في مذكّراته: «بدا السادات وكأنّ هاجس الشيوعيّة يستبدّ به أكثر فأكثر. فأقدم وبدون سابق إنذار على إغلاق القنصليّات المصريّة في الاتّحاد السوفياتيّ والدول الشرقيّة[18]».

وفي خلال ذلك اللقاء الذي جرى يوم 5 آب/أغسطس في المكتب البيضويّ، روى الرئيس المصريّ لمضيفه أمرًا طريفًا: ففي ذلك المساء المشهود من تمّوز/يوليو 1952، وفيما الضبّاط الأحرار يستولون على السلطة في القاهرة، وهو في السينما مع زوجته، كان يشاهد فيلمًا يمثّل فيه... رونالد ريغان. وجد الرئيس الأميركيّ هذه الحكاية مسلّية، وأشار إليها بفكاهة عند شرب الأنخاب في العشاء الرسميّ الذي أقيم في البيت الأبيض، فقال: «لم أفز بجائزة أوسكار قطّ، لكنّ الثورة كانت تستحقّ ذلك».

---

16 أنور السادات، *Those I Have Known*، المرجع السابق، ص. 129.

17 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 478.

18 بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 423.

لم يبخل ريغان على السادات بالثناء، وقال: «يتساءل المؤرّخون غالبًا عمّا إذا كان الأشخاص هم مَن يصنعون الأحداث، أو إذا كانت الأحداث هي مَن تصنع الأشخاص. ما من شكّ في أنّ الرجل الذي نكرّمه هذا المساء قد صنع التاريخ». وتعهّد الرئيس الأميركيّ بدعم عمليّة السلام التي شرع بها سلفه، لكنّه لم يكن جاهزًا قطّ لإجراء محادثات مع منظّمة التحرير الفلسطينيّة.

توفّرت للسادات كلّ الأسباب ليأسف على رحيل صديقه كارتر، وزاره برفقة زوجته في بلينز، بولاية جورجيا. لم يتردّد الرئيس الأميركيّ السابق في أن يبدي أسفه في هذه المناسبة على أنّ التزام الولايات المتّحدة بالبحث عن السلام في الشرق الأوسط قد أصابه الوهن.

تعكّرت زيارة السادات إلى الولايات المتّحدة جزئيًّا بسبب مظاهرتين قام بهما أقباط مهاجرون، اشتروا في كلٍّ من جريدتَي واشنطن بوست ونيويورك تايمز مساحة إعلانيّة تبلغ نصف صفحة، للتنديد بسوء المصير الذي يواجه أقباط مصر. فقبل أسابيع وقعت مجابهات دامية جدًّا بين المسيحيّين والمسلمين في «الزاوية الحمرا»، وهو أحد الأحياء الفقيرة في القاهرة. بلغت تلك المعركة الواسعة النطاق المجهولة الأسباب، والتي لا شكّ بأنّ المحرّضين سعّروا نيرانها، مستوى لا يصدّق من الضراوة، حيث تعرّض أشخاص إلى الذبح، وأطفال إلى الرمي من النوافذ... كان الأقباط أبرز ضحاياها، ومع ذلك لم يتلقّوا الحماية المنتظَرة من قوّات حفظ النظام.

«أنا أثق ببيغين»

وسط الشعور بالخيبة بنتيجة الرحلة إلى الولايات المتّحدة، خطر ببال السادات أن يقوم بمحطّة، في طريق العودة. إلّا أنّه عدل عن ذلك في

اللحظة الأخيرة، بعدما علم المستشار كرايسكي بأمر هجوم تعدّ له مجموعة فلسطينيّة متطرّفة. لقد كانت تلك سنة سيّئة بدون أيّ شكّ.

راح السادات يعدّ الأشهر التي تفصله عن الاستعادة الكاملة لسيناء. في 25 و26 آب/أغسطس، استقبل في الإسكندريّة بيغين، في القمّة الثامنة والأخيرة التي ستجمع بينهما[19]. كان زعيم الليكود قد فاز، وخلافًا لكلّ التوقّعات، في الانتخابات التشريعيّة، وعاد إلى رئاسة الوزراء. لم يجد السادات في ذلك ما يثير استياءه، برغم كلّ الإهانات التي وجّهها إليه زعيم صقور السياسة في إسرائيل. ففي العام السابق، كان قد أسرّ إلى بطرس غالي بالقول: «أنا لا أثق بحزب العمل الإسرائيليّ، في المقابل أثق ببيغين، ومتأكّد بأنّه سيلتزم بكلمته في شأن الحكم الذاتيّ في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة[20]».

وفي خلال مؤتمر صحافيّ مشترك، أعلن الرجلان اللذان يستخدمان في كلّ إجابة العبارة ذاتها (صديقي السادات، صديقي بيغين)، عن استئناف المباحثات حول الحكم الذاتيّ الفلسطينيّ في 24 أيلول/سبتمبر التالي. لكنّ الأحداث الداخليّة التي جرت في مصر شغلت الأذهان تمامًا.

[19] يمكن اعتباره اللقاء الحادي عشر، إذا ما احتسبنا رحلة القدس في العام 1977، واتّفاقيّة كامب دايفيد في العام 1978، وتوقيع معاهدة السلام في العام 1979.

[20] بطرس بطرس غالي، المرجع السابق، ص. 412.

29

الجميع إلى السجن

إعتقد السادات أنّ بوسعه استغلال الإسلاميّين. إلّا أنّه رأى – بعد فوات الأوان – أنّ هؤلاء لا يُفلتون منه وحسب، بل يتآمرون عليه. فالإخوان المسلمون اتّصلوا بسياسيّين من اليمين ومن الوسط، ممّن لم تعد تنفّرهم فكرة التحالف مع التجمّع التقدّميّ بقيادة خالد محيي الدين، وهو من قدامى الضبّاط الأحرار، أو مع الحزب الشيوعيّ السريّ. وبرز تهديد تشكيل جبهة معارضة. أمّا الإسلاميّون الراديكاليّون، فقد أبدوا استعدادهم للتخلّص من «الخائن»، بمساعدة خارجيّة، وخصوصًا من العقيد معمّر القذّافي. واعتبارًا من العام 1977، أحيطت أجهزة المخابرات المصريّة أو الأجنبيّة علمًا بأكثر من ثلاثين محاولة للتآمر ضدّ السادات أو للاعتداء عليه، سعت إليها أربع عشرة مجموعة أو دولة مختلفة، ومن بينها ليبيا وسوريا وإيران[1].

بات السادات رجلًا متوتّر الأعصاب وسريع الانفعال، ويمرّ بتقلّبات مزاجيّة كثيرة. فتارة يستشيط غضبًا ضدّ كلّ مَن ينتقدونه، في مصر

---

[1] وفقًا لموسى صبري، الذي استطاع الوصول إلى عدة وثائق، أحصيت 38 مؤامرة في خلال هذه الفترة (أنظر: السادات، الحقيقة والأسطورة، المرجع السابق).

أو في الخارج، وطورًا يظهر مصابًا بالكآبة، وتبدو عليه علامات الانهيار العصبيّ. وتتذكّر زوجته، فتقول: «بدا أنور بصورة متزايدة يرفض النصيحة من أيّ شخص، وأخذ يقضي المزيد من الوقت بمفرده. وكما لو كان يقوم بنوع من رحلة تأمّليّة لا يستطيع أحد أن يقطعها عليه. وبدا بعيدًا، ليس في حالة العزلة التي كان عادة يسعى إليها عندما يكون مقدمًا على اتّخاذ قرارات هامّة، ولكن بطريقة أكثر روحيّة، وأصبح أقرب إلى الصوفيّة، وكان نحيفًا جدًّا. كان يحرم نفسه من الطعام ويحتسي فقط الشوربة والخضروات المسلوقة في وجباته وبدأ يتكلّم بتكرار عن الموت[2]».

راح السادات كفيلسوف، أو حتّى كمرشد روحيّ، يكتب سلسلة من النصوص نُشرت بعد موته بعنوان «وصيّتي». وقد عبّر فيها عن نفسه، مستفيدًا من خبرته كحاكم، ومعتقل سابق، وفارّ سابق من وجه العدالة، و«فلّاح»، بأسلوب لم نعتَده من رئيس دولة. وإليكم بعض التعاليم التي تركها للمصريّين: النجاح الداخليّ أهمّ بكثير من النجاح الخارجيّ؛ على كلّ شخص أن يعتني بثلاثة عناصر أساسيّة في شخصيّته: العقل والجسد والروح؛ وحده الإيمان يسمح للفرد بتحقيق السلام الداخليّ، وللمجتمع بتحقيق الوحدة؛ يجب دائمًا أن نفتح قلبنا للحبّ؛ يجب قول الحقيقة دائمًا... كان هذا الدرس الأخير، مكتوبًا بقلم السادات، يثير الابتسامات.

«هل تهزأ برئيسك؟»

في 29 آب/أغسطس 1981، أعلنت جريدة الأهرام أنّ الرئيس اعتكف للإعداد لخطاب مهمّ يلقيه. لكنّ ذلك أدهش عالم الاجتماع الناصريّ

[2] جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 493.

سعد الدين ابراهيم. فهو قد تلقّى اتّصالًا هاتفيًّا قبل يومين، استُدعي في خلاله، ومن دون أيّ تفسير، للحضور إلى مقرّ الرئيس في الإسكندريّة[3]. هل سيقوم برحلة ستّ ساعات بالسيّارة، ذهابًا وإيابًا، في حين يرفض الرئيس استقبال أحد في عزلته، بحسب الجريدة؟

ومع ذلك، ذهب إلى الموعد. كان السادات يقطن المنزل الذي أمر عبد الناصر ببنائه، بالقرب من منزله، لعبد الحكيم عامر. ولدى وصوله، طُلب منه أن يقابل أوّلًا زوجة الرئيس، التي استقبلته بكثير من الودّ، وأوضحت له: «الرئيس تعوزه النصائح الجيّدة. ونحن بحاجة إلى شخص مثلك ليطلعه، بدون مواربة، على ما يحدث في البلد... أرجو منك أن تقول له بصراحة ما تفكّر فيه». ثمّ قادت الأستاذ الجامعيّ للقاء السادات، الذي كان جالسًا تحت مظلّة في مواجهة البحر. وقالت: «سيادة الرئيس، الدكتور[4] سعد الدين ابراهيم هنا». تفرّس الرئيس في الرجل، وقال له بحدّة ثلاث مرّات «أعرف أنّك تكرهني!»، من غير أن يدع له الوقت لإلقاء التحيّة. تجمّد الآخر في مكانه مشدوهًا. فتدخّلت جيهان بدبلوماسيّة لتقول: «سيادة الرئيس، الدكتور سعد الدين ضيفنا. أدعه على الأقلّ إلى الجلوس». فتمتم السادات بنبرة تنمّ عن الاستياءِ: «حسنًا، اجلس، اجلس».

إستجمع سعد الدين ابراهيم شجاعته، وسأل: «لماذا يا سيادة الرئيس هذا الترحيب الحارّ؟» فغضب السادات وسأله: «أيّ ترحيب حارّ؟ هل تهزأ برئيسك؟» ثمّ لامه على ما قاله في حقّه من سوء في الجامعة التي ترتادها حفيدته دينا. دُهش الأستاذ الجامعيّ، فدينا ليست في عداد طلّابه. ردّ السادات: «لا، هي ليست في عداد طلّابك، لكنّ أصدقاءها

[3] مداخلة في ندوة بعنوان *Sadate and His Legacy, Egypt and the World 1977-1997* في معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، 1988.

[4] درجت العادة في مصر على مناداة المثقّفين عمومًا بلقب «دكتور».

أخبروها ما تقوله». فسأله الأستاذ الجامعيّ مبتسمًا: «أهكذا يا سيادة الرئيس تُتّخذ القرارات في مصر؟» وسرعان ما نزلت الصاعقة على رأسه: «إخرس! هل تهزأ برئيسك؟».

كلّ مرّة راح الضيف يحاول فيها ترطيب الجوّ، كان الرئيس يوبّخه بعنف. ومع ذلك استعاد في النهاية هدوءه، ليدوم اللقاء نحو ثلاث ساعات. تحدّث السادات عن الاتّحاد السوفياتي متوقّعًا انهياره بسبب البيروقراطيّة التي تكبّله. وندّد باستبداد الزعماء العرب، وأكّد أنّهم لن يقاتلوا أبدًا من أجل فلسطين. وقد أصابت توقّعاته في تينك النقطتين.

قطع قسم كبير من المفكّرين المصريّين علاقاته بالسادات، إمّا بعد انتفاضة الخبز في 1977، أو بعد كامب دايفيد. واختار عدد من الكتّاب والصحفيّين منافي طوعيّة لهم في بلدان عربيّة حيث وجدوا شروط عمل جيّدة. وكان حسن الاستقبال الذي خصّهم به بعض القادة مثل معمّر القذّافي أو صدّام حسين، يهدف خصوصًا إلى إظهار تفوّقهم على «الخائن».

وفي خلال الحديث، قال السادات لمحاوره بانفعال: «لا أفهم لماذا تقفون، أيّها المثقّفون العرب، ضدّي وضدّ معاهدة السلام. أودّ أن أجابهكم كلّكم في مناظرة. هل يمكنك تنظيم ذلك في مصر أو في أيّ مكان آخر؟» فوافق سعد الدين ابراهيم.

ثمّ نهض السادات، وكان بالسروال القصير، وقال: «حان وقت رياضتي اليوميّة. لن أتغدّى، لكنّني أودّ منك أن تشاطر جيهان طعام الغداء».

أكّدت زوجة الرئيس للأستاذ الجامعيّ في خلال الغداء أنّ اقتراح المناظرة جدّي، وقالت: «يريد مواجهتكم كلّكم، أو على الأقلّ عيّنة تمثيليّة من بينكم». ثمّ فكّرا معًا في كيفيّة عقد هذا اللقاء، الذي يمكن

تحقيقه في ثلاثة أشهر. وقبل أن تأذن له بالانصراف، أعطته أرقام هاتف خاصّة بها ليستطيع التواصل معها.

ولدى مشاركة سعد الدين ابراهيم بعد أيّام في مؤتمر دوليّ في جزيرة رودس، فاتح عدّة زملاء عرب بفكرة مناظرة السادات، فتناقشوا الاقتراح وقبلوه. لكنّ برقيّة وردت من القاهرة في الثاني من أيلول/سبتمبر فرضت إعادة النظر في كلّ شيء.

حتّى البابا نفسه...

في حملة لا سابق لها، اعتقلت الشرطة 1536 شخصًا، معظمهم من مناضلي الجمعيّات الإسلاميّة، يُضاف إليهم دعاة أصوليّون مثل الشيخ كشك. وكان بين المعتقلين أيضًا مئة وخمسون قبطيًّا، إضافة إلى شخصيّات غير إسلاميّة من الصفّ الأوّل: فؤاد سراج الدين، الذي أعاد بعث حزب الوفد، وحلمي مراد نائب رئيس حزب العمل، ومحمّد حسنين هيكل أشهر الصحفيّين العرب، ونقيب المحامين السابق عبد العزيز شوربجي، وعالمة الاجتماع والمناضلة من أجل حقوق المرأة نوال السعداوي، والفيلسوف الداعي إلى الحداثة محمّد أحمد خلف الله، وهو أحد القلائل الذين تجرّأوا على المطالبة بتكييف قواعد القرآن مع العالم الحديث... لم ينتهِ الأمر هنا، ففي 5 أيلول/سبتمبر، عُزل البابا شنودة من كرسيّه وأُبعِد إلى دير في الصحراء، فيما أُعفي نحو عشرين أسقفًا وكاهنًا من مناصبهم. ومن جهة أخرى، أُعلِن عن إلحاق كلّ مساجد مصر بوزارة الأوقاف التي باتت مسؤولة عن كلّ أنواع الدعوات الدينيّة. كما أُعلِن حظر خمس مطبوعات دينيّة، وجريدة الشعب المعارضة، وإحالة 74 أستاذًا جامعيًّا و67 صحفيًّا إلى وظائف إداريّة.

وُجِّهت إلى المعتقلين تهمة التورّط، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، في الاضطرابات الطائفيّة، أو السعي إلى استغلالها، بالاعتماد على المتطرّفين، أو بالتآمر مع الاتّحاد السوفياتيّ. أي أنّ المعتقلين انتموا إلى كلّ الاتّجاهات السياسيّة. كان هدف السادات شلّ حركة الإسلاميّين. لكنّه، ولئلّا يعطي الانطباع بأنّه يهاجم الإسلام نفسه، اتّهمهم بجريمة لا أحد يمكنه القبول بها، وهي جريمة التشكيك بمصر كأمّة[5]. وتوخّيًا للعدل، ضرب أيضًا الأقباط، وكأنّما مفتعلو الشغب يتساوون في الإثم.

تلك كانت المرّة الأولى التي يُعزل فيها رئيس الكنيسة. وأكّد السادات في مقابلة لمجلّة «دير شبيغل» الألمانيّة «أنّ البطريرك شنودة متعصّب، ويتصرّف كأمراء الكنيسة في أوروبا خلال القرون الوسطى، الذي كانوا يريدون ممارسة السلطتين الزمنيّة والروحيّة في آنٍ واحد».

وفي 10 أيلول/سبتمبر، دعا إلى استفتاء على عشرة قرارات رئاسيّة تجيز تلك التدابير. فلم تشذّ النتيجة عن القاعدة: 99.45% من المواطنين قالوا «نعم» على تلك القرارات.

لكنّ التعليقات التي أثارتها تدابيره الأمنيّة في الخارج أخرجته عن طوره، فقال: «أولئك الغربيّون الحمقى لم يفهموا أنّني أقاتل من أجلهم، ضدّ أعدائنا الأخوان المسلمين الذين يجب مطاردتهم بلا رحمة». وطرد مراسل جريدة «لوموند» جان بيار بيرونسيل هوغوز، ومراسل القناة الأميركيّة «إيه.بي.سي» كريس هاربر، متّهمًا إيّاهما بعدم الموضوعيّة وبتشويه صورة مصر. وفي خلال مؤتمر صحفيّ عقده يوم 7 أيلول/سبتمبر في قريته، وبعدما قرأ ما ذكرته مقاطع من مجلّة «تايمز» اللندنيّة، وجرائد أجنبيّة أخرى، راح يصرخ: «هذه أكاذيب مُغرضة. كيف يمكنكم أن تكتبوا أمورًا كهذه؟». وحين سأله صحفيّ عمّا إذا كانت

---

[5] جيل كيبيل، *Le Prophète et Pharaon*، المرجع السابق، ص. 205-206.

واشنطن توافق على الاعتقالات الواسعة النطاق التي شملت معارضيه، انفجر زاعقًا به: «لي الحقّ بأن آمر بإعدامك رميًا بالرصاص لأنّك تطرح سؤالًا كهذا، لكنّنا في بلد ديمقراطيّ...».

وفي 15 أيلول/سبتمبر، ألقى خطابًا طال أكثر من أربع ساعات لتبرير «ثورة 5 سبتمبر» (ثورة جديدة!). وكرّس قسمًا كبيرًا من ذلك الخطاب لشخصيّتين يمقتهما بشدّة، وهما فؤاد سراج الدين، زعيم حزب الوفد، «ذلك الباشا، ابن الإقطاع، الذي يعيش حياة الترف»، مشبّهًا إيّاه بالملك لويس الثالث عشر؛ والصحفيّ محمّد حسنين هيكل، المؤتمن القديم على أسرار عبد الناصر، ومستشار السادات الشخصيّ حتّى شباط/فبراير 1974، والذي اتّهمه بالإثراء من خلال نشر ترّهات حول مصر. وفي السياق، رمى أحد الأصوليّين، وهو الشيخ المحلّاوي الذي «ألقي به في السجن كالكلاب»، ببعض عبارات الاحتقار، كما ندّد بإطلاق اللحى وسخر بالحجاب الذي يجعل النساء شبيهات بـ«الخيام السوداء».

إنّه السادات السيّئ الطباع، والمُكثر من الثرثرة، والعاجز عن الالتزام بمضمون ملحوظاته أو عن ضبط أعصابه. ومع ذلك، فإنّ جاك أتالي، المستشار الخاصّ للرئيس ميتران، والذي استقبله السادات يوم 23 أيلول/سبتمبر في استراحة القناطر، وجده «رصينًا وهادئًا». قدّم إليه السادات نائبه، حسني مبارك، قائلًا: «إنّه بمثابة أخي». وتناول بأقسى العبارات الملك الأردنيّ حسين، فوصفه بـ«الشخص اللا مسؤول، والكاذب، والفاسد». كما أكّد رغبته في أن يطلق، وبسرعة، سراح من أمر بسجنهم، «ما عدا الإخوان المسلمين، فهم يشكّلون خطرًا على سياسة الحداثة منذ خمسين عامًا». وفي خلال اللقاء، حلّقت الطائرات

العسكريّة في الجوّ. فأوضح الرئيس المصريّ لضيفه قائلًا: «إنّهم يتدرّبون استعدادًا لعيد 6 أكتوبر» (أي ذكرى حرب 1973)[6].

إرتفعت التساؤلات في القاهرة حول الدافع إلى التدابير الأمنيّة الواسعة التي قام بها. هل أراد فقط أن يشلّ حركة الإسلاميّين، الذين أصبحوا أعداءه اللدودين؟ أم أنْ يحول دون تشكيل جبهة معارضة واسعة؟ سمعه عدّة شهود يقول إنّه سيطلق سراح كلّ الموقوفين في نيسان/أبريل، بعدما تُعاد بقيّة سيناء إلى مصر، وأنّ أمورًا كثيرة ستتغيّر اعتبارًا من ذلك الحين.

تحدّث السادات مجدّدًا يوم 25 أيلول/سبتمبر، في خطاب متلفز. ولمّح هذه المرّة إلى متآمر توارى عن الأنظار، فقال: «إنّي أعلم أنّ هناك ضابطًا لا يزال حرًّا طليقًا وهو بالقطع يشاهدني الآن. لقد اعتقلنا الآخرين في خمس دقائق، لكنّه أفلت منّا. إنّني أحذّره أنّنا سنعتقله أيضًا».

---

6 جاك أتالي، *Verbatim I*، الجزء الأوّل، Fayard، 1993، ص. 140.

30

«لقد قتلتُ الفرعون!»

هما شقيقان كلّ منهما ينشط في تنظيم متطرّف. أكبرهما، محمّد الإسلامبولي، هو قائد الجماعة الإسلاميّة في كليّة التجارة بأسيوط، وأحد الذين اعتقلتهم السلطات المصريّة في 2 أيلول/سبتمبر 1981. أمّا الشقيق الأصغر، خالد، وهو ملازم في سلاح المدفعيّة وله من العمر أربعة وعشرون عامًا، فينتمي إلى تنظيم الجهاد. ثارت نقمة خالد لاعتقال شقيقه فقرّر أن يثأر. لكن كيف؟ بما أنّه سيشارك في العرض العسكريّ الذي سيُقام لمناسبة ذكرى حرب 6 تشرين الأوّل/أكتوبر 1973، تفتّقت له فكرة: لمَ لا تخرج من عربته، التي تسير ببطء، مجموعة كوماندوس تطلق النار على المنصّة الرسميّة؟ فاتح بالفكرة المنظّر العقائديّ لتنظيم الجهاد الإسلاميّ، عبد السلام فرج، الذي أصغى إليه بانتباه.

في 26 أيلول/سبتمبر، دعا فرج قادة التنظيم إلى اجتماع للتناقش في الأمر. وافقت أغلبيّة المجتمعين على الفكرة، برغم معارضة عبّود الزمر، وهو رائد في سلاح الطيران له من العمر خمسة وثلاثون عامًا، يعمل في الاستخبارات العسكريّة. إعتبر الزمر أنّ المشروع غير قابل

للتحقيق في الوقت الراهن، فالتنظيم غير قادر، في رأيه، على إحداث انتفاضة شعبيّة تلي الهجوم مباشرة.

إلّا أنّ الزمر أدرك أنّه على وشك أن يُعتقَل. فهو الضابط الذي ألمح إليه السادات، من دون أن يسمّيه، في خطاب 25 أيلول/سبتمبر فتوارى عن الأنظار في حين كانت المؤامرة قيد الإعداد. تمّ تمويل شراء الذخائر اللازمة بفضل عمليّات سطو مسلّح نُفِّذت على محالّ صاغة أقباط.

كان رؤساء الملازم الإسلامبولي يرون فيه مسلمًا متحمّسًا وورعًا، لا متطرّفًا. ولم يجدوا سببًا للشكّ فيه، كما سبق له أن شارك في عرضين عسكريّين، في العامين 1979 و1980. وجد الضابط الشابّ طريقة ليجعل الجنود الثلاثة الذين سيكونون في عربته يوم 6 تشرين الأوّل/أكتوبر، يتناولون مسهّلًا معويًّا قويّ المفعول. ثمّ أعطاهم مأذونيّة مرضيّة، واستبدلهم بثلاثة أعضاء من تنظيمه: حسين عبّاس، وهو ضابط احتياط عمره ثمانية وعشرون عامًا، وقنّاص بارع فاز بالبطولة العسكريّة في اختصاصه في العام 1975؛ وعبد السلام عبد العال، وهو بائع كتب؛ ومهندس يُدعى عطا طايل رحيل. وحده السائق لم يكن من المتآمرين.

كان على قادة الوحدات أن يتأكّدوا من أنّ كلّ المشاركين في العرض العسكريّ قد نزعوا قوادح بنادقهم أو رشّاشاتهم. تملّص الإسلامبولي من ذلك التدبير، بعدما أدخل إلى الثكنة شركاء وذخائر بسهولة تثير الدهشة.

بدون عصا الماريشاليّة

دائمًا ما مثّل عرض 6 أكتوبر العسكريّ مناسبة عظيمة بالنسبة إلى السادات، الذي دأب على أن يطلب كلّ عام، لحضوره، خياطة بزّة عسكريّة جديدة على يد خيّاط من لندن أو من ميلانو. وقد عزم، لمناسبة ذكرى «العبور» الثامنة هذه، على ارتداء بزّة رماديّة ضاربة إلى الأزرق، ضيّقة

جدًّا، ومغطّاة بالأوسمة، تجعله أشبه بقائد عسكريّ في أوبريت مسرحيّة. كان من عادته أن يضيف إلى بزّته عصا الماريشاليّة، التي لطالما رأت زوجته في حملها مبالغةً منه. لكنّه لم يأخذها يومذاك حين غادر منزله. وتتساءل في مذكّراتها: «هل نسيها؟ هل غيّر رأيه احترامًا لي؟ لن نعرف ذلك أبدًا[1]». لكنّه وفي كلّ حال، أصرّ على أن يشارك حفيده شريف، ابن جمال، والذي له من العمر خمسة أعوام، في العرض العسكريّ مرتديًا الزيّ الذي أمر بخياطته له، على مثال زيّه الخاصّ. لكنّ جيهان قرّرت، بسبب الطقس الشديد الحرارة، إلباس الطفل ملابس خفيفة، على أن تشرح الأمر لزوجها لاحقًا.

مرّة جديدة، رفض السادات أن يرتدي سترة واقية من الرصاص، برغم علمه بأنّ البعض يسعى إلى تصفيته. ففي الشهر المنصرم، أحبطت أجهزة الاستخبارات مشروعًا جديدًا لاغتياله، دبّرته ليبيا، يُضاف إلى سلسلة المشاريع الطويلة التي سبقته. كان المشروع يقضي بأن يستأجر مصريّ شابّ من بلدة قنا، وهو قنّاص بارع، شقّة في الاسكندريّة تطلّ على الطريق الذي يسلكه الرئيس. وبعد ذلك يستلم بندقيّة دقيقة مخبّأة في سيّارة. لكنّ الشابّ كان على اتّصال بالمخابرات المصريّة، ويطلعها بتفاصيل هذه المؤامرة، خطوة فخطوة. أُخفيت البندقيّة وذخيرتها بشكل متقن، كما هو معدّ، في سيّارة فيات 132 وصلت بالسفينة. وبعد ذلك ضُبطتا، وقُدِّمتا إلى السادات الذي أراد الاحتفاظ بهما، لعرضهما على الملأ في الوقت المناسب[2].

لا، لن يرتدي السادات سترة واقية من الرصاص. ولمَ يضايق نفسه بوسيلة الحماية تلك، وهو وسط جيشه، بين «أولاده»؟ لقد ذهب إلى المنصورة قبل أيّام قليلة، برغم تحذيرات وزير داخليّته النبوي اسماعيل.

---

1 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 12-13.

2 موسى صبري، **السادات: الحقيقة والأسطورة**، المرجع السابق، ص. 25-27.

وهناك استُقبل بمظاهر تكريم استثنائيّة، ومرّ وسط الجموع بسيّارة مكشوفة بدون أيّ مشكلة.

بلغت تلك الأخبار المقلقة مسامع رجل الأعمال عثمان أحمد عثمان، صديقه المقرّب. فاقترح عليه إلغاء تنقّلات أخرى. لكنّ السادات أجابه: «أنت أحمق يا عثمان! لن أموت إلّا حين يشاء الله».

وعشيّة 6 تشرين الأوّل/أكتوبر، ألحّ وزير الداخليّة مرّتين عليه، محاولًا ثنيه عن ترؤّس العرض العسكريّ، لكنّه اصطدم في كلتا المرّتين بردّة فعل تنمّ عن الانزعاج.

ككلّ عام، جرى الاحتفال في مدينة نصر، وهي إحدى ضواحي شرق القاهرة. ويوم 6 تشرين الأوّل/أكتوبر من ذلك العام، أي 1981، تمثّل الحضور الدبلوماسيّ تحديدًا بسفراء الولايات المتّحدة والمملكة المتّحدة وإسرائيل والسودان، وانضمّ إليهم سفير فرنسا الجديد فيليب كوفيلييه، الذي ما كاد يصل إلى القاهرة، ولم يقدّم أوراق اعتماده بعد. قال له السفير البلجيكيّ مبتسمًا: «سترى، في مصر لا يملّ المرء أبدًا[3]». كانت جيهان السادات مع أربعة من أحفادها في مقصورة زجاجيّة، في أعلى المنصّة الرسميّة.

ظهر الرئيس المصريّ في سيّارة كاديلاك سوداء مكشوفة، واقفًا إلى جانب نائبه حسني مبارك. كان حرّاسه الشخصيّون يقفون على مواطئ القدم في السيّارة من كلتا الجهتين. وحين بلغ السادات المنصّة، رفع عينيه وابتسم لزوجته وأحفاده، ملوّحًا لهم بحركة صغيرة من يده. جلس في الصفّ الأوّل، يحيط به مبارك ووزير الدفاع، المشير أبو غزالة. وبناء على طلبه، حضر أيضًا شيخ الأزهر، والأنبا صموئيل، أحد الأساقفة الخمسة الذين عيّنهم محلّ شنودة الثالث على رأس الكنيسة القبطيّة.

---

[3] مقابلة مع فيليب كوفيلييه، أيّار/مايو 2013.

أنيطت مهمّة حماية الرئيس في العرض العسكريّ بحرّاسه الشخصيّين، وبرجال وزارة الداخليّة، والأمن العسكريّ، والحرس الجمهوريّ. وقف أحدهم أمام المنصّة، فأشار إليه السادات بالابتعاد. ذهب الرجل للجلوس عند أسفل الدرج من الجهة اليمنى، ليرمقه الرئيس بنظرة استياء أخرى، فصعد درجات قليلة. أمّا أفراد الحرس الجمهوريّ، فلم يكونوا على جانبَي المنصّة، بل في الخلف.

وكما في كلّ مرّة، حفل العرض العسكريّ بالحوادث. فهنا محرّك يتعطّل ولا يعود إلى العمل، وهناك مظلّيّ يخفق في الهبوط... وهذه المرّة، كان على درّاج تعطّلت درّاجته الناريّة أن يركنها بطريقة مثيرة للشفقة فوق الممرّ الجانبيّ ويتابع طريقه مشيًا. رفع الرسميّون والجمهور أنظارهم إلى السماء للاستمتاع بتحليق استعراضيّ للطائرات الحربيّة، تتبعها سحب من الدخان الملوّن. خلع السادات قبّعته، ووضعها على حافّة حاجز المنصّة أمامه، مبتسمًا ابتسامة عريضة. في تلك اللحظة توقّفت شاحنة أمام المنصّة. هل هو عطل آخر؟ لم يتسنّ لأحد طرح السؤال. صوّب حسين عبّاس القنّاص بندقّيته نحو الرئيس فأصابه في عنقه، فيما قفز الملازم الإسلامبولي من العربة ورمى نحو المنصّة قنبلتين يدويّتين، لم تنفجرا. وآنذاك اندفع، يحميه حاجب من الدخان ويتبعه زملاؤه، نحو هدفه، ثمّ شهر رشّاشًا في اتّجاه «الخائن»، قبل أن يصيح: «لقد قتلتُ فرعون!» ويُروى أنّه صرخ بوزير الدفاع، الجالس إلى يسار الرئيس المصريّ: «إبتعد، هذا الكلب هو مَن أريده![4]».

حين استفاق حرّاس الرئيس ومسؤولو الأمن الآخرون من ذهولهم، فتحوا نيرانهم في اتّجاه المهاجمين. دام تبادل الرصاص خمسًا وثلاثين ثانية. وتحوّلت المنصّة إلى ساحة معركة، غطّتها الدماء والكراسي

[4] لقد أكّد ذلك بأيّة حال، في خلال المحاكمة.

المقلوبة والأشخاص الذين يزحفون على الأرض وسط القتلى والجرحى. نُقل السادات وهو يُحتضر إلى مستشفى المعادي العسكريّ بالمروحيّة، يرافقه طبيبه الخاصّ، الدكتور محمّد عطيّة وأحد الحرّاس. وكان آخر ما قاله عبارة «مش معقول!».

دبّ الذعر وسط الحشود، ووقع كثيرون ضحايا دوس الأقدام أو دهس العربات، فيما دوّت صفّارات أولى سيّارات الإسعاف الواصلة. قلق السفير الفرنسيّ لوضع نظيره البلجيكيّ الذي أصيب برصاصة سبّبت له نزيفًا، فنزل من المنصّة ونادى السيارة الأولى، ومضى بها مع الجريح إلى مستشفى المعادي العسكريّ.

قطع التلفزيون بثّه، «لأسباب تقنيّة»، وعرض فيلمًا وثائقيًّا عن الفنّ القبطيّ. وأكّد أحد الحرّاس لزوجة السادات أنّ زوجها لم يُصَب إلّا برصاصة في يده. هدّأت جيهان من روع أحفادها الذين تملّكهم الرعب، وأوصلتهم إلى المنزل ثمّ مضت بنفسها إلى مستشفى المعادي، حيث استُقبلت بوجوم جعلها تخشى الأسوأ. قيل لها إنّ زوجها في غرفة العمليّات. وفي قاعة الانتظار، وجدت بناتها وأعضاء الحكومة وحسني مبارك، الذي ضُمّدت يده اليسرى بعدما خدشتها رصاصة. ثمّ اتّصل بها ابنهما جمال من الولايات المتّحدة بعدما عرف بالخبر عبر التلفزيون الأميركيّ. وكانت السفارة المصريّة قد وضعت في تصرّفه طائرة، فعقد العزم على أن يتوقّف في لندن ليصطحب البروفسور القبطيّ مجدي يعقوب، جرّاح القلب العالميّ.

كأحد أفراد عائلة كينيدي

لمّا انقضى نصف ساعة ولم يأتِ أيّ طبيب ليطمئن جيهان، وقفت واستدارت نحو حسني مبارك وقالت له بصوت حازم: «يبدو أنّ السادات

قد رحل، لقد جاء دورك الآن لقيادة الأمّة، أرجوك يا سيادة النائب أن تتفضّل فإنّها مسؤوليّتك الآن لرعاية مصر[5]». نظر إليها نائب الرئيس، ولم تبدر منه أيّة ردّة فعل. صاح أحدهم: «لا تقولي هذا يا سيّدتي، لا تقولي هذا!». كان ذلك الرجل أنيس منصور، مدير مجلّة أكتوبر، وأحد أصدقاء السادات المقرّبين. في الواقع، كان مبارك قد تبلّغ موت الرئيس حالما وصل إلى المستشفى.

تروي جيهان في مذكّراتها بقيّة ما جرى: «إنطلقتُ في الممرّ فلم يوقفني أحد واتّجهت بمفردي إلى حيث يرقد زوجي... كان أنور راقدًا على سريره وما زال مرتديًا حلّته الرسميّة، وكان الكمّ ممزّقًا لكي يسرع الأطبّاء بنقل الدم، لكنّ القضاء حمَّ، وحلّ الأجل فلم يستطيعوا شيئًا. وارتميت على صدره ودموعي تنهمر. وَضِعتُ في حزني فلم أرَ الأطبّاء والممرّضات الذين ملأوا الغرفة ودموعهم تفيض على وجوههم. كانوا قد أغمضوا عينيه».

إستعادت جيهان سيطرتها على الوضع وطلبت من بناتها الاقتراب مع أزواجهنّ من جثمان السادات، ثمّ تلوا الشهادتين معًا. ولدى خروجها، طلبت مجدّدًا من مبارك الذي «ظلّ جالسًا بدون حركة[6]»، كما تؤكّد، أن يتولّى مصير البلد. وقف أشخاص كثيرون عند مدخل المستشفى يبكون أو ينتحبون. فيما جلست امرأة أرضًا تصرخ مبتهلة إلى الله. لقد كانت تلك وزيرة الشؤون الاجتماعيّة...

أخيرًا عند الثامنة مساء، ظهر حسني مبارك على التلفزيون، مقطّب القسمات، ليعلن وفاة أنور السادات. وعُلم أنّ خمسة أشخاص آخرين قُتلوا في العمليّة، من بينهم الأسقف صموئيل ومساعد الرئيس. وكان من بين الجرحى رئيس أركان حزب القوّات المسلّحة، الفريق عبد الرب

---

[5] جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 19-20.

[6] المرجع نفسه، ص. 21.

نبي حافظ، ورئيس مجلس الشعب سيّد مرعي، ووزير الدفاع الإيرلنديّ جيم تالي، إضافة إلى سفيرَي بلجيكا وكوبا. أمّا منفّذو عمليّة الاغتيال الستّة، فقد قُتل اثنان منهم، وأُلقي القبض على الآخرين، ومن بينهم خالد الإسلامبولي. نجح القنّاص حسين عبّاس في الفرار، لكنّ السلطات عثرت عليه في خلال يومين.

طلب المحقّقون من جيهان الإذن باستخراج الرصاصة الوحيدة التي بقيت في جثّة القتيل. فوافقت، شرط أن يحضر التشريح ابنها جمال، العارف في الأسلحة الناريّة. وهي تشرح قائلة: «لعلّ زوجي قد أصيب من الخلف من جانب شخص موالٍ للمتطرّفين المسلمين. أو حتّى من جانب أحد الحرّاس الموجودين هناك. لم أعد أثق في أيّ شخص[7]». أصرّت على حضورها هي أيضًا، شخصيًّا، عمليّة التشريح، لكنّ كبير الجرّاحين حاول ثنيها عن ذلك، فأحالت الأمر على مبارك، الذي لم يشعر بأنّ له الحقّ في أن يرفض. استُخرجت الرصاصة، وعاينها جمال، ليجد أنّها من النوع نفسه الذي استعمله المهاجمون. ولم يكن أيّ من أجهزة الأمن المختلفة يستعمل هذا النوع من الذخيرة.

خلافًا لما نُشر هنا أو هناك، لم يُصب السادات بأربعين رصاصة، بل بثلاث فقط. إحداها فقط كانت قاتلة، وهي تلك التي استقرّت في عنقه. هذا ما أكّده بعد أشهر عدّة الطبيب الشرعيّ، حين أثارت إحدى الصحف المصريّة الصفراء فضيحة بنشرها صورة للقتيل عاريًا في خلال التشريح[8].

ما كانت السترة الواقية من الرصاص لتكفي لإنقاذ السادات، فمطلقو النار كانوا قريبين جدًّا من هدفهم. لكنّ التساؤلات أثيرت حول السبب الذي جعل جهاز الحماية الخاصّ بالرئيس يتركونهم يصلون إلى مسافة

---

7 المرجع نفسه، ص. 25.

8 مقابلة الدكتور رمزي أحمد محمد، الميدان، 27 أيّار/مايو 1982.

أمتار قليلة من المنصّة الرسميّة. إستشهدت جريدة «واشنطن بوست» بمسؤولين أميركيّين كبار لم يشاؤوا الإفصاح عن هويّاتهم، لتكشف أنّ السادات كان يستفيد من نظام حماية استثنائيّ يوفّره له جهاز الاستخبارات الأميركيّ «سي.آي.إيه» في أثناء رحلاته الخارجيّة. وكانت طائرته الخاصّة خصوصًا، تحت مراقبة طائرات «أواكس» (الرادارات الطائرة). أُبقيت هذه المساعدة طيّ الكتمان لكي لا يطالب بها رؤساء دول آخرون. لكنّ السادات قُتل في بلده، ووسط جيشه... تساءل الخبراء الأميركيّون كيف استطاع المتآمرون أن يعرفوا كلّ التفاصيل المتعلّقة بالعرض العسكريّ، وخصوصًا التوقيت الدقيق بفارق لا يتجاوز الدقيقة الواحدة، للاستعراض الجويّ الذي كان أفراد الحضور كلّهم، يرفعون في خلاله أنظارهم إلى السماء.

مات أنور السادات، الرجل الذي سحرته أميركا، كأحد أفراد عائلة كينيدي. وهكذا نال الممثّل الذي أراد السادات أن يكونه، نجم التلفزيونات الغربيّة، فرصة الظهور في مشهد أخير، مأساويّ، منقول مباشرة على الهواء. وكأنّما تلك اللحظة الأخيرة لحياة تشبه إلى حدّ كبير الروايات، صُمّمت خصيصًا للشاشة الصغيرة... لم تتردّد مجلّة «تايمز» اللندنيّة في المقارنة بين الرئيسين اللذين قضيا اغتيالًا، بطريقة كانت لتدغدغ غرور الرئيس المصريّ، فكتبت: «للمرّة الأولى منذ موت كينيدي، الذي مرّ عليه ما يقارب الثمانية عشر عامًا، يجد العالم نفسه وقد حُرم بشكل مفاجئ وعنيف من رجل دولة واسع الشهرة، أو من رجل كان يحمل على عاتقه آمال أشخاص كثيرين جدًّا. لا شكّ بأنّ عدد أعداء السادات يفوق عدد أعداء كينيدي. لذلك فإنّ مقتله يبقى من الناحية الموضوعيّة أقلّ إثارة للمفاجأة... ومع ذلك فإنّ الصدمة التي نشعر بها اليوم لا تقلّ قوّة عن صدمة العام 1963، ولعلّ من الإنصاف القول إنّ

السادات، وفي خلال أحد عشر عامًا، ترك على العالم أثره على نحوٍ أعمق بكثير ممّا تركه كينيدي في أقلّ من ثلاث سنوات».

وفي واشنطن، صرّح الرئيس ريغان: «لقد خسرت أميركا صديقًا حميمًا، وخسر العالم رجل دولة كبيرًا، وخسرت البشريّة نصيرًا للسلام». أمّا سلفه جيمي كارتر، فقد قال في الراحل، وتحت وقع الصدمة، كلمات تكريم استثنائيّة: «كان أنور السادات أعظم زعيم التقيتُه في حياتي، إذ لم يساهم أحد مثله في السلام على الأرض في خلال هذا القرن». وأضاف قائلًا: «لم أحظَ قطّ بصديق أفضل منه أو يضاهيه قربًا منّي».

في العالم العربيّ، غمرت السعادة خصوم السادات. ورقص ياسر عرفات فرحًا حين علم بعمليّة الاغتيال، لكنّه كان على خطأ كبير حين رأى فيها «رسالة من الجيش المصريّ إلى الفلسطينيّين». وفي ليبيا، حيّا القذّافي «تنفيذ الحكم بالمجرم»، وانهالت إذاعة طرابلس الغرب بالشتائم بحقّ «مَن مات كيهوديّ بعد أن عاش كيهوديّ»، وأعلنت عن يوم عطلة للسماح للّيبيّين بالاحتفال بهذه المناسبة. ومن الجزائر، لم يكتفِ الفريق الشاذلي، الرئيس السابق لأركان حزب القوّات المسلّحة المصريّة، والذي قطع علاقاته بالسادات في العام 1978، بأن حيّا «تصفية الخائن الذي وضع نفسه في خدمة الصهيونيّة والإمبرياليّة»، بل دعا المصريّين إلى «الإطاحة بالنظام».

لم تتحرّك القاهرة. لكن في فجر 8 تشرين الأوّل/أكتوبر، أي بعد أقلّ من ثمانٍ وأربعين ساعة على المجزرة، استولى فرع مصر الوسطى في تنظيم الجهاد على مديريّة الأمن في أسيوط. قُتل عشرات رجال الشرطة، فيما قُطع رأس قائدهم، وهو مسيحيّ. دبّ الهلع بين قوّات حفظ النظام المحلية، العاجزة عن قتال تلك المجموعات المسلّحة. فاستُدعيت وحدات من المظلّيين لاستعادة السيطرة على المدينة، وأنزِلوا على

الملعب الجامعيّ حيث نظّم الإسلاميّون صلوات جماعيّة، فسُحقت الثورة وقامت السلطات بحملة اعتقالات ضخمة.

جنازة رسميّة جدًّا

تقرّر عدم دفن أنور السادات في جبل سيناء، كما تمنّى. فلأسباب عمليّة – مَن ذا الذي سيذهب لزيارته في ذلك المكان النائي؟ – قرّرت السلطات، بالاتّفاق مع زوجته، بناء مدفن له في ضريح الجنديّ المجهول الخاصّ بشهداء حرب 1973، على مسافة مئات الأمتار من حيث اغتيل.

لم يحضر رونالد ريغان الذي أصيب بجروح قبل أشهر قليلة في محاولة اغتيال كان قد تعرّض لها في واشنطن، تجنّبًا لأيّ مجازفة. لكنّ ثلاثة من أسلافه، وهم ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد وجيمي كارتر، أتوا لتكريم السادات، إلى جانب ثمانية رؤساء كانوا في السلطة آنذاك، ومن بينهم فرانسوا ميتران (فرنسا) وساندرو برتيني (إيطاليا)، إضافة إلى خمسة رؤساء حكومات، من بينهم هلموت شميدت (ألمانيا الغربيّة)، وكالفو سوتيلو (إسبانيا)، ومناحيم بيغين (إسرائيل).

لم تكن السلطات المصريّة ترغب في حضور رئيس الوزراء الإسرائيليّ، متذرّعة بأسباب أمنيّة، لكنّ هذا الأخير أصرّ على القدوم لتكريم «صديقه السادات» للمرّة الأخيرة، وأعلن عن نيّته الحضور بصحبة عدّة وزراء وجيش من الحرّاس الشخصيّين. ولمّا كانت الجنازة مقرّرة يوم السبت، لم يكن بوسع الوفد الإسرائيليّ التنقّل بالسيّارات، فطلب النزول في مكان قريب من حيث سيُقام المأتم، ليستطيع الانتقال إليه سيرًا. فاقترح المصريّون فندقًا يبعد... ستّة كيلومترات. وبعد محادثات طويلة، تمّ أخيرًا اختيار مدرسة مهجورة، جُدِّدت في وقت قياسيّ. وحده بيغين استطاع الاستفادة من غرفة خاصّة به، فيما حُشر

معاونوه في أربع أو خمس قاعات حُولّت إلى مهاجع، وغزتها في الليل أسراب البعوض. ويروي الرجل الثاني السابق في السفارة الإسرائيليّة في القاهرة: «في اليوم التالي، كانت مفاجأتنا كبيرة حين اكتشفنا أنّ مراسم الجنازة نُقلت، ولأسباب أمنيّة، إلى مكان أبعد بكثير[9]». فاضطرّ الوفد الإسرائيليّ إلى السير كيلومترات عدّة...

لم يأتِ لحضور الجنازة إلّا رئيسان عربيّان فقط، وهما السودانيّ جعفر النميري، والصوماليّ زياد برّي، فيما أرسل سلطان عمان ممثّلًا عنه، وعدل المغرب أخيرًا عن إرسال وفد رسميّ. وشوهد في موكب التشييع أيضًا بودوان، ملك بلجيكا، والأمير تشارلز من إنكلترّا، وسيمون فيل رئيسة البرلمان الأوروبيّ، ووزير الدفاع الأميركيّ كاسبار وينبرغر، ووزير الخارجيّة الأميركيّة، الجنرال ألكسندر هيغ، وأحد أشهر أسلافه، هنري كيسنجر، الذي ما انفكّ يغدق المديح على السادات منذ لقائهما الأوّل في العام 1973.

لم تستطع أمبراطورة إيران السابقة فرح ديبا حبس دموعها. علمت باغتيال الرئيس المصريّ قبل أربعة أيّام وهي في باريس، فكتبت في دفتر مذكّراتها: «في الحال، مات جزء منّي. جزء منّا. عزيزي السادات، أودّ أن أقول لك كم كنت رائعًا، وأبًا لأولادي، وصديقًا لي. كنت تحمل في شخصك النور والسلام والهدوء والطيبة والحكمة. كنت قويًّا كجبل، وهادئًا كصفحة الماء[10]».

لم تشبه جنازة السادات قطّ جنازة عبد الناصر، قبل أحد عشر عامًا، أو جنازة المطربة أمّ كلثوم، التي سار خلفها بحر بشريّ في العام 1975. فالسلطات رفضت أن يجتاز موكب التشييع القاهرة، تجنّبًا لخروج الأمور عن السيطرة. واقتصر المأتم على احتفال رسميّ أقيم تحت المراقبة

[9] إفراييم دويك، المرجع السابق، ص. 311-313.
[10] فرح بهلوي، المرجع السابق، ص. 396.

المشدّدة، خُصّص فقط لأفراد العائلة وللشخصيّات الرسميّة المصريّة والأجنبيّة. وللمفارقة، فإنّ السادات لم يحظَ بما خصّ هو به شاه إيران، الذي سار في تشييعه عشرات الآلاف في تمّوز/يوليو 1980.

لو كان للسادات شعبيّة ضخمة، لكسر الشعب المحظور وعبّر عن ألمه بطريقة أو بأخرى. لكن، وبمقدار ما كان أنور السادات يرتقي تراتبيّة أقوياء هذا العالم، بدا أنّه يبتعد عن قلوب المصريّين الذين هتفوا له بعد حرب أكتوبر 1973. إذا كان عبد الناصر «جمال» بالنسبة إلى شعبه، وحتّى إلى قسم كبير من العالم العربيّ، فالسادات لم يصبح «أنور»[11]. وما كان يناديه هكذا سوى أصدقائه من كبار السياسيّين العالميّين...

لذلك لم يسِر يوم السبت 10 تشرين الأوّل/أكتوبر، سوى عدد قليل جدًّا من الأشخاص في موكب التشييع بشوارع القاهرة. والواقع أنّ ذلك اليوم كان عيد الأضحى، الذي يُحتفل فيه بذكرى تضيحة النبيّ ابراهيم، وأنّ حال الطوارئ كانت تمنع التجمّعات في الطرق العامّة. مع ذلك، فإنّ بضع مئات من الأشخاص، يرفعون صور الرئيس المقتول ويهتفون بعبارات المديح له، حاولوا اجتياز الحواجز، لكنّ قوى الأمن صدّتهم.

وفقًا للتقاليد، جرى غسل جثمان الراحل، ورشّه بماء الورد وتكفينه بسبعة أكفان بيضاء. وعند الحادية عشرة والربع، صلّى عليه شيخ الأزهر في جامع مستشفى المعادي. ثمّ لُفّ النعش بالعلم المصريّ، ونُقل بالمروحيّة إلى مدينة نصر، في المكان نفسه حيث اغتيل الرئيس، والذي تحوّل إلى حصن منيع.

أثارت شائعات متلاحقة الخشية من حدوث انقلاب أو اعتداء آخر. وشوهدت الرشّاشات على السطوح. وأتى، في حضور المدعوّين الذين ساورهم بعض القلق، ضابطان ليفتّشا الواحد تلو الآخر، جزمات أفراد

11 بيار ميريل، المرجع السابق، ص. 253.

حرس الشرف. ورافق كلًّا من رؤساء الدول الحاضرين حرّاسه الشخصيّون، وطبيب يحمل حقيبة دم.

وُضع النعش على عربة مدفع، تجرّها ستّة أحصنة سوداء. وسار الموكب على لحن الموسيقى الجنائزيّة لشوبان، عزفتها فرقة عسكريّة. وسار في مقدّمته ابن السادات، وبجانبه حسني مبارك، نائب الرئيس وخلفه المعيّن.

فجأة، وقع تدافع أثار الذعر، فانطلق مظليّون يركضون وهم يحملون رشّاشاتهم. وأخرج حرّاس الرؤساء الأميركيّون السابقون مسدّساتهم. لكنّ المظلّيين الذين أرادوا فقط إبطاء سير الموكب، عادوا أدراجهم. وعادت المسدّسات إلى أجربتها، لينطلق الموكب مجدّدًا.

حمل ستّة عسكريّين وستّة مدنيّين النعش إلى القبر، فيما عزفت الفرقة الموسيقيّة نشيد الموتى. وحدهم الرجال كانوا يستطيعون القيام بهذه الطقوس الأخيرة. واضطرّت جيهان، التي حافظت على وقار كبير برغم حزنها، إلى البقاء في الخارج برفقة بناتها الثلاث.

تؤكّد جيهان في مذكّراتها قائلة: «منذ أن أعلن زوجي نيّته الذهاب إلى القدس لعقد السلام مع إسرائيل، علمتُ أنّه سيُقتل[12]». ولا شكّ بأنّها غالبًا ما استعادت في ذهنها لاحقًا – ربّما لتسكين ألمها – ما قاله لها فوزي عبد الحافظ، سكرتير الرئيس المخلص، والذي وجد نفسه ممدّدًا بالقرب منه في خلال إطلاق النار: لم يعد أنور قادرًا على الكلام، لكنّ نظره ارتفع إلى أعلى المنصّة، إلى حيث كانت مع أحفادها...

12 جيهان السادات، *Une femme d'Egypte*، المرجع السابق، ص. 401.

31

سلام جليديّ

في 13 تشرين الأوّل/أكتوبر 1981، أي بعد أسبوع على وقوع المأساة، فاز حسني مبارك برئاسة الجمهوريّة رسميًّا بعد استفتاء شعبيّ نال فيه 98.46% من الأصوات. أتت تلك الخلافة تحت عنوان الاستمراريّة، ولو أنّ الرئيس المصريّ الجديد يتميّز عن سلفه بأسلوب أكثر ميلًا إلى الكتمان ورغبة في مدّ اليد إلى المعارضة غير الراديكاليّة. في 25 تشرين الثاني/نوفمبر، أمر بإطلاق سراح إحدى وثلاثين شخصيّة من «العلمانيّين» كان السادات قد أمر بحبسهم قبل ثلاثة أشهر. بعد ذلك اقتيدوا إلى منزله للقائه في حضور التلفزيون، حيث أكّد مبارك أنّ «حقبة اعتقال قادة المعارضة وإبعادهم من الحياة السياسيّة قد ولّت». وأضاف: «إنسوا تلك المرحلة المؤسفة، لأنّ علينا أن نتوحّد لمواجهة خطر التعصّب الدينيّ». إلّا أنّ ذلك لم يمنعه في الأشهر التالية من إطلاق سراح إسلاميّين، ومن بينهم عمر التلمساني، المرشد الأعلى للإخوان المسلمين، والشيخ كشك المشهور، الذي عاد إلى عظاته الناريّة. كان الهدف عزل المتطرّفين، بالاعتماد على المعتدلين والتائبين، من دون منع هؤلاء من مواصلة مشروعهم الهادف إلى إعادة أسلمة المجتمع.

إستعادت مصر، كما كان مقرّرًا، السيطرة على كامل أرض سيناء في 25 نيسان/أبريل 1982، بغياب السادات عن هذا الموعد الذي طال انتظاره له. استطاع مبارك، الأقلّ تورّطًا في عمليّة السلام، والذي لم يعد لديه الكثير لينتظره من إسرائيل، أن يعيد بمهارة وصل ما انقطع من علاقات بالدول الشقيقة، وصولًا إلى تحقيق عودة مصر الكاملة إلى جامعة الدول العربيّة. كما أنّ الوضع الإقليميّ سهّل عليه تلك المهمّة، فمنظّمة التحرير الفلسطينيّة غارقة في المستنقع اللبنانيّ، فيما العراق بحاجة إلى مساعدة مصر في الحرب التي شنّها على إيران. لاحقًا، لن يتردّد مبارك في قطع علاقاته بصدّام حسين، والمشاركة في عمليّة عسكريّة دوليّة ضدّه بعد غزو الكويت... واعتبارًا من تشرين الأوّل/أكتوبر 1990، لم تكتفِ جامعة الدول العربيّة بإعادة قبول عضويّة مصر، بل استعادت المنظّمة مقرّها في القاهرة، وانتُخب على رأسها أمين عام مصريّ جديد.

رفض قاتلو السادات المفترضون وشركاؤهم، في خلال محاكمتهم في نيسان/أبريل 1982، أن يتولّى محامون الدفاع عنهم. وردّوا على التهمة بأنّهم غير مذنبين، بل إنّهم «فخورون» بأنفسهم لتصفيتهم «الخائن». ومن قفص المحكمة، حيث كانوا محتجزين كما هي العادة في مصر، شمعوا يصيحون: «نرفض أن يُراق دم المسلمين على مذبح اليهود». لكنّهم لم ينجحوا في أن يجعلوا من تلك المحاكمة محاكمة لضحيّتهم. ومن جهة أخرى، فإنّ السريّة فُرضت على جزء كبير من الوقائع.

شرح القتلة في خلال الاستجواب أنّهم لم يكونوا يعتبرون السادات زعيمًا مسلمًا حقيقيًّا. وقالوا إنّ إدخال مبادئ الشريعة الإسلاميّة في الدستور بدا لهم أمرًا شكليًّا لخداع الناس، فضلًا عن أنّه لم يكن ذا تأثير على القوانين أبدًا. كما أثارت سخطهم أقوال كثيرة أتت على لسان الرئيس المصريّ، كطريقته مثلًا في تشبيه المنقّبات بالخيم المتنقّلة،

أو ما يمكن تصنيفه في إطار أكثر عموميّة، كتأكيده على أنْ «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين». وكانوا يعتقدون أنّ عمليّتهم ستؤدّي فورًا إلى الإطاحة بالنظام الكافر، حيث راهن البعض على انقلاب عسكريّ، والبعض الآخر على انتفاضة شعبيّة.

أصدرت المحكمة أحكامها، فأُعدم الملازم الإسلامبولي[1] وضابط الاحتياط عبّاس رميًا بالرصاص، وشُنق ثلاثة أفراد آخرون من المجموعة. أمّا الرائد في سلاح الطيران عبّود الزمر الذي أدين بمساعدتهم، فحُكم عليه بالحبس المؤبّد.

قيل الكثير في مصر، جهارًا أو همسًا، حول ظروف موت أنور السادات. فالبعض رأوا في عملية الاغتيال تلك دورًا لوكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة، والبعض الآخر تحدّث عن دور للموساد، لكن من دون تقديم أيّ دليل على ذلك. ومن جهة أخرى، فإنّ أجهزة المخابرات السوفياتيّة لم تنتظر مجزرة 6 تشرين الأوّل/أكتوبر 1981 لتسريب معلومات خاطئة أو لفبركة وثائق زعمت أنّها رسميّة. فمثلًا، نشرت جريدة البعث السورية في تشرين الأوّل/أكتوبر 1979 رسالة نسبتها إلى سفير الولايات المتّحدة في مصر يؤكّد فيها أنّ «السادات لا يخدم المصالح الأميركيّة، وعلينا التخليّ عنه والتخلّص منه بدون تردّد». كانت تلك المقالة مناورة فجّة، رغم أنّها لم تكن الوحيدة. فلا أحد قد يرى سببًا لرغبة الولايات المتّحدة أو إسرائيل في التخلّص من شريك بهذه الطواعية، خصوصًا وأنّه ليس هناك ضمانة بأنّ خَلَفه سيسير في السياسة عينها.

هل حيكت في الأوساط الحاكمة مؤامرة للتخلّص من رئيس أصبح خطرًا؟ لم يعترف بعض أفراد عائلة السادات قطّ بنتائج التحقيق الرسميّ

---

[1] أطلق اسم خالد الإسلامبولي على أحد شوارع طهران. ولم يتمّ تغيير هذا الاسم إلّا في تمّوز/يوليو 2008، بعد مفاوضات مع سلطات القاهرة.

في مجزرة 6 تشرين الأوّل/أكتوبر 1981، وأبدوا دهشتهم للثغرات في عمل الأجهزة الأمنيّة، أو شكّوا بوجود تواطؤ على رأس الدولة. كان طلعت السادات، ابن عصمت شقيق الرئيس، عضوًا في تشكيل سياسيّ صغير باسم الحزب الوطنيّ، ومعروفًا بصراحته. وقد قضى في العام 2006 عامًا في السجن لأنّه أبدى دهشته لعدم قيام الجيش المصريّ بالدفاع عن عمّه بطريقة أفضل. ومن جهتها، تساءلت رقيّة، الابنة البكر للسادات من زواجه الأوّل: «مَن استفاد من الجريمة؟» وانتظرت سقوط حسني مبارك في شباط/فبراير من العام 2011 لتضعه موضع الشكّ[2].

لكنّ جيهان السادات لا تشاركها هذه الشكوك، وهي تؤكّد: «أُعدِم القتلة منذ عقود، ولا أعتقد أنّ الرئيس السابق مبارك متورّط في اغتيال زوجي[3]».

والواقع أنّ المرء يجد صعوبة في أن يتخيّل مبارك يدبّر مؤامرة، ثمّ يذهب للجلوس بالقرب من الرئيس في خلال عرض عسكريّ، مراهنًا على دقّة أفراد مجموعة الاغتيال في إطلاق النار... يمكننا أن نتصوّر أنّ مؤامرة ما قد حيكت، لكنّ ذلك لم يُثبَت قطّ، ومن المستبعَد أن يكون لمبارك شأن فيها.

درجت العادة في مصر على أن يُتّهم كلّ رئيس مصريّ، في يوم من الأيّام، بأنّه تخلّص من سلفه. ففي مقال نشرته جريدة «العرب» القطريّة العام 2007، اتّهمت هدى، الابنة البكر لعبد الناصر، السادات بأنّه دسّ السمّ لأبيها في فنجان قهوة أعدّه له بنفسه، قبل موته بثلاثة أيّام. وكان محمّد حسنين هيكل أوّل من لمّح إلى الموضوع قبل ذلك بوقت قصير، على محطّة «الجزيرة»، حيث أكّد بطريقة غامضة جدًّا: «لا أحد يمكنه أن يصدّق ذلك، لأنّ شيئًا لا يمكن إثباته». لكنّ الدكتور حبيب الصاوي، وهو

---

[2] رقيّة أنور السادات، المرجع السابق، ص. 198-214.

[3] في جواب موجّه للكاتب في آذار/مارس 2013.

أحدْ أطبّاء عبد الناصر، وصف ذلك الاتّهام بالسخيف. كما أدانت إحدى محاكم القاهرة هدى عبد الناصر بتهمة القدح والذمّ في العام 2008.

لا «محو لآثار الساداتيّة»

ماذا بقي من رئاسة أنور السادات؟ كتب محمّد حسنين هيكل: «عندما اختفى وجهه عن الظهور على شاشات التلفزيون، بدا وكأنّ أحد عشر عامًا من حكمه قد تلاشت بلمسة على زرّ». بديهيّ أنّ ذلك ليس صحيحاً. فالتغييرات الكبرى التي أدخلها السادات، أي الصلح مع إسرائيل، والتحالف مع الولايات المتّحدة، وسياسة الانفتاح الاقتصاديّ، ظلّت متّبعة طوال عهد مبارك الذي دام تسعة وعشرين عامًا. وبعد عبد الناصر، طُبّقت سياسة محو لآثار الناصريّة. لكن لا يمكن القول إنّ سياسة طُبّقت بعد السادات لمحو آثار الساداتيّة.

لم يكن حسني مبارك بحاجة إلى إسقاط تمثال سلفه، بل تركه ليتداعى ويغمره النسيان. وأتت سيّدة أولى لتحجب أخرى، فقد استفادت سوزان مبارك من الطريق الذي شقّته جيهان السادات لتحتلّ مقدّمة المشهد، وتلعب شيئًا فشيئًا دور شبه وزيرة للثقافة والشؤون الاجتماعيّة، وهي منهمكة في الوقت عينه، بالإعداد لتسلّم ابنها الأصغر جمال مقاليد الرئاسة عندما يحين الوقت لذلك.

وخلافًا لسلفه، لم يستثر حسني مبارك، وطوال سنوات حكمه التسع والعشرين، مشاعر عنيفة في هذا الاتّجاه أو في ذاك. فقط حين خُلع من منصبة في انتفاضة شعبيّة في كانون الثاني/يناير-شباط/فبراير 2011، جرى التعبير ضدّ شخصه عن كلّ مشاعر الإحباط المتراكمة في النفوس منذ سقوط الملكيّة.

كان الانفتاح الذي أراده السادات يرتكز على تضافر لرساميل دول النفط، والتكنولوجيا الغربيّة، واليد العاملة المحليّة، إلّا أنّ تلك الشركة الثلاثيّة لم تتحقّق بسبب المقاطعة الاقتصادية التي مارستها معظم الدول العربيّة بعد اتّفاقيّة كامب دايفيد. لكنّ السخاء المحدود للدول الشقيقة عوّضت عنه المساعدة الغربيّة، وخصوصًا الأميركيّة، التي بلغت نحو ملياري دولار سنويًا.

ترك عبد الناصر للسادات اقتصادًا مزريًا. وبعد أحد عشر عامًا، كانت مصر التي ورثها مبارك تستفيد من أربعة مصادر ثمينة للعملة الأجنبيّة، وهي قناة السويس، وتحويلات العمّال المهاجرين، والسياحة، والنفط[4].

يستطيع السادات أن يتباهى بعدّة إنجازات كبيرة أخرى، كإيصال الشبكة الكهربائيّة إلى عدّة قرى، وتعميم التغطية الاجتماعيّة على المواطنين، ونهاية التحكّم بالعملات الأجنبيّة، وانفتاح مصر على الاستثمارات الأجنبيّة. وفي عهده كان متوسّط نموّ الناتج المحليّ 8% سنويًّا. بيد أنّ وجوده على رأس اقتصاد شبه ريعيّ جعله يهمل الصناعة، كما أنّه لم يبادر إلى وضع سياسة حازمة وهادفة لخلق الوظائف. ترك السادات لمبارك معدّل تضخّم مرتفعًا، ودينًا خارجيًّا لا سابق له. وفي عهده اشتدّ عمق عدم المساواة الاجتماعيّة. ويشير عالم الاجتماع جلال أمين: «بدأت مصر تنقسم إلى أمّتين: أمّة عائداتها ونفقاتها بالدولار،

4 بلغت عائدات قناة السويس 600 مليون دولار في العام 1980، وكانت محرّكًا للتنمية في منطقة البرزخ بكاملها. وأرسل العمّال المهاجرون الذين زاد عددهم من مئة ألف في 1973 إلى أكثر من ثلاثة ملايين في 1984، أربعة مليارات دولار إلى مصر في ذلك العام أيضًا. وفي خلال عهد السادات، تضاعف عدد السيّاح، (الذي كان 385 ألفًا في 1970) أربعة أضعاف ونصف. أمّا عائدات البترول، فقد بلغت 1.3 مليار دولار في العام 1979 بفضل استعادة حقول النفط في سيناء، كما زادت تلك العائدات أكثر في العامين التاليين بسبب ارتفاع أسعار النفط على أثر الثورة الإيرانيّة واندلاع الحرب بين العراق وإيران.

وأخرى عليها أن تجري حساباتها بالجنيه المصريّ؛ أمّة تشتري من الخارج الطعام والملابس والحاجات المختلفة، والأخرى لا خيار لها سوى شراء المنتجات المحليّة[5]».

سار مبارك في أثر السادات ولم يبتعد عن هذا النهج الاقتصاديّ. حتّى أنّه زاد من حدّة الانعطافة الليبراليّة اعتبارًا من العام 1991، برعاية صندوق النقد الدولي. وانتقلت مصر من اقتصاد الدولة والمركزيّة إلى اقتصاد السوق، فخصخصت مؤسّسات كثيرة، وأعادت العمل بالبورصة. إلّا أنّ خسارة الوظائف في القطاع العامّ لم تعوّضها عروض القطاع الخاصّ، فيما كان مئات آلاف الشبّان يفدون إلى سوق العمل كلّ عام، فزادت حدّة عدم المساواة الاجتماعيّة، وألحق الفساد ضررًا كبيرًا على مستويات الدولة كلّها.

«حتّى آخر حبّة رمل»

كما أُرغِمَ السادات تقريبًا على اتّخاذ قرار الحرب، عاد وأُرغِم لاحقًا على صنع السلام... ومع ذلك، لم يكن دمية للأحداث، فقد كان يجب امتلاك جسارة وتصميم كبيرين للاندفاع في المغامرة الأولى ثمّ في الثانية. وما كانت إلّا قلّة من قادة الدول في وضعه لتتجرّأ على القيام بمبادرات على هذا القدر من المجازفة.

بعد العام 1981، ظلّت معاهدة السلام الإسرائيليّة المصريّة محلّ التزام كامل، برغم كلّ الزلازل التي حدثت في الشرق الأوسط. فقد صمد إنجاز السادات الكبير هذا في وجه انتفاضتين فلسطينيّتين، وحرب أهليّة في لبنان، ونزاع مسلّح بين إسرائيل وحزب الله، وحرب الخليج،

---

5 جلال أمين، *Egypt in the Era of Hosni Mubarak 1981-2011*، القاهرة، The American University in Cairo Press، 2011، ص. 32.

واحتلال العراق... حتّى سقوط مبارك ووصول الإخوان المسلمين إلى السلطة لم يضعا حدًّا للسلام بين مصر وإسرائيل. لكنّه ظلّ سلامًا بين الدولتين لا بين الشعبين. وإذا كان معظم المصريّين قد أيّدوه، إلّا أنّهم لم يتحمّلوا فيما بعد اشتداد حدّة الصراع الإسرائيليّ الفلسطينيّ، وتزايد الاستيطان في الضفّة الغربيّة، فتنامت المشاعر المناهضة للصهيونيّة من عقد إلى آخر.

بعد رحلة السادات إلى القدس، ما كان الإسرائيليّون يطلبون سوى صداقة جيرانهم المصريّين. ولسنوات، قام الكثيرون منهم بزيارات سياحيّة إلى مصر، قبل أن تثنيهم عن ذلك الاعتداءات في البحر الأحمر[6]. ومع ذلك لم تتورّع الجرائد المصريّة عن الشكّ في أنّهم جواسيس، أو حتّى في كونهم مكلّفين نشر الأمراض التناسليّة في مصر...

لم تنطلق حركة سياحيّة في الاتّجاه المعاكس. ومنع بابا الأقباط رعيّته من الحجّ إلى القدس موضحًا: «لن يذهبوا إلى القدس، إلّا وأيديهم في أيدي إخوانهم من المسلمين». فهو لم يشأ أن يُتَّهَم الأقباط بخيانة قضيّة العرب. حتّى أنّ رجال الأعمال المصرّيين الذين رغبوا في القيام بمشاريع في إسرائيل، تجنّبوا ذلك خشية مقاطعتهم في العالم العربيّ. أمّا مثقّفو القاهرة، فهم لم يتقبّلوا قطّ تطبيع العلاقات مع الدولة اليهوديّة. وانتهى هذا السلام البارد، الذي كان منذ البداية مفروضًا، بأن أصبح سلامًا جليديًّا.

يجيب إفراييم دويك، سفير إسرائيل في القاهرة من 1990 إلى 1992: «السلام لا حرارة له. السلام يسود أو لا يسود. وفي المقابل، قد تكون العلاقات الثنائيّة بين بلدين على درجات متفاوتة من الدفء، أو

---

6 مثلًا، في العام 1987، زار 170 ألف إسرائيليّ مصر، مشكّلين بذلك النسبة الكبرى من عدد السيّاح الأجانب.

من الودّ، أو أوسع أو أضيق نطاقًا...[7]» لنقل إذًا إنّ تلك العلاقات بردت كثيرًا. فكم بات بعيدًا مشهد رئيسٍ باسم ينزل في مطار بن غوريون، وينادي موشي دايان بسعادة، ويمزح مع غولدا مائير! طوال عهد دام تسعة وعشرين عامًا، لم يقم مبارك إلّا بزيارة واحدة إلى إسرائيل، وذلك للمشاركة في جنازة إسحاق رابين في العام 1995. ومن نافلة القول إنّ خلفه محمّد مرسي، عضو تنظيم الإخوان المسلمين، يفضّل أن يُقطَّع إربًا على أن يذهب لتوقيع السجلّ الذهبيّ في نصب ياد فاشيم التذكاريّ!

في الصفقة التي اقترحها السادات على إسرائيل، والتي مفادها: «أعيدوا إليّ سيناء، أطبّع معكم علاقاتي، معترفًا بذلك بحقّكم في الوجود»، كانت مصر صاحبة الاستفادة الأوضح. فقد استعادت أراضيها، من غير أن تعطي عدوّتها السابقة كلّ ما كانت تتمنّاه في المقابل. وقد قال حسني مبارك في أحد الأيّام لطلّاب في جامعة القاهرة: «لقد أعيدت إلينا سيناء حتّى آخر حبّة رمل. وماذا أعطيناهم في المقابل؟ قطعة ورق!».

في النهاية، لم يكن تطبيع العلاقات هو الهدف الأوّل لهذا الطرف أو لذاك. فالأمر الأهمّ بالنسبة إلى السادات كما إلى بيغين، كان إنهاء حالة الحرب. فبعدما زالت حاجة مصر إلى الإنفاق عسكريًّا حتّى الإفلاس، بات بوسعها تخصيص مواردها لتحسين اقتصادها. أمّا إسرائيل، فلم تعد ملزمة بإقامة خطّ دفاع على حدودها الجنوبيّة، وقلّصت إلى الصفر تقريبًا خطر تعرّضها إلى هجوم من جانب الدول العربيّة، فذلك أمر يستحيل تحقيقه بدون المشاركة المصريّة.

يقول منتقدو السادات إنّ مصر لم تستعد سيادتها على سيناء حقًّا، لأنّ معاهدة السلام نصّت على إزالة الطابع العسكريّ عن المنطقة،

---

7 إفراييم دويك، المرجع السابق، ص. 160.

بإشراف قوّة متعدّدة الجنسيّات. ويشدّدون خصوصًا على أنّ الإسرائيليّين استفادوا كثيرًا من إنهاء حال العداوة مع أكبر بلد عربيّ. فبعدما لم يعد لديهم ما يخشونه على الجبهة الجنوبيّة، استطاعوا إعادة نشر قوّاتهم، وضمّ الجولان السوريّ في كانون الأوّل/ديسمبر 1981، أو اجتياح لبنان في حزيران/يونيو 1982، والتحكّم تمامًا في الوقت عينه، بمصير الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة.

كان بوسع المفاوضات الإسرائيليّة الفلسطينيّة أن تُسكت كلّ تلك الانتقادات وتُظهر، بعد التجربة، أنّ اتّفاقيّة كامب دايفيد يجب أن تؤدّي إلى حلّ شامل في الشرق الأوسط. صدّق العالم هذه الفكرة لبعض الوقت، وتمّ برعاية الرئيس كلينتون، توقيع اتّفاقيّة أوسلو في 13 أيلول/سبتمبر 1993 في البيت الأبيض بين إسحاق رابين وياسر عرفات، بعد مباحثات جرت في كامب دايفيد. كانت تلك إعادة إنتاج مطابقة تقريبًا لما قام به قبل ستّة عشر عامًا الثلاثيّ كارتر-السادات-بيغين. وبعد ذلك، في 6 تشرين الأوّل/أكتوبر 1994، وقّع الأردن معاهدة سلام مع إسرائيل، سائرًا على خطى مصر.

إلّا أنّ كلّ شيء تدهور بعد ذلك، فقد قُتل رابين وذهبت اتّفاقيّة أوسلو أدراج الرياح. ولم يبقَ سوى السلام المنفرد مع مصر والأردن. ويلاحظ شلومو بن عامي، وزير الخارجيّة الإسرائيليّ السابق: «أخطأت إسرائيل حين اعتقدت أنّ بوسع مصر أن تفتح لها أبواب العالم العربيّ. لأنّ مفتاح المصالحة بين العرب وإسرائيل يبقى حيث كان دائمًا، أي بيد الفلسطينيّين[8]».

كانت سياسة السادات الخارجيّة لتكون محلّ ترحيب شامل لو أنّها أدّت إلى حلّ للمسألة الفلسطينيّة، لكنّه ليس المسؤول الوحيد عن هذا

---

8 .«Sadate à Jérusalem, 30 ans après»
.www.project-syndicate.org:commentary/sadat-s-journey

الفشل. بل على العكس، فبمواصلة الاستيطان في الضفّة الغربيّة ورفض كلّ حلّ وسط حول القدس، حال الإسرائيليّون دون إقامة دولة فلسطينيّة. أمّا الزعماء العرب، فقد تميّزوا خصوصًا بانقساماتهم، وازدواج لغتهم، وديماغوجيّتهم.

32

مهد التطرّف الإسلاميّ

إرتكب السادات خطأ يصعب على المدافعين عن قيام الدولة غير الدينيّة مسامحته عليه. ففي عهده أدخِلت مبادئ الشريعة الإسلاميّة على الدستور المصريّ. إلّا أنّ شيئًا لم يرغمه في العام 1971 على اتّخاذ ذلك القرار الكارثيّ، والذي اكتُشف فيما بعد كم كانت العودة عنه صعبة. وحين دار في العام 2012 نقاش حول تلك المادّة الثانية المشهورة، فهو لم يتناول إلغاءها، بل معرفة ما إذا كان يجب الذهاب إلى أبعد ممّا كُتب حتّى! فبعد اعتبار الشريعة الإسلاميّة «أحد مصادر التشريع» في دستور 1971، ثمّ «المصدر الرئيسيّ للتشريع» في العام 1980، أراد الإسلاميّون الأشدّ راديكاليّة أن يجعلوا منها، وبكلّ بساطة «مصدر التشريع»... هكذا، انخفض سقف الطموحات، واعتُبر في النهاية أنّ المحافظة على المادّة الثانية كما هي تشكّل انتصارًا للفريق العلمانيّ!

خطأ السادات الأكبر كان اللعب بالنار، فباعتماده على الإسلاميّين لمحاربة اليسار والناصريّين، لم يخطئ فقط في تحديد الخصم، بل أطلق عمليّة ضارّة، كلّفته حياته في النهاية. ويلاحظ الفيلسوف لويس عوض

قائلًا: «ربّى الرئيس المصريّ أفاعي سامّة، فلدغته إحداها[1]». لم يكن ممكنًا الانفتاح على الغرب، ومدّ اليد إلى الإسرائيليّين، ودعم حقوق المرأة، وفي الوقت عينه إطلاق العنان للّذين يطالبون بدولة دينيّة ترتكز على قواعد من زمن غابر.

من غير المنصف تحميل السادات وحده مسؤوليّة نموّ التطرّف الإسلاميّ، الذي لم تكن مصر وحدها مسرحًا له، بل مجمل العالم العربيّ، وما يتخطّاه حتّى. بيد أنّ سياسة «الرئيس المؤمن» ساهمت في ذلك النموّ، خصوصًا وأنّ الناحية الاقتصاديّة لتلك السياسة كانت تمهّد السبيل أمام الأصوليّة أيضًا، وذلك بطريقتين. الأولى، بتشجيع هجرة العمّال نحو دول الخليج، حيث أدّت عودة الكثيرين منهم أثرياء ومرتمين في أحضان الإسلام الأصوليّ إلى شقلبة المجتمع المصريّ. والثانية، بتسهيل الإثراء الشخصيّ على حساب العدالة الاجتماعيّة، حيث أفسح تراجع الدولة عن أداء دورها الطريق أمام جمعيّات إسلاميّة اندفعت إلى ملء هذا الفراغ، واكتسبت بنتيجة نشاطاتها الخيريّة تقديرًا وأتباعًا كثيرين.

حقّقت عائلات إسلاميّة كثيرة الثراء في عهد السادات ولاحقًا في عهد مبارك. ولنتّفق مع أوليفييه روي، على أنّ صفة «إسلاميّة» تخصّ «الحركات التي ترى في الإسلام إيديولوجيّة سياسيّة، وتعتبر أنّ أسلمة المجتمع تمرّ عبر إقامة دولة إسلاميّة[2]».

نجح التنظيمان اللذان تحالفا لاغتيال السادات، أي الجهاد الإسلاميّ والجماعة الإسلاميّة، في البقاء برغم القمع الواسع النطاق الذي تلا تلك المجزرة. وذهب بعض أفرادهما للقتال في أفغانستان، فيما حاول آخرون

---

1 توفيق أقليمندوس، «Louis Awad (1915-1990): un philosophe iconoclaste»، *Egypte/Monde arabe*، السلسلة الأولى، العدد 2، 1990.

2 «Les trois âges de la révolution islamiste»، *Les Collections de l'Histoire*، العدد 30، كانون الثاني/يناير 2006.

فرض نظام إسلاميّ في بعض المدن أو القرى. وفي بداية تسعينيّات القرن الماضي، قام هؤلاء الإسلاميّون الراديكاليّون باعتداءات على السيّاح، ما أفقدهم التعاطف الشعبيّ، واستتبع قمعًا أعنف بكثير. ثمّ قادت عمليّة مراجعة إيديولوجيّة قسمًا منهم إلى التخلّي عن العنف، فيما اختار آخرون منافي طوعيّة، وخصوصًا للالتحاق بالقاعدة. كان مساعد بن لادن وخلفه، أيمن الظواهري، أحد المتّهمين في عمليّة اغتيال السادات. وبعد ثلاثة أعوام قضاها في السجن بتهمة تهريب السلاح، طُرد هذا الطبيب الجرّاح من مصر. إلّا أنّه عاد إليها لتنظيم عمليّات إرهابيّة مختلفة، يبدو أنّ من بينها مجزرة 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1997 التي وقعت أمام معبد حتشسبوت في الأقصر، وخلّفت اثنين وستّين قتيلًا، والتي هرب على أثرها إلى خارج مصر، وهو ما أدّى إلى الحكم عليه غيابيًّا بالإعدام.

لكنّ الإخوان المسلمين لعبوا على وتر آخر. فتنظيمهم القويّ، المحظور قانونًا والمستفيد من التساهل واقعًا، نجح بالتأصّل في الأحياء والمساجد، كما في النقابات والاتّحادات المهنيّة. وتكيّف مع سياسة العصا والجزرة التي مارسها مبارك. فقادته كانوا يحتفظون دائمًا بحقيبة جاهزة لدخول السجن، حيث يواجهون بشكل دوريّ الاعتقال وسوء المعاملة. كما برعوا في الاستفادة من أصغر الخطوات نحو لبرلة الحياة السياسيّة، فاتّخذوا اسمًا مستعارًا ليصبحوا أبرز مجموعة برلمانيّة معارضة.

على الأرض، كان الإخوان يواجهون منافسة من السلفيّين، الذين أعلنوا أنّهم ورثة محمّد عبد الوهّاب، الشريك في تأسيس أوّل دولة سعوديّة في القرن الثامن عشر، وأرادوا العيش مثل «السلف الصالح». كانت لهم أيضًا شبكة من المساجد والمستشفيات والمستوصفات. وقد اعتمد مبارك على هؤلاء المتطرّفين، البعيدين عن السياسة في المبدأ،

لإضعاف الإخوان المسلمين، فمُنحوا مثلًا في العام 2006 ستّ محطّات تلفزيونيّة.

حال مبارك دون ظهور أيّة قوّة معارضة ديمقراطيّة يمكنها أن تزعجه، واضعًا المصريّين أمام خيار بسيط جدًّا: أنا أو الإسلاميّين. والنتيجة أنّ هؤلاء الإسلاميّين، وقد أصبحوا القوى المنظّمة الوحيدة، تمكّنوا عند الإطاحة به في شباط/فبراير 2011، من الاستيلاء بدون أيّة مشقّة على تلك الثورة التي لم يكونوا هم المحرّضين عليها، بل انضمّوا إليها بعدما انطلقت مسيرتها وتأكّدوا من نجاحها. ببراعة وتصميم وكثير من المال، استطاع الإخوان المسلمون الذين يملكون وسائل ضخمة، الفوز بنتائج الاستفتاء الشعبيّ كما بنتائج الانتخابات التشريعيّة والرئاسيّة. ثمّ حاولوا بجشع لا يضاهيه سوى عدم الكفاءة، الاستيلاء على كلّ مقابض الدولة. وتحالف السلفيّون، الذين حقّقوا خرقًا غير متوقّع وطاب لهم مذاق السياسة، مع الإخوان مؤقّتًا لصياغة وإقرار الدستور الجديد غير المقبول من كلّ المصريّين الرافضين لإقامة الدولة الدينيّة.

وهكذا، بات أعنف مَن عارضوا السادات يحتلّون مقدّمة المشهد، كحال قائدَين سابقَين للحركات الطلابيّة الإسلاميّة هما عصام العريان وعبد المنعم أبو الفتوح، اللذين أصبحا طبيبين وانتسبا إلى الإخوان المسلمين. إعتُقل الأوّل في حملة الاعتقالات الكبيرة في أيلول/سبتمبر 1981، ليعود ويدخل السجن مرّات عدّة في عهد مبارك. ولدى سقوط هذا الأخير، اختير ليكون رئيسًا لحزب الحرّية والعدالة، الذي أنشأه الإخوان المسلمون. أمّا الثاني الذي سُجن ثلاث مرّات، فكان رئيسًا لنقابة الأطبّاء المصريّين. كما تزعّم التيّار الإصلاحيّ في داخل التنظيم، وطُرد منه بعدما ترشّح للانتخابات الرئاسيّة في العام 2012، ليؤسّس حزبًا جديدًا.

كذلك عاد إلى الظهور عبّود الزمر ونسيبه طارق، المتورّطان في اغتيال السادات، واللذان أطلق سراحهما بعد سنوات كثيرة من الاعتقال، لتستقبلهما قريتهما استقبال الأبطال. بعد ذلك لفت طارق الزمر الانتباه إليه في خلال الحملة الانتخابيّة، حين وصف اغتيال السادات بـ«مقدّمة لثورة 25 كانون الثاني/يناير 2011»، وهو ما كان وصفًا منافيًا للمنطق في أقلّ تعبير.

في 6 تشرين الأوّل/أكتوبر 2012، أثار رئيس الجمهوريّة (الإسلاميّ)، محمّد مرسي، مفاجأة بتقليده «بطل العبور» أرفع وسام مصريّ، وهو وشاح النيل. وقالت جيهان السادات للتلفزيون الرسميّ: «طوال ثلاثين عامًا، لم نرَ أمرًا شبيهًا بهذا قطّ». وما زاد في إبراز تلك الخطوة أنّ محمّد مرسي لم يكرّم جمال عبد الناصر في الاحتفالات بالذكرى الستّين لانقلاب 23 تمّوز/يوليو 1952، بل اكتفى بانتقاد مبطّن لسياسته في خطاب متلفز. لكن لا شكّ بأنّ جيهان السادات لم تستقبل بالترحيب ذاته خبر قيام محمّد مرسي في الوقت عينه بتكريم ذكرى أحد أكبر خصوم زوجها، وهو الفريق الشاذلي. ويمكننا أن نتخيّل بسهولة كيف كانت ردّة فعلها حين علمت بوجود طارق الزمر بين المدعوّين إلى العرض العسكريّ في 6 تشرين الأوّل/أكتوبر 2012...

لو قُدِّر للسادات أن يبقى حيًّا، لَتَحَقَّق من حضور الإسلام في كلّ نواحي الحياة اليوميّة، وكلّ مؤسّسات البلد. هل تخيّل أنّ شعار «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين»، والذي لم يكفّ عن ترداده بعدما وعى الخطر الإسلاميّ، سيُناقَض إلى هذا الحدّ؟

في مصر كما في العالم العربيّ، تغيّرت على مرّ السنين صورة أنور السادات بعد موته. فحتّى العام 1983 ظلّ عرضة لأشدّ الانتقادات، وطالته كلّ أنواع الاتّهام، حتّى الإثراء غير المشروع. تؤكّد زوجته: «لم نكن أثرياء قطّ. والواقع أنّني وجدت نفسي تحت عبء الديون بعد موته[3]». في كلّ حال، لم يُعرف عن الرئيس المصريّ السابق امتلاكه ثروة كبيرة مخبّأة في أحد المصارف السويسريّة، على طريقة الكثير من زعماء دول العالم الثالث. لكنّ شقيقه الأصغر عصمت وابنه طلعت، اللذين جمعا ثروة ضخمة في سنوات قليلة، أدينا بتهم اختلاس الأموال في العام 1983، وهو ما ساهم في تشويه صورة الرئيس الراحل. خصوصًا وأنّ السلطة عهدت بهذا الحكم إلى «محكمة القيم» التي أنشأها السادات لإنفاذ قانونه حول «حماية القيم من العيب». ولم يغيّر محامو الدفاع شيئًا حين ندّدوا بذلك «القانون السخيف، الفريد من نوعه في العالم»...

أقيم للسادات متحف صغير في بلدته ميت أبو الكوم. وفيه حاجاته المألوفة (كالخيزرانات، والغلايين، والأخفاف...)، وجلّابيتان، والبندقيّة التي أحبّ صيد الطيور بها، وحتّى فرشاة أسنان، وعبوة معجون أسنان مستعملة. ومن جهتها، خصّصت له مكتبة الإسكندريّة مساحة 260 مترًا مربّعًا، أبرز ما عُرض فيها البزّة العسكريّة المدمّاة التي كان يلبسها يوم اغتياله. كما بوسع الزائرين سماع آيات من القرآن الكريم تلاها وسجّلها بنفسه على كاسيتات.

في العام 1997، ولمناسبة الذكرى العشرين لرحلته إلى القدس، قامت عدّة شخصيّات مصريّة وإسرائيليّة وأميركيّة بتكريمه في مؤتمر عُقد في واشنطن. ومن جملة ما قيل، اعتراف بالذنب أدلى به عالم

---

[3] جيهان السادات، *My Hope for Peace*، المرجع السابق، ص. 91.

الاجتماع اليساريّ سعد الدين ابراهيم، الذي حيّا تلك «الرحلة العظيمة» و«رؤيا السلام والمصالحة» التي كانت لصاحبها[4].

في العام 2001، حظي خلف عبد الناصر بتكريم غير مباشر من جانب مئات آلاف المصريّين. فقد لاقى فيلم «أيّام السادات» الذي أخرجه محمّد خان نجاحًا كبيرًا في الصالات، محقّقًا أحد أكبر المداخيل الماليّة للسينما المحلّية. ونجح الممثّل المشهور أحمد زكي، الذي سبق أن مثّل دور عبد الناصر في فيلم آخر، في رسم صورة رئيس جذّاب وودود بصورة عامّة. علمًا أنّ عائلة هذا الأخير، الحريصة جدًّا على الدفاع عن ذكراه، احتفظت بحقّها في إلقاء نظرة على سيناريو الفيلم.

هل يجب أن نرى في السادات رجل دولة عظيمًا، صاحب شجاعة ورؤيا، سمح لمصر بتحقيق السلام مع إسرائيل واسترجاع سيناء؟ أم سياسيًّا ماكرًا قاد بلده إلى طريق مسدود وفتح الباب أمام التطرّف الإسلاميّ؟ إنّ تناقضات تلك الشخصيّة أكبر بكثير من أن تسمح بتقديم إجابة حاسمة. وفي إشارته إلى «هذا المزيج من العظمة والسخافة»، خاطب الصحفيّ كريستوف أياد السادات بهذه الكلمات القاسية: «كان فيك دائمًا شيء من الخداع والغموض وعدم السويّة، منعنا من الإعجاب بك بلا حدود. أردت أن تكون كلّ شيء في آن واحد: بطلًا للحرب وللسلام، مسلمًا متشدّدًا وساعيًا متنوّرًا إلى الحداثة، ابن فلّاح وضابطًا وصوليًّا. زعمت أنّ حكمك كان باسم العلم والإيمان؟ وكأنّ بوسعك الجمع بين الأضداد...[5]»

ليس ممنوعًا على أحد أن يتناقض مع نفسه. وإدارة الدولة قد تقود أحيانًا إلى الكذب، من أجل قضيّة محقّة. لكن كيف السبيل إلى تجاهل

---

4 كلمة سعد الدين ابراهيم في ندوة بعنوان *Sadate and His Legacy, Egypt and the World 1977-1997*، في معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، 1988.

5 «Quand tu faisais le pharaon»، *Libération*، 19 آب/أغسطس 2004.

الروايات المتلاحقة التي أعطاها السادات للأحداث التي شارك فيها؟ لقد عمل على تكييف الحقائق بطريقة أقلّ ما يُقال فيها إنّها مربكة. «كانت له قدرة غير عاديّة على تشويه الوقائع»، يؤكّد أندريه غروميكو، وزير الخارجيّة السوفياتي السابق، الذي لا يجد لدى السادات أيّة صفة حسنة[6].

للتخفيف من مسؤوليّة السادات، يمكننا أن نذكر أنّه ورث بلدًا مفلسًا ومذلولًا، تسيطر عليه بيروقراطيّة تمتدّ إلى كلّ مفاصله وتشلّ حركته، على خلفيّة من الرعب البوليسيّ. لم تكن لديه ثقافة تشرشل أو ديغول. فقد تابع دراسات ثانويّة كيفما اتّفق، ولم يحظ بدعم عائليّ حقيقيّ، ثمّ انتسب إلى الكليّة الحربيّة في عامه الثامن عشر، وما عتّم أن دخل السجن. وقد حاول السادات سدّ تلك الثغرات إلى حدّ ما بالقراءات، واللقاءات، والحدس. وكان إلياهو بن إليسار، أوّل سفير إسرائيليّ في القاهرة، والحائز على شهادتي دكتوراه، يقول: «لا يملك السادات معرفة كبيرة في التاريخ، لكنّه يملك حسًّا تاريخيًّا[7]».

كثيرًا ما جرى الحديث عن وجوه التعارض بينه وبين عبد الناصر، إلى درجة المبالغة. فمن وجهة نظر معيّنة، يلاحظ جورج قرم «أنّ الرجلين يتشابهان كتوأمين[8]». فأحدهما رمى ببلده في أحضان الغرب الاشتراكيّ، فيما الآخر رمى به في أحضان الغرب الرأسماليّ. «إرتكب عبد الناصر مبالغات كثيرة جدًّا في تطبيق اشتراكيّة بيروقراطيّة وفاسدة. وكذلك كان شأن السادات في تشريع أبواب مصر على رأسماليّة متوحّشة لا تضع نصب عينيها سوى الصفقات، أي أنّها لم تكن أقلّ فسادًا من الاشتراكيّة. لكنّ تينك السياستين تنطلقان من ظاهرة واحدة: قلق هائل يعيشه رجلان، هما ابنا الشعب، أمام فقر بلدهما ومذلّته...».

---

[6] أندريه غروميكو، *Mémoires*، Belfond، 1989، ص. 264.

[7] تصريح لموقع Jweekly.com، 28 تشرين الثاني/نوفمبر 1997.

[8] جورج قرم، المرجع السابق، ص. 276.

للدفاع عن ذكرى زوجها، اختارت جيهان السادات الوقار وعيش حياة سيدة أولى سابقة يُقتدى بها. وصرّحت لمحطّة تلفزيون أميركيّة: «لم نكن فقط زوجين. كنّا شريكين يحبّ أحدهما الآخر ويحترمه، حاولا معًا أن يفعلا لبلدهما شيئًا[9]». كانت بحاجة إلى بعض الوقت للنهوض من حزنها، ثمّ ذهبت للتعليم في جامعات أميركيّة، وخصوصًا جامعة ماريلاند التي خصّصت منذ العام 1997 كرسيًّا باسم أنور السادات. واصلت الدفاع عن حقوق المرأة، وقامت بكتابة مذكّراتها، وألفّت القصائد، وبدأت الرسم. وعُرضت لوحاتها في الجامعة الأميركيّة في القاهرة في آب/أغسطس 2010.

حين كان زوجها حيًّا، كانت أولى مَن حملن لقب «السيّدة الأولى» في تاريخ مصر، تقول لنفسها: « ليت الناس يستطيعون رؤيته بعينيّ![10]» وهي لم تتخلّ عن هذا الحلم قطّ...

---

9 قناة CNN، 26 آذار/مارس 2009.

10 أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص. 187.

التسلسل التاريخي للأحداث

25 كانون الأوّل/ديسمبر 1918	**ولادة أنور السادات في ميت أبو الكوم (محافظة المنوفية)**
أيلول/سبتمبر 1925	عائلة السادات تنتقل للإقامة في القاهرة
تشرين الثاني/نوفمبر 1936	دخول السادات إلى الكلية الحربية
شباط/فبراير 1938-آذار/مارس 1939	تعيين السادات ملازماً في منقباد
أيّار/مايو 1939	تعيين السادات ضابط اتصالات في المعادي
تشرين الثاني/نوفمبر 1940	زواج السادات بإقبال ماضي
تموز/يوليو 1942	إعتقال السادات في قضية الجاسوسين النازيين
8 تشرين الأوّل/أكتوبر 1942	طرد السادات من الجيش
كانون الأوّل/ديسمبر 1942	نقل السادات إلى سجن ماقوسة
تشرين الثاني/نوفمبر 1943	نقل السادات إلى سجن الزيتون
تشرين الأوّل/أكتوبر 1944	هروب السادات من السجن ليعيش لفترةٍ متخفيًا
11 كانون الثاني/يناير 1946	إعتقال السادات مجدّدًا بعد مقتل أمين عثمان
14 أيّار/مايو 1948	**إندلاع أولى الحروب العربية الإسرائيلية،** والتي ستنتهي في آذار/مارس من العام التالي
آب/أغسطس 1948	أُطلاقَ سراح السادات بعد تبرئته من التهمة
29 أيّار/مايو 1949	زواج السادات بجيهان رؤوف

15 كانون الثاني/يناير 1950	عودة السادات إلى الجيش
23 تموز/يوليو 1952	السادات يعلن عبر الراديو خبر **الانقلاب العسكري**
تشرين الأوّل/أكتوبر 1953	تعيين السادات نائبًا لرئيس المحكمة الثورية
كانون الأوّل/ديسمبر 1953	تعيين السادات مديرًا لجريدة الجمهورية
17 نيسان/أبريل 1954	تعيين السادات وزير دولة
كانون الثاني/يناير 1955	تعيين السادات أمينًا عامًّا لمنظمة المؤتمر الإسلامي
تموز/يوليو-كانون الأوّل/ ديسمبر 1956	**أزمة السويس**
1957	تعيين السادات نائب رئيس لمجلس الأمة
1 شباط/فبراير 1958	**ولادة الجمهورية العربية المتحدة (بين مصر وسوريا)**
15 أيّار/مايو 1960	إصابة السادات بأول أزمة قلبية
تموز/يوليو 1960	تعيين السادات رئيسًا لمجلس الأمّة الاتّحاديّ بين إقليمَي الجمهوريّة العربيّة المتّحدة
1 أيّار/مايو 1961	قيام السادات برحلته الأولى إلى موسكو
29 أيلول/سبتمبر 1961	**نهاية الجمهورية العربية المتّحدة**
تشرين الثاني/نوفمبر 1961	تعيين السادات أمينًا عامًّا للجنة الخبراء
تموز/يوليو 1962	تعيين السادات أمينًا عامًّا مساعدًا للمؤتمر الوطني لقوى الشعب
أيلول/سبتمبر 1962	تعيين السادات عضوًا في مجلس الرئاسة
أيلول/سبتمبر 1962	**حرب اليمن**
آذار/مارس 1964	تعيين السادات رئيسًا لمجلس الأمة
18 كانون الأوّل/ديسمبر 1964	تعيين السادات نائبًا لرئيس الجمهورية
أيلول/سبتمبر 1965	السادات يرافق عبد الناصر إلى موسكو
شباط/فبراير 1966	السادات يقوم بزيارة رسمية إلى الولايات المتحدة الأميركية
5 حزيران/يونيو 1967	**حرب الأيّام الستة**
أيلول/سبتمبر 1968	تعيين السادات عضوًا في اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي
كانون الأوّل/ديسمبر 1968	تعيين السادات عضوًا في اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي

20 كانون الأوّل/ديسمبر 1969	تعيين السادات نائبًا لرئيس الجمهورية، للمرة الثانية

1970

آب/أغسطس	إصابة السادات بأزمة قلبية للمرة الثانية
7 آب/أغسطس	نهاية حرب الاستنزاف بين مصر وإسرائيل
بين 17-25 أيلول/سبتمبر	مجازر «أيلول الأسود» في الأردن
28 أيلول/سبتمبر	**موت عبد الناصر**
15 تشرين الأوّل/أكتوبر	**انتخاب السادات رئيسًا للجمهورية**
تشرين الثاني/نوفمبر	الإعلان عن تمديد العمل بوقف إطلاق النار مع إسرائيل حتى شباط/فبراير 1971
8 تشرين الثاني/نوفمبر	مشروع وحدة فدرالية مع ليبيا والسودان وسوريا

1971

15 كانون الثاني/يناير	السادات وبودغورني يدشّنان السد العالي في أسوان
4 شباط/فبراير	تمديد جديد لوقف إطلاق النار. إقتراح بإعادة فتح قناة السويس مقابل انسحاب جزئي للقوات الإسرائيلية
9 شباط/فبراير	إعادة الأراضي إلى 800 ملّاك، والتعويض على الملّاكين المتضررين بفعل الإصلاح الزراعي الذي أُنجِزَ في تموز/يوليو 1969
15 شباط/فبراير	السادات يؤكّد استعداده تحقيق السلام مع إسرائيل، لكنه ألغى وقف إطلاق النار
1 آذار/مارس	السادات يقوم برحلة سرية لمدة 48 ساعة إلى موسكو
17 نيسان/أبريل	الإعلان في بنغازي عن اتحاد الجمهوريات العربية بين مصر وليبيا وسوريا
29 نيسان/أبريل	الحزب الحاكم يسقط اتحاد الجمهوريات العربية
2 أيّار/مايو	إقالة علي صبري

4 أيّار/مايو	استقبال ويليام روجرز في القاهرة
15 أيّار/مايو	**إقالة المعارضين وأمر باعتقالهم**، كما أعلن عن انتخابات حرّة ومؤسسات جديدة
27 أيّار/مايو	السادات يبرم مع موسكو معاهدة صداقة مصرية سوفياتية
5 حزيران/يونيو	السادات يؤكّد أنّ العام 1971 سيكون عام الحسم في الصراع مع إسرائيل
11 أيلول/سبتمبر	**الإعلان عن دستور جديد**

1972

24 كانون الثاني/يناير	مجابهات بين الطلبة وقوات النظام في القاهرة
27 نيسان/أبريل	السادات يقوم برحلته الرابعة منذ تسلّمه الرئاسة إلى موسكو
18 تموز/يوليو	**طرد الخبراء العسكريين السوفيات**
5 أيلول/سبتمبر	عملية ميونيخ التي قتلت فيها مجموعة «أيلول الأسود» الفلسطينية 11 رياضيًا إسرائيليًا كانوا يشاركون في الألعاب الأولمبية

1973

شباط/فبراير-آذار/مارس	إبعاد صحفيين ومثقفين يساريين من الاتحاد الاشتراكي العربي
من 6 إلى 25 تشرين الأوّل/أكتوبر	**حرب أكتوبر، التي شنّتها مصر وسوريا**
22 تشرين الأوّل/أكتوبر	مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة يصدر قرارًا بوقف إطلاق النار
7 تشرين الثاني/نوفمبر	السادات يعيد العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة
22 كانون الأوّل/ديسمبر	مؤتمر للسلام في جنيف يجمع الإسرائيليّين والمصريّين والأردنيّين

1974

18 كانون الثاني/يناير	اتّفاق الكيلومتر 101 الذي يقضي بانسحاب القوات الإسرائيلية إلى شرق القناة

22 نيسان/أبريل	فشل تمرد عسكري في كلية هليوبوليس العسكرية
حزيران/يونيو	**إقرار القانون 43 حول الانفتاح الاقتصادي**
12 حزيران/يونيو	السادات يستقبل الرئيس نيكسون في القاهرة

1975

2-3 كانون الثاني/يناير	قيام مظاهرات تلتها عمليات اعتقال كثيرة
من 27 إلى 29 كانون الثاني/يناير	السادات يقوم بزيارة رسمية إلى فرنسا
آذار/مارس	إضراب 40 ألف عامل في المحلّة، ومجابهات مع الشرطة
15 نيسان/أبريل	تعيين حسني مبارك نائبًا لرئيس الجمهورية
5 حزيران/يونيو	**إعادة فتح قناة السويس**
4 أيلول/سبتمبر	السادات يوقّع الاتّفاق الثاني لفكّ الاشتباك مع إسرائيل
26 تشرين الأوّل/أكتوبر	السادات يزور الولايات المتّحدة

1976

آذار/مارس	الاتحاد الاشتراكي العربيّ يضمّ ثلاثة منابر مختلفة
15 آذار/مارس	مصر تلغي اتّفاق الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفياتي
15 تموز/يوليو	توقيع معاهدة دفاع مشترك بين مصر والسودان
15 تشرين الأوّل/أكتوبر	إعادة انتخاب السادات رئيسًا للجمهورية
تشرين الثاني/نوفمبر	تأسيس عدّة أحزاب سياسية

1977

من 18 إلى 20 كانون الثاني/يناير	إنتفاضة الخبز
3 شباط/فبراير	صدور قرار بمنع الإضرابات والتظاهرات
من 3 إلى 6 نيسان/أبريل	السادات يزور الولايات المتّحدة
17 أيّار/مايو	إنتخابات تشريعية في إسرائيل ووصول الليكود إلى الحكم

2 تموز/يوليو	صدور قانون الأحزاب السياسية
من 21 إلى 25 تموز/يوليو	القوات المصرية تقصف المواقع الليبية
9 تشرين الثاني/نوفمبر	السادات يعلن عن استعداده للذهاب إلى الكنيست
من 19 إلى 21 تشرين الثاني/نوفمبر	**زيارة السادات الأولى لإسرائيل**
5 كانون الأوّل/ديسمبر	دول «جبهة الصمود والتصدّي» العربية تجمّد علاقاتها بمصر
25-26 كانون الأوّل/ ديسمبر	لقاء بين السادات وبيغين في الإسماعيلية

1978

بداية 1978	مجلة تايم تختار السادات رجل العام
4 كانون الثاني/يناير	السادات يستقبل كارتر في أسوان
3 شباط/فبراير	السادات يزور واشنطن
14 آذار/مارس	**الجيش الإسرائيلي يجتاح جنوب لبنان**
21 أيّار/مايو	إستفتاء حول إقرار تدابير استثنائية
2 حزيران/يونيو	صدور قانون يقيّد نظام الأحزاب
6 أيلول/سبتمبر	إفتتاح لقاءات كامب دايفيد
17 أيلول/سبتمبر	**اتّفاقية كامب دايفيد**
10 كانون الأوّل/ديسمبر	السادات وبيغين يحوزان جائزة نوبل للسلام عن العام 1978

1979

آذار/مارس	الرئيس كارتر في القاهرة
26 آذار/مارس	**توقيع معاهدة السلام الإسرائيليّة المصريّة**
31 آذار/مارس	معظم الدول العربية تقطع علاقاتها الدبلوماسية بمصر، وتقرر نقل مقر جامعة الدول العربية إلى تونس
من 2 إلى 4 نيسان/أبريل	زيارة بيغين إلى القاهرة
10 نيسان/أبريل	البرلمان المصري يوافق على معاهدة السلام
12 أيّار/مايو	منظّمة المؤتمر الإسلاميّ تعلّق عضويّة مصر فيها وترفض معاهدة السلام

25 أيّار/مايو	زيارة السادات إلى بئر السبع في النقب. وإعادة العريش، مركز محافظة شمال سيناء، إلى مصر
حزيران/يونيو	«قانون جيهان» يضع حدًّا لبعض الفروق في الحقوق بين الزوج والزوجة
من 10 إلى 12 تموز/يوليو	السادات يلتقي بيغين في الإسكندرية
من 5 إلى 7 أيلول/سبتمبر 1979	استقبال السادات وعائلته في حيفا

1980

من 7 إلى 10 كانون الثاني/يناير	السادات يلتقي بيغين في أسوان
18 شباط/فبراير	**إفتتاح سفارة إسرائيل في القاهرة**
21 آذار/مارس	الموافقة باستفتاء شعبي على الإصلاحات الدستورية
24 آذار/مارس	إستقبال شاه إيران في مصر، حيث ستوافيه المنية ويُدفن في 27 تموز/يوليو من العام نفسه
نيسان/أبريل	مجابهات دامية بين الأقباط والمسلمين في المنيا وأسيوط
15 أيّار/مايو	إصدار قانون للأخلاق، سُمّيَ «قانون العيب»
20 أيّار/مايو	منع الجمعيات الدينية في الجامعات
22 أيّار/مايو	**إقرار إصلاح دستوريّ جعل من الشريعة، اعتبارًا من تاريخه، «المصدر الرئيسيّ» للتشريع**
30 تمّوز/يوليو	الكنيست الإسرائيلي يصوّت على قانون يعلن القدس «عاصمة أبدية لإسرائيل»
من 28 إلى 30 تشرين الأوّل/أكتوبر	إسحاق نافون، رئيس الدولة الإسرائيلية يقوم بزيارة رسمية إلى مصر
4 تشرين الثاني/نوفمبر	إنتخاب رونالد ريغان رئيسًا للولايات المتّحدة الأميركيّة

1981

4 حزيران/يونيو	السادات يلتقي بيغين في شرم الشيخ
7 حزيران/يونيو	**غارة إسرائيليّة على مفاعل تمّوز النوويّ في العراق**
17 حزيران/يونيو	مجابهات دامية بين المسلمين والأقباط في حيّ الزاوية الحمرا في القاهرة
19 حزيران/يونيو	دول المجموعة الاقتصاديّة الأوروبية التسعة يعلنون في البندقية حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره
30 حزيران/يونيو	فوز الليكود في الانتخابات التشريعية في إسرائيل
17 تموز/يوليو	التوقيع في لندن على اتّفاق نشر القوات الدولية في سيناء. بيروت تحت نيران الطائرات الحربية الإسرائيلية
5 آب/أغسطس	رونالد ريغان يستقبل السادات في البيت الأبيض
25-26 آب/أغسطس	السادات يلتقي بيغين في الإسكندرية
2 أيلول/سبتمبر	**إعتقال أكثر من 1500 شخص في مصر**
5 أيلول/سبتمبر	عزل بابا الأقباط
10 أيلول/سبتمبر	الموافقة باستفتاء شعبيّ على اتخاذ تدابير قمعية
6 تشرين الأوّل/أكتوبر	**إغتيال السادات**

الكتب والمراجع

أهمّ مؤلّفات أنور السادات

البحث عن الذات، قصة حياتي، المكتب المصري الحديث، القاهرة، 1998 (الطبعة الأولى 1978).

ثورة على النيل، الطبعة الأولى 1957.

بقلم أنور السادات، قصص أدبيّة ومقالات ثقافيّة، مجموعة نصوص من تقديم خالد عزب وعمرو شلبي، القاهرة، أطلس، 2009.

قصة الثورة كاملة، القاهرة، دار الهلال، 1954.

قصة الوحدة العربية، القاهرة، دار الهلال، 1957.

صفحات مجهولة، القاهرة، دار التحرير للطباعة والنشر، 1954.

وصيّتي، القاهرة، المكتب المصري الحديث، 1982.

يا ولدي هذا عمّك جمال، 1958، طبعة جديدة، القاهرة، المدبولي، 2005.

Those I Have Known, préface de Jimmy Carter, New York, Continuum, 1984.

دراسات وشهادات بالفرنسية (أو مترجمة إلى الفرنسية)

ACLIMANDOS (Tewfik), « Officiers et Frères musulmans », *Etudes et documents*, n°1/2, Le Caire, Cedej (texte en ligne), 2002.

BATTESTI (Vincent) et IRETON (François), dir., *L'Egypte au présent, Inventaire d'une société avant révolution*, Actes Sud, 2011.

BEN ELISSAR (Eliyahou), *Désespoirs de paix. Les mémoires d'un ambassadeur d'Israël*, Ramsay, 2001.

BOUTROS-GHALI (Boutros), *Le Chemin de Jérusalem*, Fayard, 1997.
—, *Entre le Nil et Jérusalem, Chroniques d'un diplomate égyptien*, Le Rocher, 2011.
BOUTROS-GHALI (Boutros) et PERES (Shimon), *Soixante ans de conflit israélo-arabe, Témoignages pour l'histoire*, Complexe, 2006.
CARTER (Jimmy), *Mémoires d'un président*, Plon, 1982.
—, *Le Sang d'Abraham, Réflexions sur le conflit du Moyen-Orient*, Londreys, 1986.
CEDEJ (collectif), *L'Egypte dans le siècle 1901-2000*, Complexe, 2003.
CORM (Georges), *Le Proche-Orient éclaté*, Gallimard Folio Histoire, 2012, 2 tomes.
DAYAN (Moshe), *Paix dans le désert*, Fayard, 1981.
DESJARDINS (Thierry), *Sadate, Pharaon d'Egypte*, Marcel Valtat, 1981.
DESTREMEAU (Christian), *Le Moyen-Orient pendant la Seconde Guerre mondiale*, Perrin, 2011.
DOWEK (Ephraïm), *Vingt ans de relations égypto-israéliennes*, L'Harmattan, 2005.
EBAN (Abba), *Autobiographie*, Buchet-Chastel, 1979.
ENDERLIN (Charles), *Paix ou guerres : les secrets des négociations israélo-arabes, 1917-1997*, Stock, 1997.
FERRIÉ (Jean-Noël), *L'Egypte entre démocratie et islamisme. Le système Moubarak à l'heure de la succession*, Autrement, 2008.
GAYFFIER-BONNEVILLE (Anne-Claire de), *L'Echec de la monarchie égyptienne 1942-1952*, Le Caire, Ifao, 2012.
GISCARD D'ESTAING (Valéry), *Le Pouvoir et la Vie*, tome I, Compagnie 12, 1988.
GOLAN (Matti), *Les Négociations secrètes d'Henry Kissinger au Proche-Orient*, Robert Laffont, 1976.
GROMYKO (Andrei), *Mémoires*, Belfond, 1989.
HEYKAL (Mohammad Hassanein), *L'Automne de la colère. L'assassinat de Sadate*, Ramsay, 1983.
—, *Le Sphinx et le Commissaire. Heurs et malheurs des Soviétiques au Proche-Orient*, Editions J.A., 1978.
HUSSEIN (Mahmoud), *L'Egypte, lutte de classes et libération nationale*, Maspero, 1975.
KEPEL (Gilles), *Le Prophète et Pharaon*, Gallimard Folio Histoire, 2012.
—, *Djihad. Expansion et déclin de l'islamisme*, Gallimard, 2000.
KISSINGER (Henry), *A la Maison Blanche 1968-1973*, Fayard, 1979.
—, *Les Années orageuses* [tome 1 : 1973-1974], Fayard, 1982.
LACOUTURE (Jean), *Nasser*, Seuil, 1971.

LACOUTURE (Jean et Simonne), *L'Egypte en mouvement*, Seuil, 1957.
MAHFOUZ (Naguib), *Pages de mémoires*, Entretiens avec Ragâ al-Naqqach, Sindbad-Actes Sud, 2007.
MIREL (Pierre), *L'Egypte des ruptures. L'ère Sadate, de Nasser à Moubarak*, Sindbad, 1982.
NAHAVANDI (Houchang) et BOMATI (Yves), *Mohammad Réza Pahlavi, le dernier shah (1919-1980)*, Perrin, 2013.
PAHLAVI (Farah), *Mémoires*, XO Editions, 2003.
PERES (Shimon), *Combat pour la paix*, Fayard, 1995.
PIQUET Caroline, *Histoire du canal de Suez*, Perrin, 2009.
POMMIER (Sophie), *Egypte, l'envers du décor*, La Découverte, 2008.
RABIN (Yitzhak), *Mémoires*, Buchet-Chastel, 1980.
RAZOUX (Pierre), *La Guerre du Kippour d'octobre 1973*, Economica, 2011.
RONDOT (Philippe), *Le Proche-Orient à la recherche de la paix 1973-1982*, PUF, 1982.
ROULEAU (Eric), *Dans les coulisses du Proche-Orient. Mémoires d'un journaliste diplomate (1952-2012)*, Fayard, 2012.
SADATE Jihane, *Une femme d'Egypte. Mémoires*, Presses de la Renaissance, 1987.
SAMMAN (Ali el-), *L'Egypte d'une révolution à l'autre*, Le Rocher, 2011.
SHARON (Ariel), *Mémoires*, Stock, 1990.
SHAZLI (Saadeddine al-, général), *La Traversée de Suez*, Alger, Société nationale d'édition et de diffusion, 1983.
SHOUKRI (Ghali), *Egypte, contre-révolution*, Le Sycomore, 1979.
VAUCHER (Georges), *Gamal Abdel Nasser et son équipe*, Julliard, 1961, 2 vol.
WEIZMAN (Ezer), *La Bataille pour la paix*, Hachette, 1981.

دراسات وشهادات بالإنكليزية (أو مترجمة إلى الإنكليزية)

AMIN (Galal), *Egypt in the Era of Hosni Mubarak 1981-2011*, Le Caire, The American University in Cairo Press, 2011.
BAKER (Raymond William), *Sadat and After*, Londres, I.B. Tauris, 1990.
BEATTIE (Kirk), *Egypt during the Sadat Years*, New York, Palgrave, 2000.
BLAISSE (Mark Willem) et MULLER (Konrad R.), *Anwar Sadat, The Last Hundred Days*, Londres, Thames and Hudson, 1981.
BRZEZINSKI (Zbigniew), *Power and Principle. Memoir of the National Security Advisor, 1977-1981*, New York, Farrar, Straus & Giroux, 1983.
FAHMI (Ismaïl), *Negociating for Peace in the Middle East*, Taylor & Francis, 1983.

HEYKAL (Mohammad Hassanein), *The Road to Ramadan*, Quadrangle/ New York Times Book Co., 1975.
HINNEBUSCH (R. A.), *Egyptian Politics under Sadat: the Post-Populist Development of an Authoritarian-Modernizing State*, Cambridge University Press, 1985.
HIRST (David) et BEESON (Irene), *Sadat*, Londres, Faber and Faber, 1982.
ISRAELI (Raphael), *The Public Diary of President Sadat*, Leiden, Brill, 1978-1979.
ISRAELI (Raphael) et BARDENSTEIN (Carol), *Man of Defiance: A Political Biography of Anwar Sadat*, Londres, Weidenfeld and Nicolson, 1985.
KAYS (Doreen), *Frogs and Scorpions - Egypt, Sadat and the Media*, Londres, Frederick Muller Limited, 1984.
QUANDT (William), *Camp David: Peacemaking and Politics*, Washington, Brookings Institution Press, 1986.
SADATE (Camélia), *My Father and I*, New York, Macmillan, 1985.
SADATE (Jihane), *My Hope for Peace*, New York, Free Press, 2009.
SHEEHAN (Edward), *The Arabs, Israelis, and Kissinger: A Secret History of American Diplomacy*, New York, Reader's Digest Books, 1976.
STEIN (Kenneth), *The Camp David Process*, Jérusalem, Menahem Begin Heritage Centre, 2002.
TELHAMY (Shibley), *Power and Leadership in International Bargaining: The Path to the Camp David Accords*, New York, Columbia University Press, 1990.

دراسات وشهادات بالعربيّة

ابراهيم (سعد الدين)، **إعادة الاعتبار للرئيس السادات**، القاهرة، دار الشروق، 1992.
إدريس (يوسف)، **البحث عن السادات**، طرابلس (ليبيا)، المنشأة العامة. 1984.
بهاء الدين (أحمد)، **محاوراتي مع السادات**، دار القاهرة، 2012.
التلمساني (عمر)، **أيّام مع السادات**، القاهرة، دار الاعتصام، 1984.
جامع (محمود)، **عرفت السادات**، القاهرة، المكتب المصري الحديث، 1998.
جلال (أمين)، **الاقتصاد والسياسة والمجتمع في عصر الانفتاح**، القاهرة، المدبولي، 1984.
رمضان (عبد العزيز)، **مصر في عصر السادات**، القاهرة، المدبولي، 1989.
الزيات (محمد عبد السلام)، **السادات: القناع والحقيقة**، كتاب الأهالي، القاهرة، 1989.
السادات (رقيّة أنور)، **ابنته**، القاهرة، دار نهضة مصر.

صبري (موسى)، السادات: الحقيقة والأسطورة، القاهرة، المكتب المصري الحديث، 1985.
صبري (موسى)، مرجع سابق، القاهرة، المكتب المصري الحديث، 1985.
صبري (موسى)، وثائق 15 مايو، القاهرة، المكتب المصري الحديث، 1977.
صبري (موسى)، وثائق حرب أكتوبر، القاهرة، المكتب المصري الحديث، 1975.
طويلة (عبد الستار)، أنور السادات الذي عرفته، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992.
عبد اللطيف (عماد)، استراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسيّ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012.
عبدو (سمير)، التحليل النفسي للسادات، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1996.
كامل (رشاد)، السادات، المبادرة والمنصّة، القاهرة، سوزانا للنشر، 1994.
كامل (رشاد)، ذكريات يوسف إدريس، القاهرة، 1991.
كامل (محمد ابراهيم)، السلام الضائع في اتفاقية كامب دايفيد، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، 2002.
منصور (أنيس)، من أوراق السادات، القاهرة، دار المعارف، 2009.

الندوات

ندوة الذكرى الخامسة والعشرين لاتّفاقية كامب دايفيد، مركز كارتر، واشنطن، 17 أيلول/سبتمبر 2003.
السادات وإرثه، مصر والعالم 1977،1997 في معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، 1988.
إرث كامب دايفيد، 1979-2009، The Middle East Institute Viewpoints، واشنطن، 2009.

مواقع الإنترنت

http://www.sadat.umd.edu/ Anwar Sadat Chair of Peace and Development, Maryland University (بالإنكليزية)
http://sadat.bibalex.org/ Anwar El Sadat Digital Archive (بالعربية)
http://www.anwarsadat.org/ بالعربية، أنشأ الموقع أنور عصمت السادات

الفهرس

بطل الحرب والسلام أم خائن العرب وقضيتهم؟ الرئيس المؤمن أم عدو الإسلاميين الذي قضى على يد أحدهم؟ صديق عبد الناصر أم كارهه الأول؟ أحد أعمدة الاتحاد الاشتراكي أم حليف الرأسمالية العالمية؟ حافظ الإرث الاشتراكي أم منظّر الانفتاح الذي رافقه وعدٌ بالبحبوحة... سرعان ما تبدّد ليغرق البلد في الديون؟

الرئيس الذي استعاد سيناء عن حق أم ذلك الذي احتفى باستعادة صوَرية مذلّة لأراضي 67؟ بطل عبور 73 أم ممثل خائب ضلّ طريق السينما فوصل إلى مسرح السياسة ليصنع بطولةً لم تكن بالحجم الذي صوّرها به الإعلام العالمي؟

لا شكّ في أنّ السادات هو من أكثر القادة العرب إثارة للجدل، بمواقفه المتقلّبة، وشخصيته الاستعراضية، وتاريخه الحافل بالتناقضات. مع ذلك، يظلّ الرجل محطّ إجماع في نقطة لا لبس فيها: باعتراف الجميع، قام السادات بمبادرات غيّرت جوهر المعطيات في الشرق الأوسط.

فمن هو ذلك الرجل الذي اعتُقِلَ واعتقل؟ شارك في الثورة ولم يشارك؟ اغتال ثم اغتيل؟

هذا الكتاب، ثمرة سنوات طويلة من الأبحاث، هو السيرة التحليلية الأولى التي تكشف النقاب عن الرجل والإنسان خلف الأسطورة.

روبير سوليه – صحافي في جريدة «لوموند»، كرّس جزءًا كبيرًا من كتاباته ورواياته، الصادرة جميعها بالفرنسية، لبلده الأم – مصر – حيث وُلد عام 1946.

تُرجمت له عدّة عناوين إلى العربية من بينها «مزاج»، «سقوط الفرعون» و«ولع فرنسي».


ISBN 978-614-438-154-0

نوفل هي دمغة الناشر



